النيل يجـــرى فى دمى

ذكريات إنسان يتحدى المرض

فتحى سلامة

النيل يجرى فى دمى
ذكريات إنسان يتحدى المرض
الطبعة الأولى : ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٣٣٨٩

تصحيح لغوى : أشرف السعدى

المراسلات على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة رقم بريدى : ١١٥٦١

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩
شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
أنس الفقى

أمين عام النشر
محمد السيد عيد

الإشراف العام
فكرى النقاش

الإشراف الفنى وتصميم الغلاف
غريب ندا

النيل يجرى فى دمى

ذكريات إنسان يتحدى المرض

عندما نقلونى إلى عنبر الموتى ، لم أكن أدرى : هل أنا ما زلت حيًّا أم أن ما أراه هو عالم الموتى ؟ . . لاحظت أن جسد الرجل الذى يرقد بجوارى فى تابوت معدنى لا يتحرك ، وأن شعر صدره ثابت لا يهتز ، وصدره لا يعلو ولا يهبط . كبلتنى الدهشة من منظر جسد هذا الرجل العارى ، والذى يرقد بجوارى ، كان وجهى لسقف الحجرة أو العنبر ، الضوء خافت لا صوت ولا حركة ، لماذا وضعونى هنا ؟! أدرك أن عقلى يعمل ، لا أشعر بالرهبة ولا بالخوف ، إنما الدهشة من رؤيتى لجسد جارى الذى لا يتحرك ، وأيضا بعض الدهشة لكونى هنا ! إنهم أجروا لى الجراحة للمرة الثانية ، وشعرت بوخز الإبرة السميكة وهى تخيط صدرى ، أَلَم خفيف ، عقلى يعمل ، أسمع الممرضة السمراء وهى تصفنى بأننى مريض متعب ، كانت تأكل السندوتش وتشرب الشاى ، تعجبت لأن لونها أسمر ، بدت مألوفة الوجه ، أحاطونى بأجهزة فضية تلمع ، أرقد واقفا أفكر أين رأيت هذه الممرضة السمراء ؟

ثم حملونى إلى هنا . و لم يعد أحد يهتم بى ، مضت ليلة كاملة و عقلى يغلى مثل قدر الشاى ، فى الصباح صاح الرجل و هو ينظر نحوى إنه حى ، لا يزال يتنفس ، دبت الحركة من حولى ونقلونى إلى غرفة خاصة . . علمت بعد أيام أننى هبطت عند الموتى ، لم أنزعج من هذا الخبر ، أشرت إلى ابنتى أن تقترب ، و طلبت منها أن تبحث عن طبيب أمراض نفسية . قلت : نالتنى لوثة عقلية ، أعلم أعراضها بحكم دراستى . بدأت أرى المعارك و أشترك فيها . . خضت معركة الردة التى قادها أبو بكر ، كنت أقاتل و أنا واقف على مقعد الحجرة ثم أنادى للصلاة ، ابنتى لم تكن مقتنعة بأننى أصبت بلوثة عقلية ، على الرغم من أنها شاهدتنى و أنا أفعل كل هذا . قال الطبيب : إن أمامى أيامًا عدة ، شعرت بالغيظ لأن الطبيب الإنجليزى هو الذى قتلنى ، نقلونى إلى مستشفى أخرى . هناك قابلته ، قال لى يجب أن تحارب ، أنت وحدك القادر على شفاء جسدك ، أحارب ، ولكن كيف أحارب و ليس فى جسدى جزء يتحرك ؟! شلل كامل ، لا أملك إلا عقلى ، أصلى بعقلى وأحلم وأعيش ، و أقود المعارك ، ولكن جسدى لا يتحرك ، أحارب ، كيف أحارب ؟ ماذا أملك من أسلحة الحرب ؟ لم يكن لى عمل إلا الكتابة ، وضعت ابنتى أمامى جهاز تسجيل ، قالت : قل ما تفكر فيه ، خرج الصوت مشوشا ، لا فرق بين الكاف و الخاء ،

قالت ابنتى لا يهم ، أنت تدرى ما هى الكلمة وتفهم معناها ، اكتب لنفسك لا للناس ، لا يهم وضوح الصوت . وبدأت أملى على جهاز التسجيل ما كان يدور بنفسى وأيام تمر ، وأنا أهمس لجهاز التسجيل ، والأطباء يضعون قضبانا من حديد فى صدرى ، ونزيف الدم لا يتوقف ، وكل أنواع الحقن لا تتوقف .

والطبيب الهندى يقول : يجب أن تحارب . وحربى الكتابية آنستنى . شق المشارط فى لحمى ، ووخز الإبر فى عروقى ، وقضبان الحديد التى يدخلونها فى صدرى . . وأنا أسجل كل ما يدور بذهنى . لم أكن أطمع فى أن أراه مطبوعا ومنشورا . . هكذا كان هذا الكتاب ، الذى اعتبرته جامعة السربون فى فرنسا بداية طريقة جديدة للعلاج عن طريق الكتابة ، وترجموه إلى الفرنسية . .

ولا أدرى هل يمكن للمرضى أن يحققوا الشفاء بهذه الطريقة ؟ تلك التى بهرت الدكتور يعقوب فى لندن ، والدكتور كمال منصور المصرى المقيم فى جامعة أتلانتا ، والذى أجرى لى الجراحة الأخيرة ، وكانت من وحى نصيحة الدكتور الهندى بانديا ، وله التحية . . هكذا كان هذا الكتاب . وللأمانة كان هذا الجزء الثانى من الكتاب الذى أمليته وأنا على فراش العلاج بمستشفى الأولدكورت بلندن ونقله كتابة الشاعر حسن حامد ،

وقدمه لطلاب الجامعة الأستاذ الدكتور محمود الحسيني ، وللجميع الشكر وخاصة لمترجمة الكتاب إلى الفرنسية (فاتيما) .

فتحى سلامة

الفصل الأول

حجرتى بيضاء ، راقد أنا انظر إلى الجدران ، انتابنى شعور بالأمل .

. . هذه اللحظات من الممكن أن تحدث ، وليست الإقامة بالمستشفيات كلها ألم وإن كانت الحياة تضيق بالراقدين على فراش المرض ، فالمرض مثل الشوك لا تستطيع نزعه كما لا تستطيع أن تتحمله فإنك ترقد عليه ويرقد هو فوقك ، إنك مريض سواء أكنت راقدا أم جالسا - طالما إنك موجود بالمستشفى ، سارة ابنة زميلى تحفظ ما تيسر من القرآن الكريم وقد قرأت بعض سوره وسعدنا بها ، وتذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قد منّ علينا بالإسلام ، وهى درجة عالية لا يصل إليها كل مشتاق ولكن الله يهبها لمن يشاء ؛ لأن الإيمان ليس فعلا إيجابيا من الفرد إنما هو فعل مشيئى من الله لأن الله يريدك أن تكون مؤمنا ، فإذا وجدت نفسك مؤمنا فإن هذا فضل من الله سبحانه وتعالى يجب أن تشكره وتحمده وتقول إنه كتبها لى

و بالتالى تثق بنفسك ، الله سبحانه و تعالى يقول وقوله الحق « أنا عند حسن ظن عبدى بى » فإذا ظن العبد فى ربه الكرم فإنه سبحانه و تعالى لن يضن عليه بذلك الكرم فلهذا ؛ فإننى سعيد كل السعادة لأننى مؤمن و لأننى مسلم ، و لأننى على درجة ما من الثقة بنفسى و سعيد سعادة كبيرة بإيمانى هذا و عندى أمل فى الله ، إن الله سبحانه و تعالى إن دعوته بالمنان سيمن علينا جميعا بالشفاء.

نعود إلى تلك الحادثة التى مرت بى الساعات الماضية ذلك أن الذى مر بى فى تلك المنطقة التى كنت أظنها الكويت ، أو هكذا ظننت أنها كذلك ، أقصد خلال تلك الحادثة التى مرت بى و التى ظللت أناضل حتى جاءت ابنتى وأمسكت بى و لكنى كنت أصيح بشكل جنونى على جنودى لكى يدافعوا عن الإسلام ، ولكى يبايعوا لأبى بكر الصديق خليفة لرسول الله « ﷺ » ، ومرت الحادثة و دخلت ابنتى و تطلعت حولى فإذا بى أجدنى و أنا جالس على مقعد أضيق به و يضيق بى و من حولى ابنتى و بعض الممرضات يحاولن مناولتى طعاما و دواء وأشياء أخرى ، لا أدرى لماذا سألت ابنتى قلت لابنتى هل أنا مجنون ؟ قالت لا يا أبى أنت سليم بإذن الله ، فقلت أين أنا إذا ؟ قالت فى مستشفى تابعة لجامعة أكسفورد بقسم القلب و أنت الآن فى مركز رعاية و عناية المرضى بالقلب فقلت إذا لست بمجنون ، فالألم

يمزقنى والمجانين لا يشعرون بالألم ، قالت حسنا ، هكذا الحال .

سنعود إلى تلك الليالى مرة أخرى لأنها ليال لم تزل تطاردنى بآلامها العميقة

دخل الطبيب الهندى مبتسما :

- صباح الخير .

هذا هو طبيبى وسوف أتحدث إليه بالإنجليزية بالطبع . (توقف التسجيل) .

طبيبى رجل عطوف للغاية ، آسف لأننى سجلت تلك العبارات باللغة الإنجليزية ، فقد تعودت أن أتكلم باللغة الإنجليزية ، وهى عبارة عن مجموعة من الكلمات والمصطلحات علقت بذهنى وعندما أحاول أن أتذكر كلمات أخرى لا أجدها ، كل ما فى الأمر أننى أردد دائما للممرضات بالإنجليزية أنت عطوفة ، وأنت طيبة ، شكرا لكم ، إننى سعيد لأنكن بجوارى ، هكذا ... أردد تلك العبارات ، والألم يمزقنى ، وأنا أبتسم وأقول للممرضة التى جاءت لقياس درجة الحرارة أو لوضع المزيد من أنابيب الحقن ... أنت غاية فى الرقة، كما أنك جميلة جدا ، وهذه الكلمات تجعلهن يشعرن بالسعادة ويبتسمن ؛ لأننى أشعر بأننى ضيف ثقيل وطلباتى كثيرة تبدو وكأن لا نهاية لها ... وأصبحت أشعر بأننى

مريض لا تطاق معاملته ، فهوسى كثير ، وعقلى لا يكف عن العبث وأكاد أعيش فى عالمين منفصلين : عالم يسيطر على داخلى - يتغير ويتحول وأنفعل به وعالم آخر ، هو ما يدور فى حجرتى ، فأنا المريض الراقد على ظهره تحيط به أجهزة ذات أحجام وألوان ، العالم الأول لا أتخيله إنما أعيشه وأعايشه ، أغوص فيه ، ليس هربا من الألم الذى لا يطاق ، إنما لأنه يسيطر على فكرى فأعيشه واقعا غير متخيل لا حالم ، والعالم الثانى أو (أنا الثانى) يأكله الألم ، ألم لا يطاق ، يهرسه ويذيبه ، أنا الأول فى عالمه الأول يعيش فى صراعات عنيفة تحدث فى أزمنة مختلفة ، هما عالمان ، عالم أصبحت لا أتخيل العيش بعيدا عنه يجعلنى أهرب من الألم إلى ألم ، والصراع ضد الموت بحد السيف تارة ، وتارة أخرى يطوقنى حبل الشنق ، كل هذا يحدث فى أزمنة سحيقة لا أدرى لماذا أرحل إليها أو يرحل الزمن ويزحف نحوى فيركبنى ؟! وأرانى وقد وقفت داخله أحارب إلى حد الموت وأعتقد جازما أننى ولدت منذ زمن طويل لامرأة كانت أميرة وقد تم شنقها ، أحيانا أشنق معها وأموت وأحيانا أخرى تشنق أمام عينى ، ويرقب عالمى الثانى عالمى الأول وكأنهما لشخصين منفصلين أحدهما أنا ذلك الراقد الذى يحكى لكم الآن وتصل أذنه تلك (التكة) الرتيبة من جهاز (الحقن الآلى) ، وترقب عينى قطرات الدم الأحمر

اللاتى تتساقط من الكيس المعلق قطرة ، قطرة ، ترقب عينى تلك القطرات فى ذات الوقت التى ترى فيها أميرة البلاد و قد وقفت فى ثبات و حول رقبتها حبل المشنقة المعد لشنقها ، و أراها سمراء طويلة نحيلة ، ترقبنى فى شفقة ، شامخة الرأس فى كبرياء ، و كأنها تقول لى لا تخف و لا تخش الموت فإنا عائدون ، أمى - أصرخ يحضر الطبيب لابد من أن أقول له : « كم أنت عطوف و ماهر ، و كم أنا مدين لك لاهتمامك بى » ، لا أدرى لماذا أعتقد إن ما أراه فى الحالتين حقيقة ، و الثابت أننى بالفعل ذلك الولد ابن تلك الأميرة المشنوقة ، هذه ليست أول مرة أعرف هذا ، لقد عرفته من قبل ، و أعرفه الآن ، بل أعيشه حسنا قلت أعيش إذا فأنا مدرك أننى أعيش بالفعل و مدرك أن أمامى طعام الإفطار، يبدو أننى بدأت أعيش أنا الثانى فى عالمى الثانى ؛ لأننى منذ فترة طويلة لم أكن أعرف الأيام و قد عرفت اليوم ، إنه يوم السبت ، ماذا يهم إذا كان اليوم هو يوم السبت أم الأحد أم أى يوم آخر ، ماذا يهم إذا كنا فى الشهر الرابع أم الخامس أم أى شهر آخر لا يهم التواريخ ، بل لا يوجد أهمية على الإطلاق لأى شيء ، لقد أوقفت عقلى ، ها هى ذى ابنتى تطعمنى ، كما أنها تقوم بدلا عنى بكل شيء ، فابنتى بيضاء شقراء ، و أمى سمراء ، و يبتسمان لى دوما أرى ابتسامة ابنتى ، و اليوم عرفت أن ابنتى ذكية لماحة ، جديرة بالثقة ، لم أكن

أعرف ابنتى كما يجب - اليوم عرفتها ، كنت أعرف أنها على درجة كبيرة من الإيمان بالله فهى تصلى و تقرأ القرآن و تراعى الله فى كل شىء ، كنت أعرف هذا و لكنى لم أعايشه ، و لم ألمسه عن قرب ، واليوم عرفت كم هى قوية ، و قد رأيتها تتصرف وحدها وسط حشد كبير من الأطباء و الممرضات و أساتذة جامعة أكسفورد إنها تدير شئونى ، تروح و تجىء و تحاور و تسأل وتعرف ، و قد رأيت اليوم كم أحبها فكل هؤلاء ، مديرة المطعم تقدم لها طعاما خاصا ، بل تطهو لها الطعام بنفسها، و كبيرة الممرضات تشملها برعايتها و الأطباء يحيطون بها فى رعاية أبوية ، لم أكن أدرى أن لابنتى كل هذه الخصال التى جعلتها موضع احترام و تقدير و عطف كل هؤلاء ، يهرعون لتلبية طلباتها ، عرفت اليوم . . . اليوم فقط كم عانت و كم تحملت و ماذا فعلت من أجلى ، يبدو أننى أصبحت مدركا . . . فقد وجدت نفسى منطلقا فى الحديث عن ابنتى ربما لأننى أبغض تلك الغرفة ، و ذلك الفراش ، و هذه المستشفى كلها ، كرهت أكسفورد و من فيها ، شعرت بأنهم هم أيضا يبغضوننى رغم حبهم لابنتى ، و اهتمامهم بأن يفعلوا من أجلها كل شىء ، لاحظت هذا بل عرفت أننى كنت ألاحظ هذا منذ اليوم الأول و لم أكن مدركه ، واليوم قررت أن أترك المستشفى اللعينة . بالليل انتابتنى بعض الهواجس فأنا أراهم هنا

بالمستشفى ، أقصد مستشفى أكسفورد و قد أهملونى (. . أطباء كثيرون يجيئون و يذهبون يسألون الأسئلة نفسها ، ثم الأجوبة نفسها ، و لكن لا شيء . ممرضات كثيرات جميلات شقراوات لا يستطعن رفع جهاز الحقن و ينصرفن بحجة إرسال خبراء فى هذا الأمر) أتبول لا إراديًا ، لم أعد أملك جسدى كأنه جسد شخص آخر ، لست أنا النائم على الفراش ، و لا أنا قائد المسلمين فى حرب فارس و لا حتى ذلك الطفل ابن الأميرة المشنوقة ، شخص ثالث لا أعرفه ، أراهم الثلاثة فى وقت واحد ، أراقبهم ، عقلى يعمل و يدقق و يتأمل ذلك الشخص الثالث الذى يتبول على نفسه ليل نهار ، و الذى لم يعد قادرا على ابتلاع الطعام أو الشراب ، ماذا يكون . . . ؟ هل أنا ؟ ومن أكون أنا بين تلك الشخصيات الثلاثة ؟ ، لابد من مغادرة المستشفى قررت ، وآسف لاستخدام ضمير المتكلم ؛ لأننى لا أدرى من الذى قرر ، ربما عقلى فقط هو الذى قرر ، قرر ترك المستشفى ، هذه المستشفى الضخمة الهائلة بأطبائها و أساتذتها لا يقدرون على معالجة التبول اللاإرادى ، و لا يستطيعون حقنى ، إنهم فقط يتكلمون يسألون و أجيب ، أردد العبارات ، تذهب ابنتى و تحاول ، و تسأل فيتظاهرون أمامها بأنهم جميعا يتعاونون معى ، إلا أن الواقع لم يكن كذلك فقد قامت هى بكل العمل .

أصبحت أمى وأختى وابنتى وممرضتى وطبيبتى وكل شىء - هأنذا أعود إلى التحدث بضمير المتكلم ، آسف . . . قررت الهرب بجلدى من هذه المستشفى ، فى الليل جاءت الفكرة . فى الصباح الباكر وقبل أن تأتى ابنتى استغثت بالسيدة التى تشرف على (الكافيتريا) اتصلت بأحد الأصدقاء وبصوت غير واضح استنجدت به ورحت أستجدى الأصدقاء الذين أعرفهم : أنقذونى من هذه المستشفى ، نجحت أخيرا فى إقناعهم ، شعرت الممرضات بما يدور حولى وذهبوا إلى ابنتى لكى تمنعنى من مغادرة المستشفى ، هل يعقل أن يخرج مريض وصدره مفتوح وقلبه لا يزال تحت تأثير العملية الجراحية الثانية ؟! إنهما عمليتان فى أسبوع واحد ! وكيف يخرج ؟! يجب ألا يخرج ، وهكذا وجدتها أمامى تبكى ، لن تخرج يا أبى . إلى أين تذهب ؟! فقط بعد أن يزيلوا السلك عن صدرك ، وأن . . . . قاطعتها فى انفعال : لقد سرقوا ابنتى ، أحبوها وأرادوا الاحتفاظ بها ، أما أنا فلا أهمية لى . إنهم يجولون من حولى وأنا أتبول فى فراشى ، وغير قادر على الحركة سرقوا ابنتى وسرقوا حياتى فى الوقت نفسه ، ولم يكتفوا بهذا بل جعلونى عدة أشخاص ، لا أعرف منهم من أنا ، لا أدرى أمر نفسى ، إذا بقيت هنا فلن أشفى ، جاء زميلى فى العمل ، ومدير مكتبنا بلندن - لقد حضر بالمصادفة رآنى ، قرر هو أيضا

أن أخرج من هذه المستشفى . لقد ساءت حالتى كثيرا . . . .
أخذ يردد هذا القول للقنصل العام . صديقى جلال اتصل بمجدى يعقوب يستنجد به ، نحن من بلد واحد ، ووافق مجدى يعقوب أن يستقبلنى و استرحت، ولكن ابنتى تبكى .

جلال صديقى الدمياطى ، رجل أعمال و يعيش فى لندن و متزوج من إنجليزية ، له أصدقاء و معارف كثيرون ، هذه هى المرة الثانية التى يقف بجوارى فى محنتى ، أو فى ذلك الامتحان الذى أراده الله لى - يردد بلهجته الدمياطية :

- أريد أن أسمع نكتة جديدة . باللكنة الألمانية

و جاءت ابنتى تبكى ورآها (عاطف) زميلى ، عاشرته أكثر من عشرين عاما و لكنى لم أعرفه جيدا ، إلا فى تلك اللحظة التى جلس بجوار فراشى و هو يبكى ، جاءت الطبيبة ؛ لكى تقول كلاما كثيرا عن رغبتهم فى علاجى و فى شفائى و فى معاونتى ، كدت أموت غيظا و هى تقول فى نهاية حديثها :

- سوف آمر لك بثلاث حبات من أقراص النوم ، أقراص النوم ؟ هل هذا هو علاجى ؟

و أنا أصبحت خرقة بالية ، و تحول عقلى إلى شوارع متسعة يسير فيها كل من يرغب ، . . . . . أهواك و لن أنسى أبدا هواك يا حبيبى ، لقد اكتشفت قارة جديدة اسمها (المفترى) ، و أنا

الآن أركب المركب الصعب ، وأقلع بها مخترقا المحيط الهادى . . الهادى دوما ، لا زوابع ولا رياح باردة وصوت الهواء يبدو رقيقا مثل تهشم زجاج يأتى من بعيد ، . . . . صرخت ، منعنى عاطف ، لا تزال ابنتى تبكى - رأيت الممرضات والأطباء يتحلقون حولى ، الجميع يتكلمون ، يحاولون ولكن ابن الأميرة يقف صامتا ، أراهم مجرد رجال بملابس بيضاء ، أساتذة أطباء ، ولكن بلا قلوب . . . كان موضع القلب منهم يبدو فارغا ، نعم رأيت موضع القلب فارغا ، ابتسمت ، أشهرت ، سيفى قلت :

أنا عبد الله . . . ولكنكم لا تعرفون الله ، ولا تعرفون كيف يكون الإنسان عبد الله من صنع الله ، وقد خلقني، وسكن بداخلى ، فأنا الله وأنا أعبده ، وأنا أسجد له أعبده . . . . ولكنكم لا تعلمون . . . أنا من صنع الله ، وهبنى قدرته ، لماذا لا يأخذ الإنسان قدرة الله ؛ أليس من خلقه ومن صنعه ومنه ؟ سيدنا (سليمان) تكلم مع الطير ، وسيدنا إبراهيم وضع كل جزء منها على جبل ثم جاءت إليه مغردة . قل فقط لا إله إلا الله . . فقط قلها بقلبك ، ودخل الجن إلى سليمان وأخبره بأن هناك ملكة لها عرش وأنا قادر على حمله إليك ، وأنت جالس فى مكانك ، ولكن البشرى قال له بل أحمله لك قبل أن يرتد إليك طرفك ، البشرى مؤمن ، لديه العلم الذى منحه الله آدم ، فقد

خلق الله آدم وعلمه ، ثم جاء بالملائكة وقال لهم اسجدوا فسجدوا بعد أن سألهم وما استطاعوا أن يجيبوا ، ولكن آدم أجاب ، آدم لديه العلم ، علمٌ علمه له الله ، فلماذا لا يقدر آدم على أن يأتى بعرش بلقيس فى لمح البصر وقد استطاع ويستطيع ؟ العلم هو القوة . . والقوة من عند الله . . فسجد له الملائكة ، والملائكة تعرف وتعلم أن الله منح آدم العلم والقوة ، . . ولكن إبليس كفر - لم يستطع أن يسجد - لقد رفض أن يسجد تكبرا على آدم وليس على الله . . وأقسم إبليس على أن يغوى آدم - لقد طرد من الجنة بسببه ، لقد حرم من رحمة الله بسببه ، إذن ليقعدن له ، فنحن أمام جبهتين متعارضتين : الخير وهو علم آدم وقدرته ، والشر وهو إبليس وأمراضه . إبليس يحرضنا لكى نمرض ، وآدم يدفعنا للابتعاد عن الخطر ، يدفعنا نحو الإيمان بالله . . يكفى الثقة بالله - أنا أثق بالله الذى أعطانى القوة :

لكزنى صديقى عاطف - قال: ماذا تقول ؟

قلت : أريد أن أخرج من هنا .

قال فى ألم : ولكنك تقول كلاما غريبا . . . وهم لا يفهمون ماذا تقول .

قلت : أخبرهم أنت

قال فى ضراعة :

- أرجوك . . أنا لم أفهم شيئا ، فقط يجب أن تكف عن الكلام.

تلفت حولى ، من الذى يتكلم ؟ أنا راقد مستسلم ، أرى صديقى و زميلى عاطف و ابنتى يبكيان ، لا أدرى لماذا يبكيان ، و طبيبا يتكلم و عددًا من الممرضات و قد تحولن إلى راقصات عاريات فى ملهى ليلى ، قلت :

- أنا لا أحب هذه الكباريهات .

قال: لسنا هنا لكى نلهو . . . . إننا نبحث عن ممثلة تقوم لك ببطولة مسرحيتك

قلت له فى قسوة : لماذا تهرب منى أحيانا . . . و تختفى بشكل مريب ؟

قال مبتسما : لا . . . . .فقط لكى لا أفشل فيما قصدته.

قلت فى حده : و هل أنا الذى أسبب لك الفشل ؟

قال و هو يدفعنى لركوب السيارة :

نعم . . . (وشك وحش) . . . . . و أنصحك الابتعاد عندما أريد ذلك .

شعرت بالحزن ، هذه أول مرة يصارحنى صديقى أنور بذلك - وراح يعدد المرات التى فشل فيها ، و ضحكت لقد فشل فى إغضاب الله و لم يستطع ارتكاب المعصية لأننى معه -

فإذا تصرف دونى نجح فى غرامياته و نزواته وكل ما هو جميل بالنسبة له. . . . أما إذا حضرت فإن كل شىء سيفسد بمجرد حضورى .

ضحكت قال عاطف :

لقد وافق القنصل على نقلك إلى مستشفى أخرى تحت رعاية الأستاذ يعقوب و سوف يرسلون إليك سيارة إسعاف .

قالت ابنتى :

- و لكن الممرضات هنا يحذرننا من هذا . . . يمتنعن عن إعطائنا الأوراق. . . . و قد هرب الجراح . ! جراح أكسفورد هرب !

- وجدت نفسى جالسا فى مدخل المستشفى ، إنه عالم كبير ، هائل النساء الداخلات شبه عرايا ، الحرارة شديدة ، تقيأت شعرت بالمرض و قد زحف على بطنى مقتربا من عقلى ، ابنتى أخذتنى إلى الغرفة مرة أخرى ، لم أعد أطيق صبرا - أردت أن أدخل إلى الكعبة وقف رجل أسود منع دخولى .

قالت الممرضة : إنك كسول . . . لا تريد أن تشفى .

رأيتها تتلوى ، و سمعت نقرا مثل نقر الدف ، . . . قالت ابنتى :

- لماذا لم يحضر (وسبى) ؟

ضحكت ، تذكرته ، إنه الجراح الذى شق صدرى مرتين ، فى أسبوع واحد - ضحكت لأنه اختفى و تركنى مع مجموعة من راقصات الملاهى العاريات ، جاء و هو يضحك ، كان ضخم الجسد ، صوته أجش يصحب ولده الصغير ، وقف بجوارى وهو ينضح بالثقة فى نفسه ، قال :

- غدًا نبدأ ببعض الإجراءات الطبية ، و سوف أشرح لك ما سوف أقوم به ، هذا هو الرسم هنا يكمن المرض ، انتفاخ الأورطى ، سوف أصلحه و أثبت هذه الزواية أنت ترى الأورطى حاليا يبدو ملتويا ، و سوف أجعله هكذا مستقيما ، ثم أصلح ما حوله .

قلت : منذ سنوات أربع فتحوا صدرى ، و فعلوا كل ما تقوله الآن .

قال : (تفاخرا)

- أنا الشباب أنا المستقبل إنه رجل عجوز .

شعرت بالغيظ لأنه أهان (يعقوب) لم أرد ، راح يسترسل فى شرح العملية بصوته الثقيل الغليظ . . . قلت لم أعد أطيق وجودى هنا ، . . ابنتى أقنعوها بخطورة خروجى من المستشفى ، لم أعد أفكر فى شىء . . . . كنت أرغب فى دخول الحرم المكى ، أن أرى الكعبة ، أن تلمس قدماى بلاطها

البارد ، انتقلت إلى مستشفى (الاولد كورت) ، . . الممرضات هنا من جميع البلاد ولكن يبدو أنهن على دراية كبيرة وخبرة طبية . . . الهنود هنا كثيرون ممرضات وأطباء والباكستانيون أيضا ، أراهم باستمرار . . . . (بانديا) الطبيب الهندى المساعد للدكتور يعقوب قال:

- يجب أن تثق بالله .

لا إله إلا الله الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، الرحمن الرحيم ، الغفار ، الغفور ، الرزاق ، الواهب ، المنان ، هو الله يكفى أن تثق بالله ، أنا أثق بالله - أستريح عند نطق لفظ الجلالة قال (بانديا) طبيبى الهندى :

- هذا يكفى . . . أنت الآن تعيش فقاوم ، وحارب.

قلت كيف ؟

- قال : فقط حارب .

ومضى ، وحاربت ، اختلطت الصور ، وضعونى على الفراش قالوا سوف تجرى لك جراحة صغيرة ، ولكن لن نستطيع تخديرك ، هل يمكن أن تتحمل ، أخذت أردد. . . أحد ، أحد ، لا إله إلا الله ، يقول الأطباء . . . . آسف ، أردد مرة أخرى . . . . أحد ، أحد . . . . بانديا يغيب عنى يومين فى الأسبوع . . القطار تحطم فى إحدى بلدان الهند ، رأيته يبكى وبكيت ، أنا فى حاجة للبكاء ، فى حاجة إلى أن أجد نفسى ،

أين أنا ؟ لماذا يردد الكل من حولى كلمة آسف ؟! لماذا لم يحضر الجراح الإنجليزى (وسبى) ؟ قالوا لن يحضر استمر الجدل - (باندیا) قال لا تفكر فى شئ - دع الأمر لله ، يعقوب الأوامر لباندیا - و باندیا يعشق (عبد الناصر) و (نهرو) (غاندی) ، اصطدم قطاران فى الهند ، راح كثيرون ضحية هذا الحادث ، باندیا كان يبكى ، هل أنا الآن فى مستشفى أكسفورد أم فى مستشفى أولدكورت ؟ غدا تجرى سبع عمليات جراحة قلب الحركة من حولى تبدو هادئة ، آسف لم أعد قادرا على الحكى ، . . . . (المسرح) جاهز ، أقصد غرفة العمليات ، يسمونها هنا مسرح ، فى أكسفورد كتبوها بخط واضح المسرح أدخلونى محمولا على سرير ، دلفت إلى غرفة طويلة ، رأيت رجلا عجوزا أبيض الشعر ممددا على سرير فى ركن من أركان هذا الدهليز ، يبدو أنه ميت حاولت نسيان أمره ولكن لم أستطع . . . ابتسموا فى وجهى ، إنهم يأخذون جارى ، سمعت كلمات معتادة ، إنهم فى طريقهم إلى المسرح ، إنهم يأخذوننى إلى التياترو ، أقصد إنهم يأخذون جارى ، غرفة العمليات تسمى مسرحا ، هل يمكن أن تسمى غرفة العمليات بالمسرح ، هل كتبوها هكذا لكى لا يخاف المرضى . فى مصر

يكتبون :

(غرفـــة العـمليات ممـــنوع الاقـــتراب)

(محظور التصوير أو الاقتراب ، منطقة خطر)

رفعوا أيديهم عنى . أرادوا أن أكون وحدى. . . . ولكنى شعرت بأنهم يخيطون صدرى كما نخيط نحن أكياس القطن شعرت بالأيدى وهى تزم صدرى بالخيط ، وفتاة سمراء ، هل أنا لازلت فى المسرح ، أقصد فى غرفة العمليات وهذه الفتاة لماذا هى سمراء هكذا ؟! سمرة تتحرك فى شقاوة ، أخذت السمراء فى التهام الطعام وشرب الشاى وهى تنظر نحوى . . . هل هى أمى ؟ أمى سمراء ، وزوجتى سمراء وابنتى الصغرى سمراء ، والليل فى بلادى أسمر . . وهذه الشقية التى تنادينى باسمى وتنهرنى لم أعد أطيق هذا الشتات ، يجب أن أستقر ، هذه الشقية أجدها دائما فى المسرح أقصد فى غرفة العمليات ، فى العملية الأولى رأيتها وفى الثانية ، وقد شعرت بوخزتين فى أسفل بطنى وفى أعلى صدرى ، ولمحت السمراء الشقية وهى تستند على ما يشبه المكتب وفى يدها كوب الشاى ، نهرتنى فى حنان واقتربت منى ، . . لا أدرى أين رأيتها من قبل ولكنى واثق أنى رأيتها وأعرفها ، وهناك شبان يرتديان ما يشبه ملابس رجال الفضاء ، ملابس من المعدن البراق اللامع ومعهما أجهزة ، يدوران حولى ، يبتسمان ويسجلان. . تياترو . ندخل ونتفرج ، عالم غريب والفتاة السمراء التى تأمرنى دوما ، انظر إلى عينها ، سمراء ، سمراء مثل أهل النوبة ، دقيقة الملامح ، ذات شعر قصير ، لماذا أذكرها ؟ لماذا تلح على ذاكرتى ؟ أفقت

أول مرة وهى أمامى تأكل سندوتشا وتشرب الشاى ، لقد أجبرتنى على تذكرها دوما ، وفى العملية الثانية كانت هى أيضا ، شعرت بوخزة شديدة أسفل البطن وأعلى الصدر ، رأيت أماكن الوخز ، والوخزتان لازالتا تسببان لى آلاما مبرحة وينزفان دما، الفتاة السمراء ، تلح على ذاكرتى ، أظنها مصرية أو أظنها من صديقاتى ، . .هنا فى التياترو كل الناس مشاهير، (الجراح وسبى) مشهور ، والسمراء تبتسم تضع يدها على صدرى ، لم أكن أدرى ما إذا كنت راقدا تماما أو جالسا ، كل ما أذكره أننى عندما رأيت وجه ابنتى ابتســـمت ، نسيت آلامى ، ونسيت الفتاة السمراء ، لم أسمع حديثها ولكنها كانت تتكلم وأنا أبتسم .

قاطعنى الطبيب ، وهو رجل يتحدث - بسرعة - إنجليزية ركيكة . وأطلقت ابنتى عليه (شورم بورم) وحتى الحكيمات بدأن يرددن بلكنة إنجليزية اسمه . (چيسى) كبيرة الممرضات تعرف أن هذا الطبيب له مهارته فى عمله ، كما يتميز بخفة دم وتبتسم عندما يسأل المرضى عن الدكتور (شورم بورم) . . علمت فيما بعد أنه أخذ موقفا عدائيا منى يبدو أنه فهم أننى السبب فى التسمية ، الجميع هنا يشفقون علىَّ ، ودوما يسألوننى نفس الأسئلة ، كلها تدور حول ما حدث فى مستشفى أكسفورد ، قال بانديا لا تهتم فقط قاتل ، هأنذا أقاتل بطريقتى ، أسجل بصوتى الواهن ما يمر بذاكرتى ، أو ما يمر بى، متناسيا

الألم و ما يفعله بى الأطباء ، أشير إلى ابنتى كى لا يبدأ الجراح فى عمله إلا بعد أن أغيب فى الصلاة فإذا حدث ، قاموا بعملهم . إنهم يحتاجون إلى إحداث فتحة فى أعلى الصدر أو فى الرقبة لوضع جهاز الحقن الآلى ، لعدم وجود عروق ظاهرة ، و لاختفاء الدم . . أرفع بصرى مكبرا ، أرى الحرم المكى ، أدخل و أسجد بعينى و أركع بعينى ، عقلى هناك ، جسدى هنا ، لا يهم لقد تعودت على الانقسام ، من قبل استطاعوا أن يشطروا الذرة فلماذا لا أنشطر أنا ؟ أنا اثنان ، بل أحيانا ثلاثة ، رجل يبتسم و آخر يحكى حكاية قديمة ، و ثالث يتألم ، عقلى يجرى فى تعقب الفتاة السمراء فى تياترو أكسفورد لكى يكشف لى عن أصلها و فصلها ، و خيالى هناك فى الكعبة و جهازى العصبى تحت تأثير المخدر . . حان موعد اختيار طعام الغداء ، تبتسم السيدة الهندية ، لا أدرى لماذا يعمل فى مستشفى الأولدكورت كل هذا العدد من دول آسيا وجنوب إفريقيا بل و من أمريكا اللاتينية كل واحدة لها قصة و لها حكاية ، وأنا أستمع إليهن ، و قد غمسن شريطا فى قلبى ، تظل تغرسه كما تفعل أمى عندما تحشو (الممبار) فى صبر وأناة و سعادة أيضا . . . . . وهى تحكى :

(لم أجد أحدا بجوارى عندما ولدت ، ذهبت إلى الميدان و هناك وجدت شابا ، لا أعرف من أين هو ، حادثنى ، جذبنى

إليه ، انتقلنا إلى بلاد كثيرة ثم جئت إلى هنا ؛ لأنه ذهب ، وصادقت شبابا آخرين ، كانوا يرحلون عبر سفينتى ، لم أجد بدا من العمل ، و طاردونى تمسكت بالعمل ، أنا الآن سعيدة لأننى أعمل ، سوف أحتفل بعيد ميلادى الثلاثين) أبتسم (تقول بل الأربعين) أبتسم تضربنى على كتفى وتقول(أنت تجيد الاستماع) . . . أسالها لماذا لا تصلى ؟ أنا أحارب بطريقتى أتحدث إليكم وإليها وأكتب مقالاتى وألقى النكات على المرضى و أترجم للمرضى العرب ما يقول الأطباء و أستمع إلى أشرطة القرآن ، وأنظر إلى شجرتى الجميلة من نافذتى ، لقد استطاعت الشجرة أن تقف وسط النافذة تماما ، . . عندما خرجت فى نزهة قصيرة بعد عدة أشهر ، وجدت الشجرة ليست فى منتصف النافذة سألتها :

- زوجك ؟

ضحكت و قالت : ليس زوجى بالضبط ، إنما هو الرجل الذى يعيش معى الآن .

قلت : هذا حرام ، قالت فى دهشة :

- كيف هذا ؟

كلهن يعشن مع رجال ، ليس بالضرورة أن يكون هناك زواج . مجرد رجال يقيمون مع نساء ، قالت : هل هذا عيب ؟ قلت لها : بما أنك من الصين - و الصين بلد التقاليد مثلنا كان

يجب أن تعلمى هذا ، قالت : من يتزوج من سيدة تخطت الأربعين وليس لها مال ولا عائلة لو طالبته لذهب ولم يعد .

قلت : هذا أفضل .

قالت : وماذا أفعل فى الليالى الطويلة وإلى من أتحدث ؟

قلت لابنتى : حادثى أمك فى التليفون .

أسمع أذان الظهر فى التليفزيون ، الحاج (محمد أيوب) جاء لزيارتى وأذَّن للصلاة فى حجرتى ، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، وقرأ الحاج محمد الباكستانى آيات من القرآن الكريم ، هذه اللحظات التى تقطع عليك حبل الوحدة أو حبال الصمت بأن يدخل عليك أحد الناس ليس من أهلك ولا من بلدك ، ويدعوك للابتسام ويتحدث إليك ، أو يقرأ لك ، تلك اللحظات تعد من أجمل لحظات الحياة على فراش المرض ، ومحمد أيوب تاجر الملابس المستوردة من فرنسا يسكن فى منطقة بعيدة ، بجوار مطار (هثرو) بلندن ويتكبد بشكل يومى تقريبا متاعب زيارتى ، ودائما يحمل بين يديه طعامًا أو فاكهة أو علبًا من العصائر بالإضافة إلى تسجيلات للقرآن الكريم ، هو رجل تعدى الخمسين ولكنه فى حيوية الشباب ماتت أخته فى الشهر الماضى إثر حادث أليم فى فرنسا ، يعتز كثيرًا بأنه كان أحد أفراد حرس الرئيس الباكستانى، وبعدها جاء إلى بلچيكا ثم إلى هولندا وأخيرا استقر به المقام فى لندن

بائعا للملابس التركية التى تهرب عن طريق فرنسا و يضعون عليها علامات تجارية مختلفة ذات شهرة عالمية ، و هو يعمل مع شريك له ، و هذه التجارة مزدهرة جدا فى الحى الباكستانى فى لندن . و تذكرت غاندى عندما قطع الهند طولا و عرضا لكى يمنع الهنود من استعمال الملابس الإنجليزية و عدم استخدام البضائع الأجنبية و العودة إلى الصناعة الهندية ، بل تذكرته عندما قرر مقاطعة الملح الإنجليزى و اللجوء إلى تصنيع الملح الهندى ، و كسب غاندى استقلال الهند و بعدها انقسم الهند إلى هند و باكستان . . . و الآن يبيع الباكستانيون الملابس التركية للإنجليز . . . دنيا يا عم محمد أيوب ، الأفضل أن تقرأ لى القرآن ، كل آماله أن يزور الأزهر .

غفوت قليلا - سمعت صوت ابنتى مرحبة ، تنبهت و رأيت رجلا طويلا يرتدى جلبابا أبيض ، و له لحية بيضاء ، ظننت أننى أحلم غمضت عينى ، ولكنى سمعت الصوت واضحا كان يتلو القرآن ثم قال :

- أنا أحب مصر ، و أتمنى زيارة الأزهر الشريف .

راح يحدثنا عن عمله هنا ، إنه شيخ مسجد أكسفورد ، الواعظ و قارئ القرآن و الداعية هنا لمجموعة كبيرة من الباكستانيين المسلمين ، أخذ يمسح على صدرى برفق ، و ذهب ولكن فى كل يوم يأتينا ولده (أحمد) بطعام الغداء ، قال هنا

لا يتبعون الطريقة الإسلامية فى الذبح لهذا يجب ألا تأكل طعامهم ، لدينا نحن طعامنا الخاص ، و ذبائحنا من مزارعنا نأكل كما أمرنا الله و نذبحها كما أمرنا الله . . . لهذا فطعامنا حلال ، و حاولنا أن نرفض برقة - المسألة أننى لا أستطيع تناول الطعام ، و ابنتى لا تكاد تأكل ، ثم هى تأكل السمك فقط . . . . و لكن الطعام يأتى كل يوم ساخنا طازجا ، و الفاكهة من كل لون ، و رحلنا عن أكسفورد و ذهبنا إلى الأولدكورت و تكرر الموقف نفسه ، جاء محمد أيوب الباكستانى أيضًا ، و راح يعطينا الطعام بل يمطرنا و أكياس العصائر ، و اضطررنا لإعطاء الطعام للممرضات بحجة أنْ الطعام يأتى من أمى ، هى التى أرسلت هذا الطعام ، و أمى أرسلت لى هذه الفاكهة ، يبتسمن لأن أمى ترسل كل هذا حتى أن الطعام السعودى الذى كان يأتى من الأسرة السعودية كنت أرسله إلى الممرضات ، و كن يأكلن بشهية و يرددن أن طعام أمك هذا جيد ، كيف ترسله إليك ، و أقول : بالطائرة و أمى سوف تسعد عندما تعلم أن طعامها جيد ، . . . . و الفاكهة أيضا ، أبتسم و أنا أراهن مندهشات سعيدات بالتمر و الجوافة . . و يسألن ما هذا ؟ أردد أن هذا من بلدنا من عند أمى و تسألنى (لولا) فى تخابث كيف ترسل لك الأكل و لا أرى أحدًا من أهلك ؟ أقول : ألم تشاهدى أخى (فاروق) ، و تقول : آه . . . . أهو شقيقك ؟ أقول : و أنا

أتذكر كل أشقائى (سمير) و (نصر) و(عز) و أحبس دموعى و أقول : نعم هو كذلك ، فاروق زميلى فى الأهرام يعمل فى مكتب لندن و لكنه لا يتركنى يزونى يوميا ، يراقب معاملة الأطباء لى ، . . . نسيت أن أكتب ، كيف أكتب هذا ؟ أنا لم أكتبه إنما أمليته على مسجل صغير، كنت اشتريته من (مكة) فى مارس الماضى ، عندما أحضرونى إلى لندن جئت به و معه مجموعة من تسجيلات القرآن الكريم ، و قال بانديا : حارب ، قاتل ، فكرت كيف أحارب و من أحارب ، و بأى سلاح ؟ عقلى يذهب بعيدا ، يدى لا تطاوعنى ، ثم إننى لا أرى من أمر نفسى شيئا .

ما يقوله يعقوب حيرنى ، لم تكن بحاجة إلى العملية الجراحية ! وهأنذا أرقد بسبب تلك العملية ، بل أجريت عمليتين - ثم يقول لم أكن بحاجة إلى عملية ! - طار عقلى ، و تصلب جسدى ، و تدفق الدم من صدرى ، فى كل جزء وضعوا العديد من (الحقن) . . . كيف أحارب يا بانديا ؟! كيف ؟! كيف أقاتل ؟ هل أقاتل من أرسلنى إلى أكسفورد ؟ هل أقاتل من تسبب فى رقدتى ؟ قال : بانديا لا تفكر فى كل هذا ، يعقوب يقول : إن أمامك تسعة أسابيع حتى تشفى . ماذا أفعل ؟ و تذكرت أننى كاتب - و لكنى كيف أكتب ؟ و ماذا أكتب . و عن ماذا أكتب ؟ و هل أفادتنى الكتابة ؟ ألم تكن سببًا فى مرضى ؟ لو كنت بائعا للفول أو بائعا فى محل ، أو مجرد عامل فى البلدية لكنت الآن

سعيدا و لكن للأسف هأنذا أصبحت كاتبا عشرات الراويات و مئات القصص ، و مثلها العديد من المسرحيات و غيرها . . . مسلسلات . . . أفلام . . . مقالات . . . دارسات . . . ندوات باقية لا تكف عن الدوران ، اكتب لكى ترى اسمك مكتوبا بحروف سوداء فى الجريدة ، اكتب أمى . . . هذا هو اسمى - تقبل الصفحة و تبتسم ، لا تعرف ماذا أكتب . ابن أخى أشار إلى اسمى و قال لها : انظرى يا جدتى هذا اسم عمى ، ابنى يرى اسمى فى الجريدة و المجلة ، ابنتى تنظر إلى صورتى . . . بالتليفزيون . . . أتحرك ، أتكلم ، أضحك ، أبتسم ، و لكنى أجلس فى نفس الوقت بجوارها . . . كيف هذا ؟ هل أنا حقا بجوارها ؟ ، إذًا من يكون هذا الذى يتكلم بكل جدية أمامها فى التليفزيون ؟ ابتعدت ابنتى عن التليفزيون لم تعد تتابعه . . . . تسألنى بلا اهتمام مسلسلك الجديد يا أبى ؟ أبتسم ، تقول : صديقاتى يتابعنه ، أقول : وأنت ؟

- تقول : لقد راجعته عندما كان مخطوطا ، ألا تذكر أننى أقوم بهذا العمل ، أسألها ما رأيك ؟

تقول لا أدرى ، و زوجتى لا تريد أن تقول شيئا ، لم أعد أهتم بما أكتبه ، بعد أن أكتبه أو بما يذاع من أعمالى بعد أن يتم تصويره ، . . . . ماكينة كتابة ، ماكينة كلام . . . . نحن هنا أيها السادة لكى نحدد القضية الأساسية. . . . تصفيق حاد، يبتسم

أصدقائى - كيف تفعل كل هذا فى وقت واحد ؟! . لا شىء هنا سوى لوحة معلقة على الحائط المقابل للفراش حاولت أن أتأمل اللوحة ، إنها غير واضحة يبدو أن الرسام كان مريضا ، هذه المستشفى تلازمنى كنت هنا منذ ثلاثة أعوام فقط ، يبدو أننى لم أخرج منها ولكن كنت فى القاهرة عندما سقطت ، لم أكن أدرى وقتها أننى ذاهب إلى المستشفى كنت فى عجلة من أمرى - زفاف ابنتى بعد أيام ، و هى تريد أن تقضى فى العريش أسبوعين كنت قد حجزت أسبوعا واحدا ، أسرعت إلى الدور العاشر ، قالوا كان يكفى أن تتصل بنا تليفونيا ، دفعت الاشتراك ، أسرعت إلى مكتبى شعرت بالدوار ، دخلت المستشفى ، أحضرونى إلى هنا ، عندما قابلتنى (چيسى) قالت : وجهك مألوف قلت لها : نعم أنا الآن فى دارى ، فى (مستشفى الأولدكورت) و ابنتى لم تتزوج و حضرت معى ، تساعد كل المرضى ، تقوم بالترجمة للمرضى العرب ، وتساعد السيدات ، عدد كبير منهن تحت العلاج ، قالت : إن عيد ميلاد (محاسن) اليوم - بالحجرة رقم (٥) . أحضرت لها هدية ، جلست معها ، استمعنا سويا لأغنيات أطفال محاسن كانوا قد سجلوا لها عدة تسجيلات ، أغنيات أعياد الميلاد ، وقالوا إن أعياد (السود) غدًا ، لندن سوف تمتلىء بالسود ، و سوف تغلق المحال و لا عمل للشرطة سوى المحافظة على الأمن ، قلت لابنتى :

لا تخرجى ، كل يوم يحضر مريض جديد ، إنه خائف يرتعد ، منذ عامين و هو يعانى من مرض القلب و لكن يجب أن يحصل على موافقات ، عشرات الأساتذة يجب أن يمر بهم - لكل منهم رأى مستقل - و المرض يزداد شراسة ، أخيرا أحضروه إلى هنا لا يدرى ماذا يفعل . أحدهم خاطبنى بصفتى أقدم مريض ، أنا شاويش المستشفى و الحالة النموذجية لمريض القلب الصابر ، لابد من أن أتحمل ، هناك جراحة صغيرة و لا يستطيعون إعطائى مخدرا ، و يجب أن أتحمل ، تركت نفسى و ذهبت بعيدا ، كانت البيوت الصغيرة الجميلة لها حدائق صغيرة أيضا ، و الورود الحمراء والصفراء تقف فى انبهار لشمس أغسطس اللندنية ، الأبواب موصدة و أنا أصلى ، و الطبيب يقوم بفتحة صغيرة فى الرقبة لكى يتمكن من وضع (آلة الحقن) . . . قالت ابنتى دعوه لأنه يصلى .

و دخلت الكعبة و رقدت على البلاط ، صحت فرحا لأن كل ما حولى كان جميلا و يدعو إلى الانبهار ، جدى كان يهبط إلى بئر زمزم مربوطا بالحزام و الحجاج يمسكون بحبل مربوط بالحزام ، يجب أن يصعد بعد أن ملأ الدلو ، أجلس و صديقى (محمد) يضع أمامى العديد من الأكواب ، أنظر إلى الماء ، اشرب يا أبى ، أتمتم اجعلها زمزمًا يا ربى ، آسف ، قالها الطبيب و ربطوا صدرى بحزام عريض ، شدوا فوقه حزاما

حديديا قلت : إن الأسف لا ينفع ، وإننى يجب أن أعود إلى حجرتى فقد شعرت بالتعب لأننى مشيت على قدمى مسافة طويلة ، ابتسمت ابنتى وسألتنى أين كنت ؟ تلفت حولى وجدتنى راقدا واللوحة المبهمة أمامى ، دخلت السيدة التى بالحجرة المقابلة لحجرتى ، قالت إن العزم يقاس بالشدائد ، زوجها ، يرقد فى انتظار إجراء الجراحة ، ضابط شرطة متقاعد افتتح مكتبا للتجارة ، جاء على نفقته الخاصة ، كان لا يشكو والسيدة زوجته محجبة ، أخذت ابنتى معها فى جولة حتى تبعدها قليلا عنى ، لم أكن أشعر بالزمن ولا حتى بالألم ، كنت أبحث دوما عن الحلم ، عن البعد ، عن البعاد ، بعدت عن قريتى ، وعن بلدتى وعن أسرتى ، وعن نفسى ، جاء بعد أن عرف أن ابنتى خرجت ، جلس يحكى لى حكايته ، لم يكن يشكو مرضا ، اصطحب زميلا له إلى الطبيب ، أصر الطبيب على أنه هو المريض وليس زميله ، وأكدوا له تعب قلبه ومنذ عامين وهو يجوب المدينة ، كل طبيب برأى ، المهم أن والده الطبيب يسعى لإجراء الجراحة فى لندن ، ولكن الإجراءات ، دائما الإجراءات ، سألت نفسى ذات مرة عن سر حيوية الفتاة التى تعمل فى مطعم المستشفى ، تشعر بالألم فى صدرها ، كيف تجرى ، وتقفز ، وتضحك ؟! السيدة المكلفة بنظافة حجرتى لها ضحكة رنانة إنها من إفريقيا ، سوداء ولها ضحكة

مجلجلة لا تهدأ أبدا ، قلت للرجل و لا يهمك سوف يجرون لك الجراحة و سوف تشفى بإذن الله ، أصابه (الفواق) بعد العملية ، ظل هكذا لمدة أسبوع كامل ، عادت ابنتى و أقبلت نحوى فى لهفة ، داعبها الدكتور بانديا بأنها مسرفة ، ضحكت ، و قالت اشتريت لأبى كاميرا ، لقد سرقوا الكاميرا التى كان يعتز بها يوم سفرنا ؛ لهذا اشتريت له هذه الكاميرا ، أوقفته بجوارى لكى تصورنا معا ، تذكرت المياه الزرقاء عند خليج (روميل) بمرسى مطروح و عمق المياه فى منطقة الميناء ، و كيف كنا نقفز فى منتصف الليل إلى الماء البارد . و جاءت محاسن . وذهبت ابنتى معها إلى حجرتها ، تبكى من أجل أولادها ، و قالت عائشة إن كل أملها أن يستبدلوا قلبها بقلب سليم كل حديثها حول هذا الأمل .

جلست بجوارى و قالت : إن زوجى يفعل ما يفعله الشباب فى السعودية استلم السيارة بالتقسيط ثم باعها لأحد الأهالى فى القرية و أعطى ثمنها لأبى ، المهر يأخذه والد العروس ، ويضعه فى جيبه و على العريس أن يدفع كل النفقات ، اليابان تأخذ مهور العرائس ، و تعطى للأهالى سيارات (التيوتا) و (المازدا) ، كل الشبان يفعلون هذا ، لم أكن أدرى أننى سأتزوج ، قالت (عائشة) إنهم أحضروها من الحارة و ألبسوها ثيابًا ملونة ثم قالوا لها هذا الشاب هو زوجك و لما بكت قالت لها أمها : إن هذا الشاب لا يحب، البكاء إنما يحب أن نسمع كلامه و أن نقيم معه

و أن نام فى فراشه ، بعدها أحضروها إلى الرياض وأدخلوها المستشفى ثم أتوا بها إلى هنا ، إنها لا تفهم لماذا لم يقوموا بتغيير قلبها بقلب سليم حتى يمكنها أن تنام فى فراش زوجها الذى يدخن بشراهة شديدة ، و يبدو كطفل فقد والديه قال الطبيب ، إنهم لن يستطيعوا تغيير القلب لإصابة الرئة برشح شديد ، لم أخبرها بما قاله ، كنت أفكر فى ابنتى ، و فى أولادى ، . . . . سألتنى ابنتى :

– لماذا تبكى يا أبى ؟

قلت للممرضة إن إقامتها مع رجل دون زواج هو إثم كبير و سوف يعاقبها الله ، لاحظت الحزن على وجهها ، و لكنها ابتسمت عندما قدمت لها ابنتى بعض الفاكهة ، حاولت أن أمسك بالحلم ، أن أعيش فيه ، لم أستطع . فقدت خاصية الانقسام إلى عدة أشخاص ، أصبحت أشعر بالمرض والألم ، و أفكر فى كل ما حولى ، أيقظنى (مصطفى) الإسكندارنى ، أصبح يشكو من كل شىء . . من عدم وجود ملابس ولا نقود و من خوفه ، رجوته ألا يشكو . حدثنى الآخرون ، تعودت على سماع قصصهم و لم أعد أستطيع الانفراد بذاتى ، الجميع هنا يعانون ، القلب الموجوع ، و الهم الممدود ، و اليد قصيرة و لابد من الشكوى ، جاء لزيارة قريب له ، سقط مغشيا عليه ، قالوا له يجب إجراء جراحة عاجلة ، (عم شنودة) صاحب مكتبة بالعتبة

لم يكن يعرف أن الحياة سوف تصبح قاسية إلى هذا الحد ، قالت له زوجته أريد زيارة أقاربى فى لندن ، لن نتكلف إلا ثمن الطائرة ، قال لزبائنه مباهيا سوف أزور لندن ، كلفه جاره بشراء دواء يعيد إليه شبابه . جاء لندن وسقط فى يد الجراح ، والجراح يريد إجراء العملية والمستشفى لا تعرف العلاج المجانى ، وانحشر عم شنودة وزوجته فى سرداب الهم والحزن والإفلاس ، ماذا نفعل؟ قال بانديا لابنتى : يجب أن يكف والدك عن استقبال المرضى ، وقال الدكتور مجدى : إن العرب يتكلمون كثيرا ، وإن حالتك خطيرة ويجب الحرص حتى لا تضطر لطلب عظام للصدر.... تدفق الدم قانيا من صدرى وضعت الممرضة خرطوم المياه فى ثقب الصدر المفتوح ، حاولت ألا أرى الدماء ، وأن أتخيل أنها مجرد ماء أحمر ، حاولوا أن يوقفوا الماء الأحمر ، بكت ابنتى ، استطاع بانديا أن يوقف النزيف ، وضعونى فى الفراش ، رأيت شجرتى كما هى تتوسط النافذة ، سعدت بها كثيرا ، أردت أن أغنى ، ولكن لا صوت لى ، أشارت ابنتى أن أكف عن المحاولة لأن صوتى لا يخرج إلا بصعوبة ويدى اليمنى لا تتحرك ، حمدت الله أن يدى اليسرى تتحرك وأننى أفهم مايقال لى ، صليت الظهر والعصر ، وتلفت حولى ، كان المرضى يتقاطرون ، نحن هنا أسرة واحدة يجب ألا نفترق ، محاسن تئن فى صمت ،

بينما يصرخ (ممدوح) وكيل النيابة من الألم ومن قسوة الجراحة، كانوا قد فتحوا صدره في القاهرة ولكن الجراح لاحظ ظاهرة لم يعهدها في القلب من قبل فاضطر إلى إغلاق الصدر وإحضاره إلى لندن، جاء الرجل الباكستاني، محمد أيوب وأخذ في تلاوة القرآن الكريم، يحضر كثيرا، أحيانا أراه، وأحيانا أخرى لا أراه إنما أعرف بعد ذلك أنه كان بجواري، أعلم أن الله بجواري وإن ضاقت الغرفة بجلال الله فإنه بجواري، أحس بهذا، أناجيه، أخاطبه، أدور في ملكوت حبه، تسعدني هذه اللحظات، أخاف عندما يهرب الحلم مني، أخاف من نفسي على نفسي، قالوا يجب أن يتكلم هذا الرجل، إنه من موطنك ولكنه شديد الخوف، الخوف هنا أمر عادي، والألم هو الموسيقى التي تعزف ليل نهار، والممرضات يشربن القهوة في العاشرة، ويتسلين بالحكايات التي تدور حول ما يحدث في دورهن، لندن لا تهم أحدا، قالوا إن الانفجارات أوقفت المترو، لم يشعر بها (سكان الألدوكورت) إلا بعد أن تخلف الأهل عن موعد الزيارة، محمد أيوب يسمعني تسجيل تلاوة القرآن بصوت أحد أصدقائه، قال إن الرجل حفظ القرآن في كوبنهاجن، عشرات الزوار يأتون وينصرفون، ولكن لا أشعر إلا بالقليل منهم، قليلون هم الذين أثروا في نفسي، صاحب مطعم الدجاج في أكسفورد، مصري ابن بلد، زوجته

ترقد فى المستشفى يزورنى باستمرار ، لا أستطيع تناول الطعام ، قدت ثورة الجيش ضد الملك الفرعون ، انتصرت حتى وصلت قواتى إلى منطقة صحراوية ، يبدو أنها بالقرب من أسنا ، انقلبت المعركة ضدى ، فر قواد جيشى ، و لكنى بقيت و عندما اقتربت منى العربة الملكية و قفت ساكنا ، كنت أعرف ، الفرعون سوف يطيح برأسى ، قال الدكتور مجدى : حالتك سيئة تحتاج إلى مدة طويلة حتى نتمكن من القضاء على جرثومة التلوث ، جسدك ضعيف. انصرف الدكتور مجدى و بكت ابنتى ، ابتسمت ورويت لها حكاية كيف أخذنى أبى إلى مطعم السمك ، بعد أن قرر الطبيب عدم تأهلى طبيا للالتحاق بالجامعة ، منذ ما يقرب من أربعين عاما و حديث هذا الطبيب يطاردنى ، يومها تشاجر أبى معه و أصر على أن يسترد أجرة الكشف بعدها هبطنا إلى الشارع و بحث أبى عن مطعم السمك ، و راح يأكل و يطعمنى فى سعادة ، كانت سعادة ظاهرة ، و لكن قلبى كان يخفق بشدة لاحظت هذا ، ابنتى تقدم لى الفاكهة ، أعشق هذه الفاكهة ، و لكنى اليوم لا أرغب فى شىء ، مجرد الصمت يريحنى . و أحاول أن أتذكر مياه مصيف رأس البر ، كنت عائدا من رأس البر عندما أخذونى إلى المستشفى ، أتمنى أن أعود إلى رأس البر : الماء البارد و الجو هنا حار ، و رائحة الحجرة تضايقنى قال لى (العراقى مصطفى) : عندما قابلنى منذ عشرة

أعوام ، أريد أن أرى فرعونا ، فقلت له : و ما فرعون ؟ قال أليس عندكم فى مصر فرعون ؟ قلت : ليس عندنا فى مصر فرعون ، قال : و هو يحاول أن يكون واضحا ، بالتأكيد لديكم تمثال له ، أو ما يمثله ، قلت ضاحكا : لدينا ملايين الفراعنة و سوف تراهم عندما تخرج إلى الشارع . قال : و كيف يعيشون ؟ قلت ضاحكا : هذه هى العبقرية كيف يعيش الملايين من المصريين تحت ضغط كل هذه الظروف ؟! إنهم الفراعنة ، سألنى الدكتور بانديا السؤال نفسه أيضا سأله صديق هندى مسلم ، أخبرونى بأن السيدات الهنديات سوف يجتمعن عند إحداهن للدعاء لنا يوما كاملا يختمن القرآن فيه و يقمن بالدعاء ، الطعام هنا لا طعم له ، عافت نفسى الدجاج و اللحم ، صديقى فى أكسفورد أحضر لى كل أنواع الفاكهة مرة واحدة ، . . . حاولت أن أتذوق ما أحبه منها ، و لكن لا مذاق له ، و أحضروا لى أشياء عديدة ، مصريون طيبون أحضروا لى طعاما مصريا ، و لا أدرى كيف تصورت أننى سوف ألتهم هذا الطعام ، عندما وضعوه أمامى لم أستطع ، الألم يصبح عادة يتعودها المريض فإذا غاب الألم لحظة فإنها تكون لحظة من التعاسة ، . . . قالت إن زوجها مات ، و إنها تعيش من أجل أولادها . تحاول أن تسعدنا بزيارتها لنا ، و لكن شعورها الزائد عن الحد بأهمية زيارتها لنا جعل تلك الزيارات عبئا علينا فنتمنى ألا تحضر

دائما ، تتحدث عن اهتمامها بأولادها ، والزوار أنواع ، منهم من يجعل زيارته جحيما لا يطاق بحديثهم الدائم عن المرض والموت و نصائح الأطباء و الأصدقاء ، ومنهم من يرغب فى أن يظل معك ، إنه يتحدث عن الحياة ، الحياة فى لندن وفى باريس وفى القاهرة عشت أنا عمرا فى روما ومثله فى فرانكفورت ومثله فى چنيف ورأيت باريس وبون وبرلين و موسكو ، وذهبت إلى دبى و سوريا و تونس و المغرب و عشت أحلى أيامى فى مكة و المدينة. . . . كل أملى الآن أن أذهب إلى مكة ، أجلس فى المكان نفسه الذى طالما جلست فيه، هكذا أمام الحجر الأسعد مباشرة ، دخلت قبيل المغرب ، كان المسجد الحرام مزدحما لا مكان لأحد ، اخترقت الصفوف أود أن أجلس فى نفس المكان ، لكن لا أمل هذا العام ؛ الزحام شديد ، و فجأة رأيت رجلا شيخا ذا لحية بيضاء مهيب الطلعة ، وقف و أشار إلىّ أن أقترب ، و رحت أشق طريقى بصعوبة حتى وصلت إليه ، كان جالسا على مقعد من قماش ، أشار إلى مكان بجواره جلست ، ورأيت الحجر الأسود ، كنت قريبا منه ، وضع الرجل أمامى تمرا و قهوة و ماء زمزم ، الله أكبر ، رفعت الكوب و شربت متمتا بالدعاء ، و أكلت التمرات ووجدت لها مذاقا حلوا لم أعهده من قبل ، و احتسيت القهوة ، و كبر المؤذن للصلاة و وقفت و بحثت عن الرجل فلم أجده ، و رحت أرقب

وجوده فى الصفوف من خلفى و من أمامى فلم أجده ، فى اليوم التالى رأيته يشير إلى ورحت أشق طريقى إليه ، كنت قادما من باب بنى أميه - المسافة طويلة - و لكن الرجل يستحثنى بإشاراته المتكررة و جلست بجوار مقعده المتحرك ، كنت أود أن أحادثه قدم لى الماء و التمر و القهوة و ما كدت أقف لصلاة المغرب تلفت حولى لم أجده ، رحت أبحث عنه ، إنه يجلس على مقعد من قماش كيف يختفى هكذا ، و تكرر هذا كل يوم ، فلم أعد أبحث عنه عند قيامى للصلاة ، كنت عندما أدخل المسجد الحرام ألمح يده تشير نحوى و اقترب منه وأجلس ليقدم لى الماء و التمر و القهوة . . . لم أعد أفكر فى البحث عنه ، اكتفيت بالإحساس بالأمان و السعادة و أننى أجلس قبالة الحجر الأسود و بالقرب من الكعبة ، ولم تعد حلاوة التمر و لا صفاء الماء و طلاوة القهوة تثير عجبى و دهشتى . . . لم أعد أبحث عنه و ظللت هكذا أراه عند دخولى الحرم ، و يحدث ما يحدث قالت ابنتى :

- يحتاجون إلى جراحة صغيرة ولكن بدون مخدر ، فهل . . .

قلت مقاطعا :

- أبى كان لا يخشى الألم!

- و شعرت بأننى أغوص فى ماء بارد و أن أطرافى ترتعد .

الفصل الثانى

فى الوقت نفسه الذى سقطت فيه إلى هذا العالم الذى لا يبدو من الخارج للأصحاء ، العالم فى خارجه يعمل و يسير و يمرح و تنعقد المؤتمرات و الجلسات و تقام الحفلات وتحاك المؤامرات و يكثر الحديث عن الدنيا و نقودها ، و دسائسها ، أما فى عالمنا ، عالم الحزن والمسرة ، تختلف الرؤية، و تتناقض الرؤيا ، أطباء وحكيمات وممرضون وممرضات ومسرح للعمليات و آهات و أشجان و أحلام و أمانى ، هنا عالم متماسك كل حركة لها معنى ، كل إشارة لها مدلولها و أنا الراقد هنا ، حبيس الصوت مشلول الذراع ، أراقب ، عقلى يدور ، تتغير عوالمى ، و تتنافر أحيانا ، و لكنى أنا و عقلى نقفز من عالم إلى آخر، قال إنه خارج اليوم بعد أسبوع سيعود ، كان سعيدا ، لم يلحظ وجود ابنتى التى نظرت نحوى فى أسى ، عندما وضعونى فى حجرتى فى أكسفورد ، أسرعنا ، أنا وهى لكى نضع لنا برنامجا ، قال الجراح : بعد أسبوع سوف تكون أفضل وبعد الأسبوع الثانى يمكنك الخروج ، سوف نذهب إلى الشاطئ ، قلت لابنتى بل سوف نقضى هنا فى مدينة أكسفورد شهرا ، ويجب البحث عن مسكن ملائم ، يمكنا أن نحضر إلى

المستشفى إذا قضى الأمر بسهولة وأيضا نقضى عطلة فى ريف إنجلترا ، وبحثنا عن السكن بوساطة (مادلين) عاملة الكافتيريا ، وهى سيدة إيطالية الجنسية خفيفة الدم أحبت ابنتى منذ اليوم الأول ، ووجدت لنا (مادلين) السكن ، منزلا مستقلا بتليفون وقريبا من المستشفى ، فإذا انقضى الشهر ، سافرنا إلى وسط لندن ، وأقمنا أسبوعا للشراء وبعدها نعود ، كل شيء كان واضحا ، قدم لى الجراح رسما تفصيليا عن العملية وما سوف يقوم به ، وسقطت فى بئر أكسفورد ، وجاءت الآلام وخرجت منها لأدخل عالم (الأولدكورت) ، بئر جديدة ، آلام جديدة لم نذهب إلى الريف ، وَلم نذهب إلى وسط لندن ، تعاقبت الأيام والأسابيع والشهور فنحن هنا فى قبضة الألم وتحت رحمة الله عز وجل . قالت ابنتى :

- أشعر بأننى كنت فألاً سيئًا عليك يا أبى .

صليت ودعوت لها ، كنت مشفقًا عليها ، كانت آلامها أكثر حدة من شعورى أنا بالألم ، كانت تتحرك وترى وتسمع وتعانى وتنفعل ، أما أنا فقد كنت مشغولا بنفسى لا أدرى ما إذا كان صوتى هذا يصلح لنقله كلمات على الورق ، أتمنى هذا تسألنى الممرضات ماذا أفعل ، أقول ، أتحدث مع نفسى ، تبتسم (لولا) وتقول لهن فى اعتزاز:

- إنه أديب مشهور فى بلده.

الكلمة ، أديب ، أدباتى ، كلمنجى ، يجيد صناعة الكلام ، الكلام يحتاج إلى عقل لكى يؤلفه ، و إلى ناشر لكى يذيعه على الناس ، ما رأيك يا لولا ؟ لم يعد عندى كلام أقوله ، و لم يعد يهمنى أن ينشر هذا الكلام أو لا ينشر ، لم يعد هناك ما يهم ، فقط أفعل لكى تمر الأيام و الليالى ، بل . . . ماذا أفعل لكى تمر الساعات و الدقائق ؟ قال الدكتور باندبا يجب أن تحارب و هأنذا أحارب ، لم أتعلم فى حياتى سوى تلك الصنعة ، صنعة الكلام المكتوب ، لو كنت قد تعلمت شيئا آخر لفعلته و لكنى لا أجيد إلا هذه الصنعة ، و لا أقدر الآن على الإمساك بالقلم ، صوتى الهامس كفيل بتسجيل خواطرى ، أحلامى ، أفكارى ، همساتى إلى نفسى ، لا يهمنى ما إذا كان الكلام سيصل إلى الناس أم لا فكم من الكلمات سودتها ، ماذا حدث ؟ تحدثت عن هزيمة يونيو قبل حدوثها فى كتابى (ما بعد الخوف) ، لكن لم يهتم أحد ، و تحدثت عن حرب أكتوبر فى « المزامير » فلم يهتم أحد ، بل كتبت عن السد العالى قبل الشروع فيه ، آلاف الأشياء جاءت فى كلماتى لا فائدة .

– لولا . . . . لم يعد هناك شىء يهمنى .

قالت :

– فكر فى الشفاء . . . يجب أن تأكل .

أريد أن أتكلم ، أن أتنفس ، أن أقول شيئا عن نفسى ، ليس

تذكرة و لا تاريخا ، مجرد الرغبة فى الحديث و خاصة و أنا على هذا النحو الذى يبدو لى الآن إنه خليط من الأحلام المفروضة و مجموعة من الأمانى .

عندما أدخلونى المستشفى تركونى أكثر من ساعة مثل الأشياء المتروكة فى بهو المستشفى ، مثل الفازات القديمة ، و الصور التى كانت ملونة ثم ذهب لونها ، مثل أحبال الزينات المدلاة بلا عناية و إن كان الهدف منها الاحتفال ، تركونى هكذا ، فى المستشفى المصرى و الإنجليزى و كل المستشفيات التى دخلتها خلال الرحلة و حتى الآن ، لابد من أن تظل مركونا فى أحد الأركان ، لا حيلة لك إلا الانتظار و الترقب ، حتى تلك اللوحات البلهاء المرصوصة بلا اهتمام على الحوائط ، ثم مكالمات عاملة التليفونات ، و عاملة الاستقبال و أيضا عاملة الكمبيوتر إنهن يثرثرن فى أمور تبدو لك تافهة للغاية ، تظن بنفسك إنك مركز اهتمام الكون بمجرد إنك مريض ، و ماذا يعنى هذا بالنسبة لهذا الجيش من العاملين و العاملات ؟ أنت مجرد حالة ، بيان يدخل أجهزة الكمبيوتر و الممرضة تتحدث عن حفل عشاء السبت ، أو كيف صنعت (حلة المحشى) و أكلها زوجها دون أن يترك لها مجرد (صباع) واحد ، و تلك المشغولة مع خطيبها فى ترتيب (مقلب) لزميلة لها تعاندها ، و أخيرا أخذونى على مقعد متحرك ، دفعنى الرجل و هو يثرثر مع بقية العمال

حول غلظة معاملة المدير وأن المستشفى مجرد وكر للقمامة ولا يدرى لماذا يأتيها المرضى ؟! وزملاء العامل يؤيدونه ، المستشفى المصرى مستشفى استثمارى العلاج فيه مكلف للغاية ، وكذلك المستشفيات الإنجليزية التى دخلتها حتى الآن ، نفس. . . . الملاحظة ، وكان عم (عوض) هو مستر (فليب) الذى نقلنى على مقعد متحرك حتى صالة الأشعة ومنها إلى غرفة العناية المركزة ، لا أدرى لماذا يسمونها هكذا ! أناس يتكلمون وأنت راقد ضمن مجموعة من المرضى ، الأطباء يتحدثون بصوت عال ، وكذلك تفعل الممرضات والحكيمات . . ظلت ثلاثة أيام تبحث عن اسم لابنتها التى سوف تأتى بعد شهور وتفسر للحكيمات اللائى تجمعن حولها لماذا هى وافقت على الإنجاب فى هذه السن ، تحكى عن مشقة الحمل ، وكل واحدة تدلى برأيها عن حملها السابق أو حمل أختها أو أمها ومتاعبه ، وأنت تسمع دون أن تصيح : كفى يا دكتورة ، الكل مشغول عنك بنفسه . . . بذاته . . . وأنت أيضا مشغول بذاتك ، وزادك المرض حساسية لذاتك وتتصور أنهم جئن إلى هنا لكى يقمن بخدمتك ، حتى الأطباء الرجال يتحدثون عن الضرائب والمغالاة فى أسعار المنازل ، وفى وسط لندن كان الطبيب يتحدث عن كارثة سوق العقارات فى لندن ، وأنت بلا ملابس تنتظر لكى يدخلوك إلى أمبوب الأشعة ، ترتجف من البرد -

ولكن يجب أن تصمت ، كل لحظة تسمع تعليقا عن الحياة من حولك ، وغرف العناية المركزة تكاد تشبة سوقا فى قرية ، كل الناس تتكلم فى وقت واحد ، قالت (لولا) ، الممرضة الصينية الأصل:

– لا يزال طعام الإفطار أمامك . . . مضت ثلاث ساعات !

وجدت كوبًا من الشاى باردًا ، لا أستطيع إزالة غلاف قطعة الجبن ، لا أريد الطعام ، قالت لولا :

– هل أحمله بعيدًا ؟

أومأت برأسى ، كان عقلى الذى بداخلى يفكر فى أشياء أخرى ، أريد أن أتحدث مع نفسى ، أن أعيش حياتى كما هى ، الزوار من الغرف الأخرى يأتون فرادى وجماعات ، أكتب وأملى على مسجلى الآن الغرفة المعزولة رقم (١٦) فى مستشفى (الأولدكورت) بعد نقلى ، يبدو أنهم نقلونى إلى هنا ، فزعت ذات ليلة ورأيت ذاتى وقد توزعت ، حاربت من حاربت ، وهادنت من هادنت ، وتم إعدامى عشرات المرات ، وحاولت دخول الكعبة فلم أفلح ولكنى كنت أسمع الأذان دائما يتردد فى سمعى ، حجرتى فى أكسفورد كانت مطلة على المحطة النهائية (للكوتشى) الأوتوبيس الذى يربط المدينة – أكسفورد – ببقية المدن الأخرى ، يزحف مثل دبابة يهودية تدخل قرية فلسطينية ، حاربت فى القرن الخامس ، وأيضا السادس ،

عرفت المدفع والسيف وقذيفة سام ٧ ، الحكيمة تندفع مثل (الأربچيه) كما نطلق عليه فى الحرب ، المرضى يقبلون ، يتشاكون ويحكون القصص ، وألاعيب الأطباء ، كم عانوا . . . وكم تعبوا ! لا أحد يظن أن هناك من هو أكثر منه ألمًا ، ينظرون إلىّ نظرة إشفاق وهذا يؤلمنى ، قررت أن أتواجد ، أن أتفرس فى وجوههم وأن أتماسك حتى لا تفزعنى نظراتهم ، أريد أن أعرف لماذا فشلت فى دخولى الكعبة ، وأمرت أن يحضروا لى تسجيلات القرآن الكريم - فى قريتنا كنت أصحو قبيل الفجر وأذهب إلى المسجد ، كان الظلام حالكا ، والشوارع كانت ضيقة لا أرى شيئا ، ولكن أواصل السير إلى المسجد وأدير الطلمبة اليدوية لكى أملأ خزان دورة المياه بالمسجد ، ثم أتوضأ وأدخل لأصلى ، أحيانا يصطفون خلفى صفوفا طويلة ، أخاف النسيان والسهو والخطأ ، أحاول أن أتماسك ، أمسك بالكتب والكراسات وأذهب إلى المدرسة ، الجميع يكتبون يخطون خطوطا فى الكراسات ، ويطالعون ما فى الكتب من كلمات ، المدرسون لا يكلفون أنفسهم مشقة تعليمى ، كانوا يرددون أن أبى رجل ثرى ، فلا داعى للشهادة بالنسبة لى ، أجلس فى أول الفصل أستمع جيدا لما يقوله المدرس ، وأحفظه عن ظهر قلب ، تعودت على هذا ، تعلمت أن أحفظ من السماع لأول مرة ، قالوا يجب أن

تصمت ، المفتش قادم وأنت لا تعرف شيئا ، عندما انصرف المفتش ، سألنى المدرس كيف أجبت بسهولة عن كل أسئلة حضرة المفتش ؟! لم أعرف ماذا أقول له ، يسألنى الناس ، وأنا لا أعرف كيف أرد ، عندما أختلى بنفسى أعرف الإجابات الصحيحة ، الطبيب بمستشفى أكسفورد شرح لى العملية التى سوف يجريها فى القلب ، وابتسم سعيدا بمهارته ، أخبرونى بأنه عديم الخبرة ، وأنهم يعلمون عنه الكثير ، وسألونى لماذا وضعت نفسك تحت رحمته ؟! لم أستطع الإجابة . وسألونى هنا فى (الأولدكورت) لماذا ذهبت إلى هناك ؟ لم أستطع الإجابة .

وسألتنى ابنتى لماذا نرحل من أكسفورد ؟ كانت تبكى ، وتظن بى الجنون ، قلت لها : أحضرى لى طبيبا نفسيا ، أنا على يقين من عدم قدرتى على إصدار أحكام ، والبول يسقط منى غصبا ، وتخرج الأهوال والحروب من دماغى ، والأذان يطن فى رأسى ، وأنا على الفراش وعلى مقعد الغرفة فى آن واحد ، أنا لست أنا ، ولكن يجب أن أتماسك ، حكيت لابنتى حكاية ، ضحكت ، قلت لقد نجحت فى إضحاكها ، وجلست أمام الكتاب المصور وعرفت حروف الكلمات هذه (عين) وتلك (ضاد) والأخرى (واو) ، وأذان الفجر ، وذهبت إلى المسجد ، رأيت عيونا حمراء تلمع وفحيح كلاب مسعورة ، وزأرت مثل الأسد المرعوب ، فتفرقت الكلاب ، لم أرها وهى

تختفى ، ولكن شعرت بأنها انصرفت ، ومضيت إلى المسجد ، وتوضأت وصليت وبكيت ، عندما لاحظ مدرس اللغة العربية أننى أكتب فى الكراسة ضحك بصوت خشن ، ثم نظر إلى ما كتبت فوجد حروفا كتبتها لأول مرة ، كنت فى السنة الثالثة الابتدائية ، وقررت أن أضحك أنا عليه فأخفيت عن المدرس كراستى ، وحصلت على شهادة الابتدائية دون كل زملائى فقد رسبوا ، وضحكت ، ثم بكيت عندما وجدت أن البول يسقط منى غصبا ، وأن الممرضات يتأففن منى الأمر الذى يضطرهن لتغيير فراشى وملابسى ، يجب أن أتماسك ، كانت المدرسة الثانوية مجرد مدرسة بالاسم فقط ثم لا شىء بداخلها لا تلاميذ ولا مدرسون ، وأصبحت وحدى ، أذهب إلى شاطئ البحر لأقرأ موباسان وشكسبير واللص الظريف (أرسين لوبين) ، و(الجبرتى) ، و(أبو العلاء المعرى) و(الجاحظ) وفلسفة (أرسطو) ، وكتب (چان چاك روسو) ، فى الامتحان كان علينا أن نجيب على طريقة تركيب حامض الكبريتيك ، ومنابع النيل ، وكيف الوصول إلى المبنى للمجهول ، وأيضا عن حبوب اللقاح ، وزهرة عصفور الجنة ، وتخطيت الامتحانات ، كانوا دوما يعطوننى الكتب فأدير لها ظهرى طوال العام لأقرأ (لابن خلدون) وأحلم بمشكلة (الملك لير) ، وأدهش من كتب التاريخ التى تحكى حكايات غرامية ممزوجة بأفعال بهلوانية ، وذلك الرجل المجنون الذى وضع الكتب فى

نهر الفرات لكى يعبر فوقها جنوده ، وترعبنى صور العنف التترى ، وأيضا العنف الهمجى من كل جيوش الحرب ، وأجلس فوق سطوح دارنا لكى أغنى أشعار (أبى العلاء المعرى) وأحيانا أسمع مع جدى أسطوانات (كايروفون الأستاذ محمد عبد الوهاب) أذاكر لكى أنجح آخر العام ، كان أبى لى بالمرصاد ويتمنى أن أرسب لكى يمنعنى من تكملة الدراسة . وأنا أرتجف أتماسك وهم يضعون قطع القماش المغموسة فى المطهرات داخل ثقوب فى صدرى ، يجب أن أفكر فى أشياء أخرى ، يروى لى (مصطفى) حكاياته ، يقول الكلمات دون تزويق أو حذف ، هو هكذا ، لقد جاء إلى هنا ليجرى عملية الشرايين للمرة الثانية ، نقول له كفى ، إن المرضى هنا يخافون ، كف عن هذا يا رجل . ولم يكف ، جريت وراء المشعوذ سنة كاملة لكى أتعلم السحر وفنون السحر ، عشرات من الرجال يحضرون إلى داره ، أكتب لهم الأحجبة ؛ لكى يذوق العاشق الحب ، وتنجب العاقر ، وتتزوج العانس ، ويجد الفلاح جاموسته التى فقدها ، كانوا بالعشرات ، كيف يقنع الناس ؟! يجب أن أعرف سره ، سر صناعته ، وفقدت عاما كاد يفلت منى ويكسب أبى الرهان ، ولكنى نجحت وسلمته للشرطة .

قلت لابنتى ، لا أريد طعاما فقط أود أن أشرب ، أن أمسك الكوب وأشرب دفعة واحدة ، لا أستطيع ، الماء لا يدخل

حلقى يرتد إلى فمى ، أسعل وأتقيأ ، ولكن الرغبة لا زالت تحاصرنى ، والظمأ يمسك بخناقى ، كيف أتماسك ؟! يسألوننى لماذا فعلوا بك كل هذا ؟ فكيف أجيب ؟ قذفوا بى هناك ، ثم نقلونى إلى هنا ، وليس هذا الـ (هنا) من اختصاصى ولا من اختيارى ، أود صراحة أن أصرخ ، أن أبكى ، وأحيانا قليلة تتساقط دموعى ولكن بلا بكاء ، فى مستشفى أكسفورد كانوا يعاملوننى بغلظة ، يجب أن أفعل كل شىء وحدى ، إذا شكوت قالوا : هذا رجل كسول ، عرفت عندما نقلونى إلى مستشفى أخرى أنهم كتبوا تقريرا مطولا عن كسلى ، أننى رجل كسول أفقدوه ذراعه اليمنى وحبله الصوتى وتركوا التلوث يأكل عظم صدره ويفقده وعيه ، ثم قالوا هذا رجل كسول ، إنهم طيبون هؤلاء الناس فى مستشفى جامعة أكسفورد ، فيما يبدو أنهم كانوا يظنون أننى بطل (هرقلى) ، جراحتان فى أسبوع واحد فى القلب ثم اشترك فى مارثون أوربا طائرا فوق المحيط ، سوف أفعل هذا ، حاولت ولكننى فشلت . كان الحلم يهرب منى ، مثل عقلى الآن ، لا أعرف ماذا قلت لكم ولكن يجب أن أقول كل ما عندى ، وهل عندى شىء يروى أو يحكى ، وجدتنى أفكر فى (جمال الممرضات) فى أكسفورد فتيات إنجليزيات بيض الوجوه ، زرق العيون ، والشعر المسترسل الذهبى ، والجسد النحيل فى (الأولدكورت) لا يوجد معنى

الجمال ، فالوجوه سمراء.... صفراء ....سوداء، لا لون لها ، كالحة اللون ، والشعر الخشن ، والأجساد المنهوكة ، ومع هذا فكرت فى الجمال فى مصر .

(الحكيمة) تحدثنى عن شجارها الدائم مع شقيقة زوجها وأهله ، نظرت إليها ، شعرت بأنها كانت جميلة ولكن (الهم) أكلها ، أصبحت عجوزا فى الثلاثين ، ممرضتنا فى مصر أكثر حيوية ولطفا وخبرة ، وفى أكسفورد عنجهية لا أدرى لها سببا ، فى (الأولدكورت) الممرضة تعرف ماذا تفعل وتفهم ولا شىء يشغلها سوى العمل ، يبدو أنهن جميعا من بلاد فقيرة ، ولا هم لهم إلا الحياة المستورة ودون مشاكل ، ولكن لماذا أروى هذا الآن ؟! يبدو أننى تأثرت بعناية الممرضات هنا فى (الأولدكورت) ، بعد تجربة مستشفى (أكسفورد) المريرة ، وضعوا طوقا حديديا حول صدرى ، ووقف بجوارى زنجى أسود أفزعنى ، نظر إلى جهاز الحقن الأوتوماتيكى ، بحلق فى وجهى ثم ردد كلمة اعتذار ومضى ، الساعة تقترب من الثانية ، أشعر بأن العالم صغير جدا ، وأنه لا يساوى شيئا ، نسيت الآن كل شىء لم أعد أعى ماذا أقول أقصد ما أقوله لجهاز التسجيل الخاص بى . أحاول أن أتذكر ، الألم يحيط بى ، يشلنى ، جئت إلى هنا بعد عذاب وبعد عمليتين جراحيتين فى القلب ، وعندما جاء الدكتور يعقوب قال : من قال إنك فى حاجة إلى

جراحة . . . . ماذا ؟ تشبثت بعينى ابنتى ، كانت على وشك البكاء (كل هذا العذاب لم يكن له داع) ، اهتز جسدى ، و تكورت مثل بالونة طفل قذفها فى تمرد ، (يعقوب) لا يزال يتكلم لقد أجريت لك من قبل ما يدعيه الجراح الذى أجرى لك الجراحتين فماذا فعل ؟ الألم يحتوينى أحيانا أفكر فى الإذلال و العبودية ، أقول لماذا يرضى الإنسان عن الذل ؟! لماذا يرضخ للتعذيب و يستسلم للقهر ؟! لماذا لا يشهر سيفه، غضبه ، عصيانه ؟! يموت وهو يناضل ، لماذا يتحول الإنسان إلى مجرد ذبيحة ، بقرة ، جاموسة ، شاة ، مجرد دجاجة تذبح و تطيع ذابحها ؟! لماذا هذا الموقف البائس المشين ؟!

عرض التليفزيون البريطانى عملية اغتصاب وحشية لشاب ، اغتصبه مجموعة من الأصدقاء ، بكى و توسل ، كانوا أقوى منه ، أحدهم يقوم باغتصابه والآخرون يمسكون به فى وحشية ، شدنى الفيلم ، تصورت أن الشاب سوف ينتقم ، سوف يهد الدنيا و يفعل كل ما هو شر ، و لكن بدلا من هذا رقد منهزما فى غرفته ، الألم يعتصره ، يخنقه يحضر سكينا ويقطع شريان يده ، ينبثق الدم ، يندفع ، يملأ فراش الشاب الذى تكور حول نفسه ، تدفق الدم على أرض الغرفة ، لم يصرخ ، فى الصباح كان مجرد جثة و الدماء تملأ الغرفة ، حملوه رفاقه ، وشرطة المعهد و موظفوه ينظرون فى لا مبالاة ، حقدت على الشاب و على

نفسى لأننى شاهدت هذا المشهد ، مات الشاب و من اغتصبه و رفاقه يتأهبون لالتهام طعام الإفطار ، لماذا لم يحاول هذا الشاب قتلهم؟ كان فى إمكانه المكر بهم ، تدبير وسيلة ما للانتقام ، ولكنه قتل نفسه .

هل أنا الشاب ؟ تركت نفسى للجراح الذى فعل بى ما فعله الرفقاء بزميلهم ، حولنى إلى إنسان على حافة الموت ، ثم مضى ، و جلست أنا على فراشى ، ينزف الدم منى بغزارة و أنا راقد مستسلم ، ثم يخبرنى (يعقوب) بأن ما فعله الجراح لم يكن ضروريا ، إذا لماذا فعله ؟ لماذا اغتصبنى ؟ و لماذا رضيت أنا ؟ و لماذا لا أحاول أن أقتله ؟

و راحت الذكريات تتدافع إلى ذهنى ، أنا فعلا هكذا ، كنت مجرد طفل مغلوب على أمره ، و شاب خجول تحبنى الفتيات أو يدعين هذا و أنا لا أنفى عنى هذا ، أبتسم فقط ، و أصبحت رجلا هكذا ، ماذا يهم ؟ سرقوا أعمالى ، أهدروا أفكارى ، و أنا صامت أتألم ، تعلمت كيف أتألم فى صمت ، و أنا أتحدث الآن يضعون فى شراييني إبرًا ، يزغونها ، وأنا أتظاهر بالشجاعة و الألم يمزقنى ، أنا شجاع ، شجاع أخرس ، الخرس هو الذى يغطى خوفى ، ربما يريحنى أن أقول هذا ، أبتسم دوما و كأننى فى حقل تسلم جائزة النضال الوطنى ، و ترتعد مفاصلى وعقلى ، سابح أتصور أننى فوق السحب ، أسبح فوق مياه

المحيط ، أقيم المساجد و القصور وبيوت للعجزة والمحتاجين ، أتلفت حولى و أصيح :

- أنا مجنون .

فى البداية كنت أدور فى حقول البرسيم ، ألف فى دوائر و أتطلع إلى السماء و أرى الشمس ، وأعتقد أن الله يرانى و أنه قادر على كل شيء ، وأضع قرشا فى يدى ، و أغمض عينى ، وأقبض على القرش أدعو الله فى حرارة و حماس لكى يتحول القرش المعدنى الأبيض إلى « جنيه ذهبى » ، لم أكن أعرف وقتها ما شكل الجنيه الذهب ، و أظل أدعو الله ، ثم أفتح عينى و أفتح قبضتى فأجد القرش الأبيض كما هو لم يتبدل ، و لم أفكر بأن الله تخلى عنى ، و كنت أظن فقط أننى لم أجد كلمات الدعاء المناسبة ، و ظلت هذه الحالة تراودنى حتى كبرت قليلا ، و عرفت أن هذا (لعب عيال) فلم أعاود مرة أخرى ، و لكنى تمسكت باعتقادى بوجود الله خالقى وهو يرانى و يعرف سرى لهذا ، كنت أخاف أن أخالفه ، سافرت حول العالم و لم أقرب امرأة ، و لم أحاول أن أخادع أو أغش أو . . . أسرق ، كنت دائمًا أخشى الله ، و أخافه ، و كنت أعتقد أن أمامى من الأعمال المهمة التى يجب أن أقوم بها ، اقتربت الممرضة و قالت :

- البروفيسير قادم .

حالة الارتباك و الخوف تشمل الغرفة بمن فيها ، بل الجناح

الذى به غرفتى بل المستشفى كله ، البروفيسير قادم ، ينتاب الطبيب المساعد بعض الخوف الذى يبدو على وجهه ، ترتجف الممرضات ، تجرى إحداهن لإحضار ما تتصور أنه يحتاجه ، أبتسم أنا ، سوف يكلمنى بالعربية لن يفهموا حتى لو سبنى أو أهاننى لن يفهموا ، أليس هذا أمرا مهما ، ولكن سوف أفهم كلمات التأنيب وعلامات الازدراء التى سيفصح عنها البروفيسير بالإنجليزية لهم ، لا يفهمون ما يقوله لى وأنا أفهم ما يقوله لهم ، تقدم منى ، ورحت أحكى له حكاية قتل رئيس وزراء إسرائيل ابتسم ، أحسست أنه سعيد بما حدث ولكنه قال :

- أنا أكره القتل .. حتى لأعدائى .

تحدثنا عن أشياء بعيدة عن مرضى وهو يتفحصنى ، كان أملى أن يقول لى خبرا مطمئنا ، أن يقول أن كل شىء أصبح جيدا ولكنه لم يقل هذا ، أعلن أوامره لمساعديه وانصرف وهو يداعبنى ببعض الكلمات ، أخبرنى مساعده بأن الأيام ستطول ، وأنه أمر بإعادة نقل الدم مع استمرار حالة الطوارئ والحقن (الأتوماتيكى) بالمضادات الحيوية ، سألنى المساعد عن سر الضحكات والكلمات المتبادلة ، قلت له :

- إن الأمر لم يعد مهما .

وعدت إلى دارنا ، فكرت بأن أصعد إلى سطوح بيتنا ، ولكن لم أفعل ، فى اليوم التالى جاء إلى المدرسة ، وإلى

الفصل الذى أنا فيه تلميذ مستجد ، يبدو أنه ابن المدينة ، فملابسه و حديثه يبدو أنه كذلك ، كان مدرس الدين يشرح لنا معنى الصراط المستقيم كما جاء فى القرآن ، كنت أرتجف من الهول فى الموقف يوم القيامة ، كيف يعبر الإنسان هذا الصراط فإذا نجح دخل الجنة و إذا فشل سقط فى هوة سحيقة إلى نار جهنم ؟ و أتخيل سقوطى المروع فى هذا الجب الجهنمى ، و المدرس يزيد فى شحن عقولنا بالخوف من هذا المصير ، كنت فى الصف الثالث الابتدائى و لم أكن أقرأ و لا أكتب ، كنت طفلا مدللا فلم يحاول المدرسون معى شيئا ، و كان زملائى قد سبقونى فى التعلم بالمدارس التى كانت تسمى الأولية أو الإلزامية ، و قد كانت الدارسة بها إجبارية على كل طفل وصل سنه السادسة ، و لأنى لم أكن قد بلغت هذه السِّن فلم أدخل المدارس الأولية و عندما افتتحوا هذه المدرسة فى بلدتنا ، و هى مدرسة ابتدائية خاصة تسير وقف المناهج الإنجليزية فى التعليم ، دخلت المدرسة الابتدائية بعد أن طلبت هذا من أبى بإلحاح شديد وهو يدوره (أمر) ناظر المدرسة بقبولى فى الصف الأول ، و هكذا دخلت المدرسة و ارتديت ملابسها (الإفرنجية) الجميلة و راح أبى يدللنى بشراء أجمل الملابس ، و لأنه لم يكن يعنيه التعليم فى حد ذاته ، فإنه هرول إلى المدرسة بعد سماعه عن عقابى على يد ناظر المدرسة (لأميتى) الشديدة بالنسبة

لأقرانى الذين دخلوا المدرسة ، وهم يجيدون الكتابة والقراءة والخط ، وأيضا كانوا على دراية فى علم الحساب والهندسة والعلوم ، وكانوا - طبعا - أكبر منى فى السن والجسم بفارق واضح ، جاء أبى وهدد بهدم المدرسة إذا تكرر ذلك ولعن الإنجليز وكل من يحتمى وراءهم كان هذا قبل معاهدة جلاء الإنجليز ، وخاف الناظر الذى كنا نطلق عليه اسم (توبى) وهو اسم (الكلب) بطل الرواية التى ندرسها فى المدرسة ، وخاف (توبى) ولم أعد أذكر اسمه الأصلى ، وخاف كل مدرسى المدرسة الخاصة ، وقالوا :

- أنت ليس فى حاجة إلى شهادات ... تكفيك أعمال أبيك .

وفعلا لم أكن أقضى فى الدراسة إلا الأوقات المريحة والسعيدة ، أما إن عدت منها فإن عملى مع أبى حتى منتصف الليل كان يرهقنى ، وإن كان قد أفادنى كثيرا فقد تعاملت مع كل فئات مجتمعنا ، وكنت أقوم بكل العمليات الحسابية فى ذهنى بسرعة تفوق سرعة التجار الذين كانوا يتعاملون معنا ويقومون باستخدام الأقلام (الكوبيا) واستطعت أن أنال إعجاب مدرسى فصلى عندما كنت الوحيد الذى يجيب على أسئلة السيد المفتش ، وأبدى مدرس العلوم دهشته عندما وجدنى أجيب على أسئلة المفتش دون بقية زملائى وبلا وجل ولا خوف ،

و مع هذا ظللت لا أعرف الكتابة و القراءة ، ولم يحاول أحد من المدرسين تعليمى ، و انصرفوا إلى تدريس المواد لفصلى وفقا للمناهج المقررة ، وهكذا وجدتنى فى الصف الثالث الابتدائى و أنا على هذه الحالة من الأمية و نجاحى كان ضروريا حتى لا يتعرض الناظر لتهديد أبى ، وحتى لا يفقد المدرسون صداقة عمى الذى كان فى مثل أعمارهم و كانوا يقضون عنده أوقات فراغهم بحكم غربتهم عن بلدتنا ، جاء هذا الولد البندرى القادم من الحضر ، و معه كتب ملونة و جلس معنا يستمع إلى مدرس الدين و هو يزمجر لكى يزداد خوفنا ، لكن هذا الولد سأله فى هدوء :

- سوف يدخل الجنة لاعبو السيرك الذين يمشون على الحبال و الأسلاك ؟

و انفجر التلاميذ فى ضحك مكبوت ، و انفجر المدرس غيظا ، و انفجر فى عقلى سؤال هذا الولد ، أيقظنى ، و أسرعت وجمعت شتات ذهنى و اقتربت من الولد التلميذ و خرجت معه بعد أن عرف من أكون ، و أنهم يسكنون فى منزل يملكه أبى و ذهبت معه إلى دارهم و رأيت الكتب الملونة ورأيت أخته ، و فى تلك اللحظة عرفت القراءة و الحب .

اندفعت الممرضة الإنجليزية الشقراء تسبنى لأننى أتبول على نفسى و أنها لن تغير ملاءات السرير بعد الآن ، و جاءت أخرى

لتساعدها و جلست على مقعد بعد أن حملونى إليه و أنا لا أدرى ماذا أفعل ، لقد أصبحت مثل أطفالى الصغار وسوف يرانى أصغرهم (محمد) ويقول فى لغة غير سليمة النطق (أنت مبلول) كما تسأله أخته كل صباح ، و بكيت لماذا لم أستطع أن أتحكم فى نفسى ؟ لماذا لا أعرف حتى الآن القراءة ؟ سألته أن يعطينى الكتب الملونة ، وسألت أخته ليلى ، هذا اسم جميل لا ينسى ، أين أنت الآن يا ليلى هذا هو حبيبك و قد حبسوه فى فراش مبلل ، و أخذت الكتب الملونة و جلست فى حجرتى وقررت أن أتعلم ، هذا هو الحمار . . . . أجيد ركوب الحمير و أجرى بها وسط الحقول ، غدا سوف أحمل ليلى خلفى على حمارى وسوف تسعد لأنها قادمة من البندر ، حيث يركبون السيارات ، كيف أقرأ اسم الحمار ، حسنا فلنبدأ من البداية ، كما أسمع صوتى ، أتبع صوتى وأضع يدى على الحروف ، أخيرا وجدت حرف (الحاء) حا ، لنبحث فى الكتاب كله عن هذا الشكل (حـ أوح) ، هذه (هى) وتلك ، (إنها) أحرف متشابهة ، و بعده حرف (الميم) . . . و هكذا حتى أذان الفجر ذهبت للصلاة و قد علق بذهنى كم لا بأس به من حروف الكلمات و فى اليوم التالى ذهبت إلى المدرسة بعد أن اشتريت كراسة و كلما حاولت أن أكتب مثل بقية زملائى ، رآنى المدرس فسخر منى ، ولكنى واصلت ، كنت قد نجحت فى كتابة بعض

الحروف ، وفى الليلة التالية كانت صورة ليلى وهى تركب خلفى على حمارى المنطلق نحو حقولنا وصورة المدرس الساخر تصطدمان فى رأسى ، قررت أن أتعلم جيدا و تعلمت ، و قرأت القصة التى كانت فى الكتاب الملون و ذهبت لصلاة الفجر بعد أن تذوقت حلاوة القراءة ، و من يومها و أنا أعشق القراءة كما أعشق ليلى ، و ساعدتها حتى استوت على الأرض و هى لا تزال فى حالة انبهار (لركوبها حمارى) و أخذت غصنا جافا ورسمت على التراب أمام حقلنا اسم ليلى ففرحت هى ، و صاحت فى دهشة :

- لقد كتبت اسمى صحيحا !

أخذت أعيد كتابته من جديد عدة مرات ، أخذت العصا من يدى و كتبت بجوار اسمها اسمى ثم رسمت قلبا و فى داخله سهما ، و لما رأيت السهم ارتعدت و ظهر هذا على وجهى وجريت . . . لماذا السهم ؟ لماذا الجرح ؟ لماذا أحالونى إلى هذا الطبيب المعتوه ؟ الذى أجرى جراحة لم تكن واجبة و أجراها خطأ توالت عنه الأخطاء وهأنذا أرقد عليلا ، مصابا بسهام عديدة ، لم أحاول أن أحب أو أعشق وكلهن ليلى ، و كلهن لا يرون منك إلا القتل و الفتك ، لا تعطى نفسك لامرأة مهما كان الثمن لأن حياتك فى النهاية هى الثمن .

جاءت ابنتى تبكى ، كنت قد قررت الرحيل ، صحا عقلى

على فكرة : البقاء معناه الموت ، أتمتم : البقاء ، الموت ، كان من الممكن الذهاب إلى أطباء كثيرين ، لماذا استسلمت للصديق الدكتور الأستاذ ؟ لماذا لم أذهب إلى أطباء آخرين ؟ و جميعهم أصدقاء و أساتذة ، و انحدرت تلك الأفكار مثل صخرة على دماغى ، لم أنم ، فى الفجر كنت بصوتى الواهن أطلب معونة الأصدقاء لإخراجى من هنا وخرجت ، بكت ابنتى . . . بكت زوجتى عندما علمت أننى متهم و أننى ربما أدخل السجن - كنت على ثقة بالله ، هو معى ، حتى و لو لم يتحول القرش الأبيض إلى ذهب أحمر ، قلت إننى برىء و لكنهم شهدوا ضدى جميعا حتى تلك السيدة التى تزوجتها بعد ذلك ، كل الذين أكلوا معى و أنفقت عليهم مالى الخاص شهدوا ضدى ، تكدست الأوراق و أصبحت مثل أبحاث الدكتوراه باللغة العربية ، كل الأوراق بها كلام و حولونى إلى المحاكمة كان من المفترض أن أسجن ، كانوا يعرفون و أنا أعرف السر وراء الاتهام ، ليس ما هو مكتوب ومدون فقط ، لأننى عارضت نظام منظمة الشباب ، كان نظاما فاسدا مجرد تقليد أعمى لتجربة السوفييت ، قلت : الدين ليس أفيون للشعوب ، بل هو الأساس الذى يعيش عليه و من أجله الناس ، ماذا يفعل المصرى الذى عبد الله الواحد منذ آلاف السنين ؟ صار فى دمه و عروقه يرثه الأبناء عن الآباء ، جزء من تكوين الشخصية ، لماذا نرفض وجود الله ؟ ما الذى يفيدنا من

هدم الروح لدى الناس ؟ من الممكن تطبيق كل تعاليم المنظمة و الاحتفاظ بالعقيدة الدينية ، هذا سوف يفيدنا ، لم يعجبهم كلامى و بعد أن كنت (الصبى المعجزة) أو الشاب المرموق و الذى يمكن أن يقود شباب العالم ، تحولت فى ليلة واحدة إلى بؤرة فساد للشباب ، (و هات يا اتهامات) ، يحب أن يسجن ، و الحمد لله لم يتمكنوا ، نجانى الله ، و ظلت زوجتى مؤمنة بصدقى و طهارتى ، مع تخلى كل الأقارب و الأهل و الأصدقاء بل و المعاداة علانية حتى لا يتهموا بنصرة أحد أقاربهم المغضوب عليه من السلطة العليا ، و تخلى كل الناس ، و ظلت زوجتى عاما و بعض عام تنفق على البيت فى تماسك و هى تردد إن زوجى صادق و برىء و طاهر وسوف يخرجه الله إن شاء من محنته أصلب عودا ، فهو لا يزال صغير السن ، و خرجت لأبحث عن عمل ، ياه . . . اثنتا عشرة مرة أخرج من العمل .

اليوم خرجت من المستشفى هاربا ، أنقذنى رجال الإسعاف الذين أرسلهم البروفيسير (يعقوب) ، حشرونى فى السيارة الجو حار يزيدنى كآبة ، والطريق طويل يدور و يلف وأنا أكاد أختنق حتى وصلت إلى هذا المعتقل ، أقصد الغرفة ١٦ بالأولدكورت ، أنا الآن جالس و فى يدى مسجل صغير ، كل ما يربطنى بالعالم هو هذا المسجل ، أحكى له حكاية لطيفة ، وأسمع منه صوت (الشيخ الحذيفى) - يذكرنى الصوت -

بصلاة الفجر فى الكعبة ، البرد الخفيف و رائحة جبال مكة و صوت يرتل القرآن فى طلاوة وحلاوة ، رائحة جبال مكة تطبق على المصلين لهذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يضع الطيب - كل شيء يمكن تفسيره ولكن دون تطرف ، أذاعوا أن مجموعة من المسلمين هاجموا قطارا بالصعيد ، هذا التليفزيون البريطانى لم ينس أنه يعبر عن (الاستعمار) رغم مضى كل تلك المدة قالوا المظاهرة سوف تذهب إلى مصر ، ذهبت معهم ، الموت للخونة (إنجلترا لنا إن أمكنا) ، الاستقلال التام ، وعندما تدخلت الشرطة وتفرق الصحاب ولم أستطع الاهتداء إلى محطة القطار ، لا أدرى كيف عدت إلى قريتى ، ولكن يبدو أننى عدت .

يحاول (بانديا) مساعد البروفيسير ، تركيب الحقنة ، لقد حاول الآن سبع مرات ، ومع كل مرة أسمع كلمة آسف وأرى الأسى مرسوما على وجهه ، وفى النهاية نجح ، جلس بجوارى بعد أن تأكد من سريان مادة الحقن فى الوريد ، كان يحب : (نهرو وجمال عبد الناصر وتيتو) عندما كان فى المدرسة الثانوية ، لم أسأله لماذا جاء إلى لندن ؟ هنا هنود كثيرون ، لا داعى للسؤال . . . . أتصور أن كل الناس الذين فى لندن لهم حكايات فقد جاءوا من بلاد بعيدة ، راح يضحك وهو يروى لى حكايات عنى خلال تخديرى . كنت أحبه ، وأحب جلسته فى حجرتى .

وجاءت ليلى فى المساء وعاملتنى بقسوة ، ليلى هذه من الزنوج السود ولكنها إنجليزية تتباهى بذلك ، نهرتنى بشدة وأعطتنى درسا فى الأدب والأخلاق الحميدة ، كيف أشير إليها كما يشير السادة لكلابهم ، لم أنطق ، حاولت الاعتذار ولكنها لم تقبل ، انصرفت بعد أن أعطتنى الدواء ، قصيرة القامة ، نافرة الشعر ، ومع هذا عاملتنى كأننى أحد رعايا مملكة أهلها ، يسقط الاستعمار ، تسقط ليلى . . . ياه ليلى مرة أخرى . . . ليلى الطفلة الجميلة الرقيقة البيضاء ذات الضفائر المجدولة والرداء الأحمر الذى يرفرف حول جسدها النحيل ، تأخذ العصا من يدى لكى تكتب اسمى بجوار اسمها ثم ترسم سهما فى القلب ، السهام كثيرة هذه الأيام يا ليلى ، ولا أعرف كيف انتهت قصتى مع ليلى ، وأصبحت أقرأ كل ليلة حتى صلاة الفجر .

سألنى (بانديا) سؤالا غريبا عن أشياء غريبة والسؤال عن الكون ، وكيف أراه ؟ و لماذا يرانى دائما نائما ؟ فإذا ما اقترب منى سألته أن يبقى ، كيف تبدو نائما وفى الوقت نفسه ترانى على الرغم أننى أحاذر عند دخول الحجرة حتى لا أوقظك ؟! لم أحضر إلا للاطمئنان عليك و أنت نائم .

ياه يا دكتور بانديا . . . ابنتى تعودت أن تسألنى و أنا نائم و أجيبها ، أسرتى تعودت هذا ، لم يحاول أحد إيقاظى ، فى الموعد المحدد إذا كنا على سفر ، ظللت حتى بلغت سن

الأربعين و أنا لا أعرف النوم و لكنى أتظاهر بالنوم فإذا ما سألنى أحدهم سؤالا أجبته ، لا أدرى كيف حدث هذا . . . فى ليلة باردة كانت حجرتى فى دارنا القديمة لا يفصلها عن مقابر أهلى إلا مجرد زقاق ، وتعودت أن أرى الجماجم ، والعظام البارزة ، كلما تهدم حائط من حوائط هذه الجبانة أو كلما أرادوا أن يوسعوا من الزقاق ، و تعايشت مع هذه المقابر ، كانوا يقولون إنها مقابر أجداد لنا من قديم الزمن و لم تعد مستخدمة الآن ، و كان بى خوف شديد من التواجد بمفردى فى الغرفة لهذا كنت أصحب أخى الصغير الذى يصغرنى ببضع سنين ، أحاول أن أدارى خوفى و أن أقنعه بمصاحبتى على أن يظل مستيقظا - كنت فى الصف الرابع الابتدائى ، و لم تعد مشكلة القراءة عذرا لعدم مذاكرتى للمواد الدراسية فكانوا يقولون لى هذه شهادة مهمة ، و تحمس أعمامى و أخوالى من أجل نجاحى فى الابتدائية ، ولهذا أقنعوا أبى بتركى قليلا حتى أذاكر ، و لم يكن أحدهم - رغم كثرة أخوالى و أعمامى - لديه الوقت لكى يساعدنى ، فلم أجد إلا أخى الذى يصغرنى مباشرة لكى يكون معى فى أوقات المذاكرة ليلا ، و لكنه سرعان ما يغرق فى نوم عميق و كان طفلا لم يدخل المدرسة بعد ، و أبتسم أنا ، فوجوده يعطينى الإحساس بالأمان ، و أندمج فى مذاكرة المواد الدراسية و يساعدنى أن السنوات التى قضيتها لا أكتب فى الفصل تعودت

فيها أن أصغى جيدا للدرس فأحفظه كما قاله المدرس حفظا تاما ، و فى السنة الرابعة كانت ذاكرتى مع قراءة الدروس تجعل من المذاكرة أمرا مسليا و لطيفا و ليس مجهدا ، فى هذه الليلة ظللت أنتظر أخى (سمير) و لكنه لم يحضر ، و شعرت بالخوف قليلا و لكنى تغلبت عليه ، وذهبت إلى فراشى و تأهبت للنوم ، وانفتح الباب و رأيتها سيدة ترتدى ثوبا أبيض تغطى رأسها بشال أبيض ، شعرت بالارتباك فلم أرها من قبل ، دارنا تعج بالسيدات و الرجال من أهلنا وأقاربنا وأناس يعملون فى خدمتنا ، و دائما ما تدخل سيدة تقدم لى الطعام بناء على أمر من جدتى ، فى الغالب كنت أعرفهن ، أغلقت الباب خلفها بعد أن دخلت ، لم أشعر بالخوف ، بل شعرت بالسعادة و كأنها فيض نور تدفق فى جسدى كله ، و كأننى أغطس فى بئر ماكينة المياه التى تدور على حافة حقول (الوسية) ، شعور بالمتعة و أنا أغطس فى الماء البارد ، ثم أقفز منه لأعود لكى أغطس ، لا أحد يرانى ، الماكينة تدور ليل نهار ، تسكب الماء فى بئر ، يفور الماء ، يعلو الزبد ، أقفز سعيدا منتشيا ، و قد خلعت جلبابى على حافة البئر ، أكرر الغطس والقفز حتى أشعر بالشبع ، أرتدى جلبابى و أصلى ، أشعر بالسعادة للفراغ من حولى ، حقول متسعة و لا شىء غير النبات الأخضر الذى يتراقص مع الهواء و يفرد طوله مداعبا شعاع الشمس ، . . . . . اقتربت منى ، اعتدلت فى جلستى

كنت أريد أن ألمسها أو أن تلمسنى ، قبلتنى على جبهتى ، شعرت بسخونة حادة على جبهتى وظلت هذه السخونة تصاحبنى بعد ذلك ، قبلتنى ثم نظرت فى عينى و استدارت تنصرف ، كدت أقفز خلفها ، لا تمضى الآن ، و متى أراك ثانية ، أشارت إلىّ بالصمت ثم مضت ، أغلقت الباب خلفها كما كان ، ظللت محملقا فى الباب لا أقدر على مغادرة الفراش ، حتى رأيته يفتح من جديد و كان أخى هذه المرة ، مندفعا نحو الفراش ، و كأنه كان على موعد مع النوم ، سرعان ما راح فى نوم عميق ، و ظللت أنا مستيقظا غير قادر على النوم ، جاء الفجر و صليت . . . ذهبت إلى جدتى أردت أن أحكى لها ما حدث ، و لكنى لم أستطع ، سمعتها تقول فى تأكيد :

– لسانك حصانك . . .

وسكت ، فى كل ليلة أظل مشدودا نحو الباب أريد أن أراها ، أشعر بأننى معلق بها ، و ليس حبا ، و لا عشقا و لا شيئًا من ذلك ، إنها كل ذلك و أكثر ، حكيتها بعد أكثر من خمسين عاما للدكتور بانديا ، الذى كنت أود أن أراه مندهشا ، و لكنه لاحقنى بالأسئلة مرة أخرى عن الكون و كيف أراه (. . . الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه . . .) استمع جيدا إلى التلاوة ، القرآن سبق خلق الإنسان ، إذا الفرق بين آدم و بقية الملائكة أن ربه علمه القرآن ، العلم هو القرآن ، و اصطفاه الله

فعلمه ، و القرآن هو البيان ، هو الميزان ، ميزان الكون كله ، ميزان العدل ، و ميزان الحساب فى الدنيا أرطال و أوزان ، و ميزان العقل ، و الميزان فى يد الله ، يا بانديا لقد جعلتنى أبكى طوال ليلى ، أنا من أكون ؟ أنا محمل بكل جرائم البشر ، أحمل فى قلبى خطايا كل الناس ، أنا آدم الذى عصى أمر ربه ، أنا ولده الذى قتل أخاه ، أنا ابن هذا القاتل ، لماذا سألتنى هذا السؤال ؟ لقد اقتربت يا بانديا من منطقة الخطر فى نفسى ، نفسى المنقسمة إلى آلاف الأنفس التى . . . تتحدث بلغة لا أفهمها ، دعنى يا بانديا ، يريد أن يعرف يسألنى و أنا نائم .

نعم أرى الأشياء وأنا نائم ، و أسمع الأصوات عن بعد و أنا نائم ، لا أقدر على وصف هذا رغم كونى كاتبا ، ولكن هذا ما حدث لى بعد تلك الليلة ، أشياء لا إرادية ، لا أدرى لها تفسيرا و لا سببا ، أرقد على ظهرى ، سرعان ما أترك جسدى و أرتفع فى السماء ، عقلى يدور و يدور ، أتحرك وفقا لما يقرره ، أريد أن أرى سيبيريا لم أذهب إلى سيبيريا من قبل ، أرتفع أكثر ، أرى الحقول ثم الجبال ثم البحار ثم قمم الثلوج و هى تبرق ، و أحط على جبال خضراء و أشجار باسقة ، كيف تكون هذه سيبيريا ؟! و لكنها كذلك خليط عجيب من الثلج و الأنهار الصغيرة . . . و البحيرات ذات شطآن وأشجار ، و رجال غلاظ نهرنى أحدهم فى قسوة و صاح فى وجهى و لم

أعرف ماذا يقول ؟ أصعد مرة أخرى ، أرى جبال الألب ، أنحدر نحو الجنوب ، أرى قطارا وعربات تجرى بسرعة ، كل شيء صغير ، ومدن ، وقرى ، أهبط فى بلدة لا أدرى ما اسمها ، أجلس ، أستريح ثم أواصل الرحلة عائدا إلى جسدى ، سرعان ما أهبط وأشعر بالتعب ، والعرق يغرق كل جسدى ، لا أحد يدرى ما حدث ، ولكنى بعدها أظل مجهدا مدة تزيد عن أسبوع ، هل عندك تفسير لهذا يا بانديا ؟ تكرر هذا آلاف المرات ، بالنهار وأنا وسط معسكر للشباب ، أو بالليل وأنا راقد بجوار زوجتى ، أو حتى وأنا أجلس ممددًا بجوار مجموعة من الأصدقاء ، والويل لى إذا أيقظنى أحدهم قبل أن أعود إلى جسدى . . . ، والذين كانوا على معرفة بى جيدا لم يكونوا يفعلونها ، ثم إن ما حدث لا يستغرق فى الزمن المعروف إلا وقتا قليلا لم أستطع تحديده . . . وقد رأيت أشياء كثيرة وسجلت أشياء عديدة ، وكنت دوما لا أتكلم ، فلماذا دفعتنى يا بانديا لكى أحكى لك ما فى نفسى ؟

الليل يزحف حولى ، والغرفة يسودها البرد ، والخوف يملأ قلبى ، أحاول أن أنام ، أن أحلم ، يستعصى الحلم ، حتى الحلم لا أجده .

الفصل الثالث

وضعونى فى حجرة أمامية ، حاولت النهوض للذهاب إلى الحمام ، رحلتى من مستشفى أكسفورد إلى هنا (الأولدكورت) كانت مرهقة ، انسال البول على ملابسى ، أسرعت كبيرة الممرضات (چيسى) لازلت أذكر اسمها فقد جئت إلى هنا مرة أخرى ، أول مرة دخلت فيها هذه المستشفى لم أسترح طلبت من أخى الذى كان يرافقنى أن يذهبوا بى إلى غرفة أخرى ، ولكنه قال ليس هذا فندقا ولسنا هنا للسياحة ، كنا لا نعرف شكل الدكتور يعقوب الذى جئنا من أجله ، ولكن فجأة رأينا الطبيب المصاحب لنا من القاهرة يخرج من الغرفة مسرعا ، وإذا به يعود ومعه رجل أسمر عملاق وعلى وجهه ابتسامة طفل ، يقول بالعربية :

– لا تخش شيئا ... فقط سوف أنقلك إلى مستشفى أخرى .

شكرته بالإنجليزية ، لم أشعر بشىء ، فقط وجدت نفسى فى حجرة فسيحة جميلة وأمامى فتاة بيضاء رشيقة .

أمسك أخى بذراعى وقال سوف تذهب الآن ، قلت :

– أترى هذه الحجرة أفضل ؟

قال - وكأنه يكرر كلاما ما قاله من قبل :

- لن تشعر بألم . . فقط تذكر إيمانك بالله .

تدحرج السرير ، دلفنا إلى عدة طرقات كانت ألوان السقف تتغير من وردى إلى بنى إلى أخضر ، أخذت أفكر فى الألوان ، وأقترح غيرها ، ثم وجدتنى وقد توقفت الحركة من حولى ، وانهمر الضوء الساطع ورأيت وجها أسمر ثم تدافعت الوجوه سمراء وبيضاء وصفراء ، وجوه رجال ونساء وشيوخ وشباب وعجائز وفتيات ، وأدور كما يدورون ، وينطلق لسانى مكبرا الله أكبر ، الحمد لله ولا إله إلا الله ، اللهم إنى نويت الطواف بكعبتك الشريفة ، اللهم تقبل ، هأنذا أطوف الشوط الثالث ، ولا أشعر بإرهاق ، أكبر الله وأدعو، أحس بالسعادة ، ها قد انتهيت من الطواف وصليت ، وتوضأت فى زمزم وشربت حتى ارتويت ، ودارت بى الأيام ، أحسها وأشعر بها ، أصلى الفجر جماعة وكذا بقية الأوقات لا أغادر الكعبة المشرفة ، ولكن ما هذا . . إنهم يدفعوننى دفعا أشعر بألم حاد - ثم ها هو أخى يمسح عن وجهى ماء زمزم ، وأسمعه يقول :

- لقد انتهت العملية بسلام .

لا أفهم ، أحاول أن أبعده عن وجهى ، ولكنى لا أقدر أستسلم له ، يجفف الماء عن وجهى تبتسم الفتاة :

- أنت محظوظ يا رجل .

لا حول و لا قوة إلا بالله ، ماذا حدث ؟ عرفت أنهم أفاقونى ، رأيت الناس يتحركون ، يمشون ، يتكلمون ، أقول هذه قدرة الله ، كيف يفعلون هذا ، وعندما جاءت تلك السيدة المكلفة بتدريبى لم أطاوعها ، ولكنهم واصلوا المحاولة ، وجاءت رأس السنة وطلبوا أن أذهب إلى أسرتى ، كيف ؟ أسرتى هناك فى قارة أخرى ، لم يفهم الطبيب الإنجليزى ، حملنى الأصدقاء إلى مسكن جميل ، كانوا يحيطون بى فى عناية ورعاية ، وعدت ، هل عدت إلى الوطن ؟ إلى الأسرة ؟ أم عدت إلى المستشفى نفسها ؟ لا أدرى ، وقال إن (البروفيسير) قادم ، تفحصنى فى برود ، كانت على وجهه علامات الألم والخوف قال :

- لم يكن هناك داع لجراحة جديدة .

تصاعد الغيظ المكبوت إلى نافوخى ، شعرت بأن الأسد قد تم حصاره وأنهم أوهموه بالراحة ، ولكنه لم يكن يعلم أنها راحة من السعادة والحياة ، سقطت فى بئر ، وها هو يقول لم يكن هناك داع . لماذا وكل هؤلاء الذين قرروا والذين قاموا بالجراحة ، وكل تلك الآلام . . لا لشىء ، عبثا كل ما حدث . قال :

- هل عدت تفكر فى هذا الأمر ؟ يجب أن تحارب معركتك أولاً .

قلت : ولكن يا بانديا لقد سمعت ما قاله الأستاذ ، قال :

- لا تفكر .... لقد جئت الآن إلى المكان الصحيح وبدأنا رحلة العلاج ، ولكن ماذا نفعل أمام المعاناة والألم ؟

قال : ألست مؤمنا ؟

قلت : الحمد لله ، قال :

تمسك بإيمانك

خجلت من نفسى ، كيف أصبحت هكذا ؟! نعم ، كيف أفلت منى هذا الضوء الجميل الذى طالما تمسكت به ، بعد أن زارتنى وأنا طفل ؟! وأنا ممسك بضوئها أرى الأشياء كما لا يراها الناس ، ولا أتكلم ، أعرف أشياء لا أبوح بها وأتمسك بهذا الضوء يشدنى نحو ذكر الله والصلاة فى المساجد ، كل شىء أراه ولا يراه الآخرون ، أفعل ما يأتينى به قلبى حتى ولو كان ضد كل الناس ، ونجحت فى الشهادة الابتدائية وكنت التلميذ الوحيد الذى نالها من بين زملائى الذين كانوا بالفعل أكثر قدرة على النجاح ، لا أدرى لماذا رسبوا ! لقد كانوا يكتبون وأنا لا أعرف ، ويرسمون الأشكال وأنا لا أعرف ، ويتحدثون عن حب الفتيات ومقابلاتهن عند النهر وعند الجسر وأحيانا داخل الحقول وأنا لا أدرى عما يتكلمون كيف يكون حب الفتيات جارفا ومفرحا ومبهجا إلى هذه الدرجة ؟ رحلت ليلى فلم أعد أعرف من أسال . فرحت أسرتى ، وسعد أبى ، ولكنه رفض

أن أواصل الدراسة كان أمله و لا يزال أن أرث عمله ، أكون ساعده الأيمن ، و قد كنت دوما ، أعمل معه أكثر من الوقت الذى أقضيه فى الدراسة و النوم و الطعام معا ، و لكن أريد أن أواصل ، و أخيرا نجح خالى فى إقناعه و دخلت مدرسة لا تحمل اسما ، بداخلها لاشيء لا مدرسين و لا دراسة و لا تعليم ولا شيء .. المهم أن تدفع المصروفات أول كل عام ، و حضرة الناظر الطبيب البيطرى كان يقضى يومه فى (بار جميل) ليس البار هو الجميل إنما هو اسمه لأنه فى الشارع الذى يحمل هذا الاسم ، و استرحت فى المدرسة و استمتعت بها لأنها كانت تعطينى الحق فى الذهاب إلى الحقول حتى موعد العودة و ركوب القطار للسفر عائدا إلى بلدتى .. تسقط إنجلترا ، ما الذى فعلته هذه الدولة لكى يكون نصيبى منها كل هذا الألم ؟ تسقط الإمبراطورية و عملاء الإنجليز ، فى كل يوم مظاهرة أسرع إلى مكبر الصوت و أصرخ بعض كلمات عن الوطنية ، فى كل يوم لابد من أن تجد ذكرى لشهيد أو لمعركة أو لبطل أو لحدث ، ذكرى دنشواى ، و اليوم حرام فيه العلم ، و يخرجون يهتفون بسقوط كل شيء و ألملم كتبى ، و أتتحسس طريقى نحو مكان لى مفضل أسفل الكوبرى ، هناك جزيرة لا يوجد بها إلا الحشائش الخضراء - يطير فوقها بعض الفراشات ، أجلس و أبدأ القراءة ، و أمامى (حزمة) من الجزر الأحمر ، إذا أردت طعاما

أو شرابا ، أسمع من بعيد هدير المظاهرات ، أعرف أنها ستظل كذلك حتى موعد العاشرة فى السينما. . كل طلاب المدارس خرجوا الفتيات و الفتيان ، لم تعد المدرسة مكانا ملائما للعلم ، تساوت المدارس ، مدرستى لا تهتم بقضية العلم و أيضا طلابها إنهم هربوا إليها من بلدان مجاورة ، أبناء أثرياء الريف فى الفصل الدراسى الذى دخلته طلاب متزوجون ، والباقون على علاقات مع فتيات و الحديث كله عن المرأة ، و ماذا يفعلون معها . هذا إذا دخلنا الفصل أصلا و أردنا - لا سمح الله - أن نرى وجه مدرسنا ، و هذا يحدث نادرا و لكن سرعان ما أفكر أنا فى طريقة للخروج وأفضل الطرق إحداث مظاهرة طلابية من أجل إسقاط إنجلترا و نظام الحكم العميل ، إنهم يتحدثون عن النساء و جارى متزوج و أنا ابن التاسعة و لا أفهم ما يقولون بل أنفر منه و هم فيه راغبون، هم فى العشرين أو يزيدون عنها فى العمر، أجسامهم مفرطة فى الضخامة و القوة ، و أنا طفل قصير هزيل ، العمل مع أبى و القراءة و السهر حولونى إلى هيكل عظمى ، كيف أدبر أمرى وسط هؤلاء العمالقة ؟ سوف أفكر ، و الهدف هو قراءة أكبر قدر من المعرفة ، لقد حددت هدفى منذ أن علمت نفسى القراءة سوف أكون كاتبا - و الكاتب عليه فى البداية أن يعرف ، و يعرف كل شىء من أول طرق رى القطن إلى طرق توليد الكهرباء و مابعدها ، و كيف كان الإنسان منذ جاء يكتب

سواء بالعربية أم بالإنجليزية ، وعرفت أشياء كثيرة ، وتغنيت بشعر أبى العلاء من فوق أسطح دارنا وترنمت بقصائد (شكسبير) ، وقرأت أبحاثا فى الزراعة وفى التاريخ وقرأت عن (إخناتون) وعهد الملكات فى مصر القديمة ، وقرأت (التوراة والإنجيل والقرآن) كل ما وقع فى يدى من كتب ، قالت چيسى :

- ثلاث ساعات وأنت تحملق فى طعام إفطارك .. لماذا ؟

قلت إننى فعلا أأكل ولكن على مهل ، قالت : هذا موعد الحمام .. لأن الطبيب يريد أن يرى جراحك بعد الحمام ، قلت : حسنا .

ووضعونى فى الحمام شعرت بالخجل الشديد ، هذه أول مرة أتعرى فيها أمام سيدة ، حملتنى قسرا وقذفت بى فى (البانيو) شعرت بالإهانة ، ولكنى عندما رأيت الماء الملوث بالدم ، استسلمت بعدها ، كانت (شارون) الممرضة الإيرلندية فى (الهيرفيليد) من الشخصيات التى لا يمكن للإنسان أن ينساها بسهولة .

قالت ابنتى : إن المريض بالغرفة رقم ٤ خائف لأنه وحيد وليس معه مرافق وسألتنى أن تذهب إليه ، أعلم أن المرض يصاحبه دوما الوحدة ، عندما كنت فى المستشفى بالقاهرة كان رفيقى بحجرة الإنعاش يطلب من زوجتى أن تحضر له الفول

والطعمية ، وحاولت أن أمنعه من هذا الطلب ولكنه ألح إلى درجة البكاء ، وأحضرت له زوجتى سندوتشات الفول والطعمية فانحنى أسفل فراشه وأخرج برطمانا به زيتون مخلل (أخذ يأكل بشراهة شديدة ، ويقول كل شهرين أسقط ويأتون بى إلى هنا وبعد أسبوع يعيدوننى إلى البيت ثم إلى العمل ، أعلم أننى أحتاج إلى جراحة فى القلب ولكنهم لا يوافقون ، من أكون حتى يرسلوا بى إلى الخارج - إنهم يعطوننى مسكنا وأنا أيضا أعطى نفسى فرصة الحياة كما أريد ، إنهم يعاندوننى لأننى مجرد عامل بسيط ولكنى سوف أهزمهم ، كان قد التهم الطعام مع حبات الزيتون وقف وبدأ يصنع شايا .

قلت صائحا : كفى يا رجل هذه غرفة إنعاش ولها احترامها .

ونظر نحوى فى قسوة وقال :

- يبدو أنك متزمت .. طالما أنت كذلك فلماذا مرضت إذا ، وخرج .

جاءت ابنتى وقالت : إن الرجل بالغرفة رقم ٤ ليس لديه ملابس ونقود ، فقد أخذوا حقيبته بالمكتب الطبى بالسفارة وأرغموه على المبيت فى فندق ثم جاءوا به إلى هنا لإجراء الجراحة ، أعطته ابنتى بعض ملابس خاصة بى ، كل الغرف بها زوجات ملهوفات على أزواجهن ، أو أزواج ملهوفون على

زوجاتهم الكل هنا مشغول - محمد أيوب الباكستانى يدلف إلى الحجرة ويجلس ليقرأ القرآن ثم يفسره باللغة الإنجليزية ، وهو سعيد لأنه مسلم ، وعندما يقرأ القرآن يبكى بشدة ، وتتساقط دموعه بغزارة ينظر نحوى ويقول:

- أنت يا أخى فى الإسلام .

يحضر محمد أيوب كثيرا ، ويأتى ومعه الكثير من الطعام والأشياء الأخرى ، يتمنى أن يرى القاهرة وأن يتعلم فى الأزهر ، ويقول :

- أنت تعرف الكثير عن الإسلام .

تنظر ابنتى نحوه ، لا أدرى كيف أجيب ، ماذا أعرف أنا ؟ منذ زمن وأنا لا أرى ما كنت أراه ، أربعة أشهر بعد عودتى من مكة مباشرة وأنا لا أستطيع أن أغادر فراشى ، الأحلام هربت منى ، الأمانى ، الآمال ، كل شىء لم يعد له وجود ، حتى ذلك النور الذى كنت أتعلق به - صرت وحدى ، انفضّ الزوار وذهبت ابنتى إلى سكنها أحاطت بى نفسى . . ماذا فعلت ؟ حاولت أن أتذكر كل ذنوبى وآثامى واكتشفت أنها كثيرة - كثيرة ، وأننى لا أطيق ، كيف تحولت إلى هذا الكائن الذى أرفضه ، كيف . . تدنست نفسى وصرت مثل الآخرين ، ماذا فعلت بى يا نفسى ؟! جريت وراء سراب ، وراء شهرة لم أنلها ووراء مال لم أعثر عليه ، وجريت . . جريت ، كنت ألهث

اندفع فجرا للصلاة وأجرى وأنا ألهث لكى ألحق بقطار المدينة من أجل المدرسة و ما من مدرسة هناك ، ألتهم الكتب كتابا وراء كتاب ، أتلوى بين الكتب والعمل والدراسة وغضب الآخرين ، أزووم مثل القط المسعور ، أريد أن أفعل شيئا مهمًا ، أن أكتب كتابا قيما كل هذه الأعوام ، وما فعلت ، وما حققت شيئا ، ياه . . . لقد غرقت فى الفساد ، وحتى هذا لم أستمتع به ، والآن وأنا أرقد مشلولا بالألم ينشطر قلبى من الحزن على نفسى ، تدمدم خلف النافذة ، وجرح فى الصدر ملىء بالميكروبات ، ولا أملك إلا أن أردد فى رجاء : الله . . الله . . .

قال خالى : يجب أن تجلس هنا فوق تل القمح .

قلت فى دهشة : ولماذا ؟

- هكذا ولا تتحرك .

شعرت بأن حبات القمح طرية وندية رغم حرارة الشمس، ورقدت فوقها مستلقيا على ظهرى ، ورأيت الشمس تبتسم، وسمعت حبات القمح تردد : الله .. الله فرحت ورحت أتمتم : الله . . الله . . حاولت أن أدس رأسى داخل تل القمح لكى أسمع جيدا ، كان صوتها عذبا وعصافير تغرد فوقى تقف على فرع شجرة بالقرب من (الجرن) ناديت على العصافير ووضعت بعض حبات القمح على كفى ، وجاءت العصافير ،

خالى و رجاله مشغولون يضعون القمح فى الأجولة و يكيلون ، الله واحد ، ملوش تانى . . حبات القمح تردد : الله . . الله . . العصافير تلتقط الحب و تفرد أجنحتها و تغرد : الله . . الله . . حملنى خالى و هو يقول :

- لابد من أنك جائع . . لقد أتعبناك .

قلت لجدتى (حليمة) أريد أرزا معمرا ، ابتسمت و قالت سيكون أمامك فى الحال ، لم يعجبنى ردها ، أسرعت إلى جدتى (ست أبوها) و طلبت منها الأرز المعمر ، قالت ها هو أمامك و أكلت قطعة واحدة و أخذت أخرى بيدى ، سمعتها تنادينى ، أعرف أنها تبحث عنى ، ناولتها قطعة الأرز أخذت تأكلها فى نشوة ، قلت لها :

- لماذا يفعلون بى ذلك ؟ لماذا يجعلونى أتكلم مع الأشياء ؟ اليوم تكلمت مع القمح .

رفعت قطتى رأسها و نظرت إلى عينى ، قطتى لها عين زرقاء و أخرى صفراء ، و قلت :

- هذا ما يحدث دائما مع القمح و الأرز و الفول . . . حتى السيدة التى تبيع الجميز .

انطلقت قطتى مهرولة ، ضحكت لأنها لم تفهم ، سوف تعود فى المساء لترقد بجوار رأسى حتى أنام و أسمعها و هى تنشد أغانيها فى العشق الإلهى . . وعشق الذات يبصرنى عن

ذاتى ! لاح ضوء الصبح ، أخيرا سوف تدور الحركة من حولى ، كيف حال المريض الوحيد، قالوا إنه فى المسرح الآن ، أخذت أدعو له ، حضرت ابنتى أخبرتنى بأن حالته جيدة ، قدمت لى شريحة من الفاكهة ، لا أقدر على البلع ، كم كنت اشتهى هذه الفاكهة ، أبى كان يعلم مدى حبى لها ؛ لهذا كان يحضرها لى كل مساء ، وكان يحرص على ذلك ، ولكن الآن لا أستطيع أن أتذوقها .

أخيرا. . حول الموظف المختص التليفزيون إلى محطة عربية وكانوا يذيعون الصلاة ، صلاة الجمعة من الكعبة المشرفة ، حاولت أن أنظر جيدا ، كانت الساعة العاشرة صباحا بتوقيت إنجلترا ، موعد الحمام اليومى و الكشف و الغيار أيضا ، لاحظت الممرضات أن كل المرضى مشغولون بمتابعة التليفزيون فسألتنى ما الأمر جميعكم ترفضون المقاطعة ؟ أشرت إلى الكعبة التى كانت فى وسط الصورة و قلت هذا هو السبب ، إنها صلاة الجمعة بمكة ، ابتسمت و ظلت تنظر ، تنقلت الكاميرا حول الكعبة و طافت حول الجالسين و هم ينصتون إلى خطبة الجمعة - قلت هذه هى قبلتنا و نحن جميعا نتخيل أننا هناك ، المصريون يحافظون على صلاة الجمعة ربما تخلف الكثيرون منهم عن متابعة الصلوات فى بقية الأيام ، أما صلاة الجمعة فإنها (طقس مقدس) لا يتركه صغير و لا كبير هكذا لاحظت ، حتى هنا فى

لندن ، لاحظت اهتمام المصريين بتأدية هذه الصلاة من الجمعة إلى الجمعة كفارة، سمعت هذا من شيخى و أنا طفل و سمعته من أبى كان يحرص على أداء صلاة الجمعة فى المسجد الكبير بالإضافة إلى حرصه على بقية الصلوات ، أبى تخرج فى مدرسة المعلمين التى كانت تؤهل حاملها لدخول مجال التدريس و لكنه رفض و فضل أعماله التجارية ، و مع هذا لا ينسى ما حفظه من قرآن و سنة وشريعة و أصول دين ، كان دوما ضد انفعال و تشنج خطباء الجمعة ، رغم أن خطيب المسجد و إمامه أحد أخوالى فقد كان متزمتا من وجهة نظر أبى - مازلت أسمع الأذان ، كما سمعته فى أكسفورد (يرن) فى أذنى بوضوح - حاولت أن أجد لهذا تفسيرا ، جاءت ابنتى و سعدت عندما رأتنى منهمكا فى متابعة صلاة الجمعة فى الكعبة ، قالت بعد الصلاة:

- مصطفى قد تم نقله إلى الدور الأول .

و هذا معناه تخطى حواجز العملية و ما يتبعها من عناية مركزة و غيرها ، و قالت إنه جائع ، ابتسمت ، و كان عندى فى الدولاب الكثير من الفاكهة و كنا أنا و ابنتى نوزعها على المرضى ومرافقيهم و أيضا السمرضات ، عندما جاءت الممرضة السوداء (ليلى) بعد أن عصفت بى فى ليلة سابقة ، قدمت لها (تمرا) نظرت إليه فى دهشة و قالت ما هذا ؟ كان صديقى فاروق قد أحضره لى من أحد المحلات بلندن ، و كان يأتينى منه الكثير ،

و رغم لهفتى عليه و حبى الشديد للتمر ، إلا أننى قد أصبت فى حلقى و لا أستطيع (البلع) لكل شىء حتى الماء لا أستطيع بلعه بسهولة ، لهذا كنت أحاول أن أتناول تمرة واحدة أو اثنتين بصعوبة ، و يبقى منه الكثير فلما أخذت (ليلى) السوداء تنظر إليه عجبا و كأنها لأول مرة قلت لها ضاحكا :

– لقد أرسلته لى أمى ، إننا نزرعه فى حقولنا .

قالت و هى تتأمله فى انبهار :

– أمك . . أرسلت لك هذا ؟ !

قلت – و قد لاحظت أنها تصدقنى ، لم تعد هناك فرصة للتراجع .

– بالطائرة و يوميا .

أخذت منى الطبق سعيدة به ، حفية به ، بعد قليل زارتنى ممرضات أخريات و دون أن يسألننى أعطيت كل واحدة منهن طبقا من التمر مؤكدا أنه وصلنى من أمى هذا الصباح بالطائرة .

و تعودت على ذلك و تعودن منى ذلك العطاء الغذائى ، كل يوم أعطيهن شيئا من الفاكهة أو اللحم أو الحلوى و أحيانا الخبز الذى يحضره لى أحد أصدقائى من المحلات العراقية أو اليونانية أو المصرية التى تبيع خبزا طازجا ، و لكنهم يضيفون عليه بعض التوابل أو الحبوب المعروفة فى الشرق ، فكن فى حالة انبهار دائم ، حتى أطباق اللحم كانت تصنعها ابنتى فى مسكنها

و لا أقدر على تناولها ، أقدمها لهن على أنها هدية من أمى التى صنعتها بنفسها فى بلدنا ، وكنت سعيدا بهذه اللعبة التى تخلصنى من طعام لا أريده و لا أقدر على أكله و سعيدا لأننى أرى على وجوههن الشره و الرغبة المجنونة فى التهام ما أقدمه لهن ، حتى أنه جىء لى بطعام سعودى لذيذ الطعم ذكرنى برحلاتى إلى السعودية ، و أيامى بها ، ولكنى لم أقدر على تناول إلا القليل منه ، فدفعت به إلى أول ممرضة قدمت نحوى التى سرعان ما دعت إليه زميلاتها فالتهمنه فى لحظات و هن مستمتعات غاية المتعة و شكرن أمى على طهوها الجيد و على إصرارها على إرسال كل هذا الطعام بأشكاله المختلفة و بالطائرة .

جاء (مصطفى) مستندا على ذراع ابنتى ، كان يرتدى منامة خاصة بى ، جلس على الفراش بجوارى و أخذ يحكى ، و يشكو و يقص ، عرفت منه كل شىء عن حياته منذ ولد و حتى جاء إلى هنا ، كيف عمل بالتعليم ، ثم تزوج وأنجب بنتا واحدة ، و كان بطلا رياضيا ، ثم سافر إلى ليبيا مكث فترة طويلة ثم قذفوا به إلى الطريق لم يتركوه إلا خارج الحدود دون ملابس و دون مال ، مستحقاته كثيرة ، و أشياء كثيرة أخذوها منه ، حتى (باكو شاى) الذى كان مستمسكا به لأنه يحب الشاى أخذوه و أذروه الرياح ، و عاد إلى الإسكندرية و بعد عامين بدأت رحلته

مع المرض وهذه هى الجراحة الثانية له بعد عامين فقط من الجراحة الأولى، وهو الآن لا يملك شيئا ، حاولت أن أجعله يكف عن الشكوى . . ظل (مصطفى) مركزا لأحاديث المرضى حتى رحل وعاد إلى وطنه ، أهدانى قبيل رحيله جلبابا أبيض كان قد اشتراه من مكة المكرمة ، فأخذته فرحا مستبشرا ، كان مثل الطفل فى كل شىء ، سريع الحركة ، كثير الحديث ، أخاف المرضى جميعا بتكراره إنه يجرى الجراحة الثانية بعد عامين فى نفس الموضع حتى أن طبيبا كبيرا كان يجلس ذات مرة بعد أن أجريت له الجراحة ، عندما سمعه ، اندفع إلى حجرته مستغيثا بالأطباء لأنه على وشك الموت ، وظل هذا الطبيب كلما أخرجوه من المستشفى لكمال الشفاء ، عاد مرة أخرى وهو يتألم ويشكو فيضطرون لإبقائه عدة أيام أخرى حتى تهدأ حالته ثم يخرج ولكنه يعود من جديد أكثر اضطرابا وأشد هياجا ؛ لأنه فى ظنه أنه لا يزال مريضا وفى حاجة إلى رعاية ، حتى اضطرت زوجته لإجباره على السفر والعودة إلى القاهرة ، وتكرر هذا مع الأطباء الذين زاملونى فى رحلة العلاج وكانوا مثل صاحبنا أكثر خوفا ، وهلعا ورعبا ، بينما كان مصطفى سكرتير المدرسة والرياضى السابق وطريد ليبيا يأكل بشراهة ، ولا يكف عن الدوران داخل وخارج المستشفى ، ولا يكف لسانه عن قص حكايته لكل مريض يصادفه حتى لو كان هذا

المريض هنديا أو يونانيا لا يفهم لغته المهم أن(يحكى) مصطفى كيف أن الحالة تعود من جديد و ها هو قد أجرى الجراحة للمرة الثانية .

و سمعت الأذان ، و صليت ، كان الظلام يسود خارج الغرفة كنت أخاف الظلام لا أذهب إلى حجرتى فى المساء إلا إذا تأكدت أن أمى قد أضاءت الحجرة ، كنا نستخدم (لمبات الجاز) التى كان يجب أن يعدوها للإضاءة كل يوم ، أما أخى فقد كان يسأل فقط ، مجرد سؤال ثم يذهب لينام لا ينتظر الرد ، إنما هو يسأل كما تعودت أنا أسأل ، و لكنى أسأل و أنتظر أن تصحبنى أمى أو جدتى ، و عندما يضعوننى فى الفراش كان الفراش فى العادة يغطى بغطاء كامل من الحرير المنقوش (ناموسية) تمنع دخول الحشرات ، الغطاء به رسومات لملائكة تحمل سهاما مثل تلك السهام التى رسمتها ليلى بجوار اسمى ، أحاول النوم - أمى تنام قبل نهاية (الحدوتة) ، أظل أناديها حتى أعرف ماذا فعل الشاطر حسن و لكن بلا فائدة ، يغلبنى النوم لحظات ، أصحو لأكتشف غياب أمى أو جدتى ، تحاصرنى الملائكة بسهامهم يتشاجرون ، يتعاركون ، يقتربون منى ، المعركة تشتد و أنا أنكمش فى فراشى خوفا و رعبا ، تحولت الملائكة إلى عالم متصارع من الإنس و الحيوان أصرخ رعبا يهاجمنى ثعبان ضخم ، أصحو مرعوبا ، أرى الوجوه من حولى

متوترة ، جدتى و قد أمسكت برأسى و دستها فى صدرها ، أبى الذى يقف حائرا ، أمى و قد وقفت ترتعد من القلق ، جدتى تقرأ القرآن ، تشير على أبى و أمى بالانصراف . . لماذا يا جدتى يأتى هذا الثعبان الضخم ؟! إنه دائما يهاجمنى كل ليلة ، هل هو حقيقة أم خيال ؟ الأسئلة لا تخرج من رأسى و لا أرددها على مسامع جدتى وأن أتكلم كثيرا ، و ظل الثعبان يهاجمنى . . و امرأة سمراء تمسك بى ، تقترب من حبل المشنقة ، أحس بالموت بالاختناق . . أصحو و لكن أعلم أننى شنقت ذات يوم مع أمى ، كانت أميرة سمراء - ولكن الملك أمر بإعدامنا ، لا أستطيع أن أقول أن هذه أضغاث أحلام أو مجرد وهم . . سمعت الباب و هو ينفتح بشدة و رجل أسود عملاق يتفحصنى شعرت بالخوف و لكنه قال فى ثقة :

- أنا سليمان ؟

قالها بلكنة إنجليزية ، بدت لى كلمة (سليمان) هذه و كأنها كلمة لا معنى لها ، قال إنه سوف يقوم بتركيب ماكينة الحقن الآلى وإنه يأسف للإزعاج ، كان دخوله المفاجئ و سرعة حركته قد تسببتا فى ارتباكى و لكن لا أستطيع أن أفعل له شيئا ، أيقظنى من أحلامى و من طفولتى ، أعادنى إلى الألم والحزن والمرارة ، راح يغير من وضع الأسلاك بآلية فظة ، كرهته ، اشتد الألم بصدرى و شعرت أن ذراعى يكاد ينفصل عن جسدى ، بدأت

أتقيأ ، لم يعبأ بى ظل يعمل فى تغيير أجهزة الماكينة و تركيب الأسلاك ، حاولت أن أنبهه إلى الألم الذى يغمرنى يردد كلمة آسف ، ملعونة هذه (الآسف) التى سمعتها هنا فى لندن مئات المرات فى اليوم الواحد عشرات الحقن خلاف الحقن الآلى ، بالإضافة إلى عملية تنظيف الجرح مرتين يوميا و ما تحدثه من ألم ينهك البقية الباقية من قواى . . انصرف سليمان ، و جاء نور الصبح و معه ممرضات الصباح ، الطعام كما هو و لابد من تغيير الفراش ، أوامر الممرضات كأنها أوامر للتدريب العسكرى يلقينها ثم ينهمكن فى حديث حول سهرة الأمس ، و أصناف الطعام و الملابس و مشاكل الرجال التى لا تنتهى - و أعرف أنهن غير متزوجات ، كل واحدة قصت على حياتها ، هذه قدمت هى و أختها و أمها من الصين ، و عشن هنا ، و عندما توفيت الأم ، بقيت هى وأختها ، لها صديق ، رجل يأتيها كل أسبوع ، يقضيان معا إجازة الأسبوع ، إنه رجلها و لكنهما غير متزوجين ، تضحك فى سخرية عندما أقول لها هذا حرام ، كيف تعاشرين رجلا بدون زواج ؟ قالت الأخرى : هذا أفضل من الزواج بامرة أخرى لم أفهم ، قالت موضحة :

- هذا القانون يسمح بزواج الرجل من الرجل و المرأة من المرأة ، حسنا يا سيدات ، الحرام يجب أن يتم وفقا للقواعد المركبة - لابد من زواج فى الكنيسة أما الحلال فهو مباح لا حذر

ولا خوف ، لا أحد يرغب فى الزواج ، إذا طالبته المرأة بالذهاب للزواج سوف يتركها ليجد من هى أصغر منها ، ليس له أن يتزوجها أو حتى يخلص لها ، المهم إنه يأتى مساء الجمعة تقضى معه أيام راحاتها الأسبوعية وعطلاتها السنوية ، ثم إن التكاليف يتحملانها سويا ، المتعة هى الأساس المشترك .

زملائى فى الفصل يتحدثون عن النساء ، لا فرق بين الممرضات فى أكسفورد أو فى (الأولد كورت) عن زملائى فى الفصل ، لم أسمع هذا فى (الفيروز) فى القاهرة ، البنات هناك متزوجات أو باحثات عن زوج ، أو شاكيات من الزواج .. (حنان) الممرضة تسكن بعيدا عن المستشفى ، تسكن منطقة القناطر ، زوجها يلتهم الطعام وحده ، الطعام الذى سهرت فى إعداده ؛ لأنها لا تعود إلا فى المساء ، ولكن هذا هو قدرها وزوجها ..(مادلينا) زوجة إنجليزية ، وزوجها رجل غامض لا تتحدث عنه كثيرا ، ولكن حديثها عن طعامها وحديقتها هو الحديث المفصل ، تناولت شريحة لحم وقطعة من الحلاوة المصرية ثم قالت :

- هل فعلا يأتيك هذا الطعام من عند أمك ؟

قلت ضاحكا:

- المهم أن أسمع رأيك .

قالت وهى تتذوق القطعة الأخيرة من الحلاوة الطحينية .

- رائع

ثم قالت باهتمام :

- هل أنتم أثرياء ؟

قلت فى كياسة :

الحمد لله .

رفعت رأسها بدهشة ولم تفهم وأعادت السؤال ، واضطررت إلى أن أجيب بنعم ، قالت وهى ترنو نحوى فى إعجاب :

- هذا يبدو واضحا من طعامكم ، كما أن ابنتك تنفق الكثير ، قلت وقد أعجبنى اللعب :

- لا أهمية للمال عندنا .

راحت تتلمظ وكأنها قطة تطلب المزيد ولكنى تظاهرت بالنوم ، أشعرتنى (لولا) بما يحدثه الفقر فى الإنسان وخاصة فى الغربة ، جرت فى رعب نحو الباب الخارجى بعد أن أخبروها بأن صديقها يسأل عنها ، وتركتنى فى الحمام غارقا فى الماء الساخن ومضت بسرعة ، وعندما جاءت قالت :

- إنه يريدنى أن أذهب معه إلى الريف.

قلت بجدية وتأثر ، لأنها صغيرة السن ، مقبولة الشكل ،

- يبدو إنكما سوف تتزوجان .

قالت بأسى :

– هذا الموضوع لا يجب أن أفاتحه فيه أبدا . . . . يكفينى أنه يأتى .

أمرتها أن تخرجنى من الماء الساخن ، وأن تلف تلك الأسلاك التى تشلنى وتفسد حركتى ، كنت مغتاظا ، إنها مجرد (بقرة) فى انتظار ذكرها كانوا يتحدثون هكذا فى فصلى فى مدرستى الثانوية التى لا تحمل إلا اسمها للدلالة على كونها مؤسسة تعليمية . . كانوا يتباهون بفحولتهم كيف يجعلون النساء تجرى خلفهم ، كل منهم له عشرات التجارب التى يحكيها كلما اجتمعنا بالمصادفة فى الفصل الدراسى ، وكانوا يتباهون فى وصف ماذا فعلوا ، وكنت أتقزز لأن ما يقولونه يثير لدى الإحساس بالبهيمية . ذات يوم كنت آخذ حماما ، كانوا فى العادة يتركوننى فى الحمام على أن تكون جدتى أو جدى أو إحدى سيدات الدار تقف خارجه لمعاونتى إذا أردت ، كنت أخجل من كل السيدات إلا جدتى التى أسمح لها بالدخول معى فى الحمام وأستمتع وهى تصب الماء الساخن على جسدى وتدلكنى بالصابون الخاص بى الذى لا يستخدمه سواى كما أمر أبى ، ولكن فى هذه المرة كانت جدتى مشغولة بضيوف من أهلها وكذلك بقية السيدات ، ووجدت نفسى وحدى فى الحمام حاولت أن أدلك جسدى بالصابون ، ولكنى شعرت ببعض الدوار ثم إحساس باللذة والمتعة يسرى فى أوصالى ، بعد قليل

لاحظت أن سائلا اندلق منى على شكل قطرات ، خرجت من الحمام مرتبكا ، بعدها عرفت بعض أسرار زملائى ، و لماذا تبدو اللهفة على وجوههم عندما يخططون لبعض الغزوات النسائية . .

أيقظتنى ابنتى ، لم أكن نائما ، كان الرجل يبدو طيبا ، يرتدى جلبابا اختلط الواقع بالخيال ، تقدم الرجل منى وأخذ يمسح على جسدى و هو يتلو بعض سور القرآن ، شعرت بالراحة ، لا أدرى ما إذا كان هذا حدث بالفعل أم فى الخيال ، و لكنى لم أحاول التفكير بجدية ، جلس بجوارى وأخذ يتحدث عن رحمة الله ، أراحنى حديثه، أخذ فى قراءة بعض سور القرآن الكريم و مضى . الزوار كثيرون و لكن أحيانا أفقد تركيز عقلى فى وجودهم، و مع هذا تفرح ابنتى بهم ، و تقدم لهم الحلوى أو الفاكهة . . تقدم شاب رقيق ، عرفت أنه يسكن بجوار مسكن ابنتى و أنهما أحيانا يأتيان معا إلى المستشفى . لم أعد أفرق بين مستشفى أكسفورد ومستشفى (الأولد كورت) - فقد تركت جسدى لألمه الشديد و حاولت أن أندس داخل أحلامى ، و لكن الأحلام تهرب منى ، لا أجدها -عندما دخلت الفصل و كنا فى السنة الثانية الثانوية قالوا : إن الناظر أغلق علينا باب غرفة الدراسة بالمفتاح ، أخذت أفكر . . هم دائما فى حاجة إلى عقلى وخططى ، أجسادهم الضخمة و أصواتهم الجهيرة

لا تتناسب و جسدى الصغير النحيل و صوتى الرفيع ، فكان يجب إيجاد ما يميزنى عنهم حتى لا أصبح مجرد صفر لا قيمة له إلا السخرية منه لهذا حاولت أن يكون عقلى هو سلاحى ، نظرت إلى نافذة الحجرة ، اكتشفت وجود ڤراندة خشبية تحملها أعمدة خشبية أيضا ، و كنا فى الدور الثانى من مبنى المدرسة الذى كان فى الماضى مجرد قصر لأحد الأثرياء ، حولوه إلى مدرسة أشرت إلى النافذة و اقترحت أن يهبطوا على أعمدة الڤراندة ، أسرعوا و بعد لحظات صرت وحدى فى الفصل حاولت أن أفعل مثلهم و لكنى خفت ، تملكنى الرعب و أنا أنظر إلى الأرض ، وجدتهم و قد التهموا كل عيدان الخس بحقل الناظر و عندما اندفع إلى غرفة الدراسة لم يجد سواى ، نظر من النافذة و صاح فى غضب :

- أكلوا زرعتى !

أسرع خارجا ، نظرت إلى أسفل لم أجد أحدا منهم ، حملت كتبى وخرجت لكى أبدأ رحلة القراءة اليومية !

دخل (بانديا) الطبيب الهندى ، قال : إن كل شىء الآن تحت السيطرة .

قلت : هل هناك علاج يعاوننى على رفع جسدى ، فقد بدأت أشعر بالشرود والدخول فى عالم الغيبوبة !

قال فى حسم :

- حارب ، كن محاربا مثل أجدادنا ، لم يكنوا يعرفون الدواء ، ولكنهم كانوا يحاربون .

قلت : وكيف أفعل هذا ؟ قال يجب أن تقتنع أنت بذلك .

- أحارب ، أحارب من ؟ وأحارب بماذا ؟ كيف يحارب البوسنة وليس لديهم سلاح ؟! كل دول أوربا تنظر إليهم وهم يذبحون فى الشوارع ، كيف حارب الهندى الأحمر أمام عصابات البيض المتعطشة للدم ؟ قتلوا أكثر من ستمائة مليون هندى ، كانوا من إنجلترا وغرب أوربا جاءوا بحثا عن الذهب ، قتلوا أصحاب الأرض ، لغة المسدس والبندقية لازالت هى السائدة عند اليهود ليبيدوا العرب ، كما فعل أجدادهم فى أمريكا وكما يفعلون فى البوسنة ، التليفزيون يهتم بموت سائحة هولندية فى أسوان ، تتكرر التعليقات ولكن لا تهتم بعزل القرى العربية فى فلسطين ، بقتل المئات فى المساجد والشوارع فى قرى فلسطين ، موت العربى والمسلم لا يهم أحدا إنما (ليالى ديانا الحمراء) هى الأهم ، كم رجلا مارست معه الحب يا مولاتى ؟ عشرات ، مئات ، لا يهم الرقم ، المهم أن الحب كان جارفا فلم تقاومه ، والصراحة أيضا ، وزوجك هو أيضا يفعل ذلك ، البحث عن الإثارة ، سواء فى الجنس ، وتبادل الزوجات والزواج من نفس النوع ، واشتهاء كل نساء العالم ، والبحث عن(الذكر) مهما كان شكله أو لونه أو جنسه ، لا يهم

إلا ممارسة الحب ، وإن كان الأفضل أن تكون الممارسة علنية فى الشوارع فى النوادى ، فإذا كانت فى البيوت فلا يجب أن نسكت عنها يجب عقد مؤتمر صحفى لشرح الوقائع وتصوير كيف تمت تلك الممارسة ، ما الفرق بين الكلاب والقطط و(الأميرة ديانا) ، وفعلة رجل يحرض تابعيه على أن يمارسوا الجنس كما يمارسه الحيوانات دون حياء ، ودون التقيد بزوجة من هذه بعد أن أسكرهم بخمر شربوه على أنه شراب المعرفة والوصل ؟ شربوا الخمر وما شعروا بأنفسهم إلا وهم يستيقظون فى الصباح وقد راحت (الخمرة) وبقيت الزوجات الحرائر مرتميات فى أحضان رجال غرباء ، وأسرعوا فى وجل وخزى ، ولكن سرعان ما اعتادوا هذا الأمر ، فقد أشبع لديهم غريزة القذارة الإنسانية التى تجعلهم يحسون بالمتعة من مجرد ممارسة الفعل غير الأخلاقى ولا أذكر كيف انتهى حال هذا الرجل ، وربما أتذكر كيف ، ولكن (إسماعيل) الموظف بالبريد ، والد الشاب المهندس الذى أراه كثيرا مع ابنتى ، جاء لزيارتى بعد أن طاب وشفى قليلا ، قال إنه أخذ أحد زملائه للكشف عند طبيب ، ولكن الطبيب قال له إنك أنت المريض وليس زميلك ، ومن يومها ومنذ عامين وهو يتردد على الأطباء . ولده الأكبر يعمل طبيبا ، لهذا أوصى أن يراه أكبر عدد من الأطباء ، وكل برأى ، هذا أجره ألف من الجنيهات وآخر

يأخذ الضعف ، لابد من أن تحدد اللجنة أحقيته فى العلاج بالخارج ، رجل طيب لا يحمل هما ، له أحفاد يتذكرهم على الدوام ، نجله المهندس من أصغر أولاده .. اضطر إلى أن يصحبه معه ، سافر كثيرا إلى بلاد أوربية فى رحلات عمل ، يجيد طهو الطعام وتدبير أموره ، ولكن ولده ليست لديه قدراته ، تمنى لى عاجل الشفاء ، ثم مضى رأيت الكثيرون هنا ، يرقدون فى الخوف ، ثم فى إعياء بعد الجراحة ثم يمضون إلى بلادهم ، أما أنا فقابع هنا فى السجن الانفرادى بالزنزانة رقم (١٦) .. أتحدث إليكم من الغرفة رقم ١٦ كان لى صوت جميل ، اشتركت فى أحاديث إذاعية كثيرة وجدت ابنتى شريطا بين طيات الملابس التى أحضرناها من القاهرة ، قالت إن أخى الصغير (عمرو) وضع هذا الشريط بطريقته الشقية ، أدرت الشريط وسمعت صوتى .. وجدته صوتا حسنا ، عندما سمعه الأطباء لم يصدقوا أن هذا صوتى بالفعل ، زارتنى اليوم سيدة أرملة مصرية قالت إن زوجها توفى العام الماضى وترك لها ولدين وراحت تتكلم ولا أدرى لماذا أفاضت فى الحديث عن أفلام الجنس ؟ التى تعرض فى التليفزيون خوفا على أولادها الذكور – كنت أعتقد أن التليفزيون الإنجليزى لا يعرض مثل هذه الأفلام ؛ إنه محافظ إلى حد ما وفقا لما أشاهده وأنا على فراشى ، خشيت على نفسى من التفكير فى هذا الأمر لماذا يصر

الجميع على الحديث عن الجنس بهذا الشكل الممل ؟! تظاهرت بالنوم ، كانت سيدة طيبة ... تذكرت حربى مع المرض ، جاءت و قالت : إنها أستاذة بالجامعة كانت خائفة فسوف يجرون لها الجراحة غدا ، قلت لابنتى رافقيها ، لم تكن تجيد الإنجليزية رغم كونها أستاذة بالجامعة ، تعبت حتى جاءت إلى هنا رغم ما تملكه أسرتها من نفوذ ، تحدثت عن أشقائها و أزواج شقيقاتها الجميع فى مناصب قيادية يملكون سلطات واسعة لهذا استطاعت أن تأتى إلى هنا ، يختلط لديها الخوف من الجراحة مع عدم حصولها على منصب رئيس القسم ، كانت فى مثل تخصصى العلمى ، و كانت تعتبرنى أستاذا لها ، كنا نتبادل كتب الدعاء ، العديد من الكتب يأتى بها الزوار و خاصة الباكستانيون ، دخل بانديا بعد انصراف الجميع لم يعد أحد بالغرفة سواى سألنى مرة أخرى .

- كيف ترى الأشياء ؟

جلس ، شعرت بأنه لم يحضر لرؤيتى بوصفه طبيبا ، إنما جاء الليلة كصديق ، أحببته كثيرا و فرحت بزيارته و لكن سؤاله صعب ، منذ أن عرفت طريق القراءة و أنا منهمك فيها أكرمنى الله بأن وفر لى مخزنا هائلا من الكتب ، مخزن يتجدد كل شهر و أحيانا أكثر من مرة فى الشهر الواحد (الفسخانى) الذى علمنى كان يشترى المكتبات من أصحابها ، مجرد كتب ، ورق لا لزوم

له عندهم ، قذارة يجب التخلص منها ، يجب القذف بها فى الخرابات و لكن الرجل يخلصهم منها و يدفع لهم أيضا بعض النقود ، و اكتشفت هذا الكنز مبكرا فكنت أقضى الساعات الطويلة واقفا على براميل السردين المملح ، فقط لكى أختار الكتب الصالحة للقراءة ثم أحملها إلى غرفتى بالدار أدفع له الثمن قروش قليلة لكل (أقة) من الورق أحيانا أعيدها لكى آخذ مقابلها الجديد من الكتب . خمس سنوات يا (بانديا) و أنا أفعل هذا ، لا أدرى كم كتابا قرأت ، و لا أحصى مواد تلك الكتب إنها فى العلوم و الفنون و الأدب كنت متلهفا على المعرفة ، يسعدنى أن أظل مع الكتاب طوال يومى و لا أشعر بالملل أحسد السجناء فى أماكنهم للتفرغ للقراءة ، أما أنا فيجب معاونة أبى فى العمل والذهاب إلى المدرسة و تناول الطعام . ساعدتنى المدرسة فى هذا الأمر فلم تكن الدراسة فى تلك المدرسة الثانوية منتظمة بحكم كونها مدرسة خاصة و لا يوجد بها مدرسون ، لهذا أعطتنى الفرصة لأتفرغ للقراءة بينما يظن أهلى أننى مشغول بحضور الدراسة ، بالإضافة إلى أن تلك السنوات كانت مضطربة سياسيا تخللتها قيام ثورة يوليو و ما صحبها من تغيرات و ما سبقها من مظاهرات كانت شبة يومية ، الحمد الله لقد منحنى الله الكثير من النعم لا أستطيع أن أحصيها ، قلت لبانديا .

– أنا أرى الأشياء بعكس ما يراها الناس

قال فى تمهل : كيف ؟

– قلت و أنا أحاول أن أتناسى كل الألم الذى أشعر به ، أستطيع هذا فأنا دائما منقسم على نفسى ، لى عوالم خاصة بى ، حتى لو حسبنى الناس غبيا ، فهذا لا يهمنى ، المهم ما أود أنا أن أفعله ، عندما تصديت لهوس منظمة الشباب و أنا أحد الذين شاركوا فى تأسيسها لم أخش أحدا كنت أعلم أنهم سوف يسجنوننى ، لم أخف من السجن أو حتى الشنق فهو خير على كل حال ، قلت لبانديا الهندى :

– كل شىء يحدث هو خير من عند الله ، المهم أن تراه أنت كذلك كنت . قد قرأت عن البوذية و الزرادشتية و عن فلسفة فرق الحشاشين و الصوفية والشيعة ، و عن فلسفة المهاتما غاندى الذى ظل يعمل وفقا لحكمة أنت غنى لأنك لست فى حاجة إلى الآخر ، أؤمن بأننا فى حاجة إلى الله ، إلى الإيمان به و التمسك بهذا الإيمان فى أجمل الأوقات أو فى أحلكها ، أنت مع الله فى كل شىء سوف يحدث بإرادته ، أردت أنت أم لم ترد ، فلماذا لا توافق على هذا وتسأله اللطف بك ؟ ما يحدث لك فهو خير ، قلت لجدتى : إن جدى سوف يموت بعد يوم ، و مات و أخبرت جدى من قبل عن الأشياء التى كان يفقدها ، كانوا يسألوننى فأجيب دون أن أدرى لماذا سألونى و لماذا أجبتهم ،

هذا يحدث و يتكرر ، جدتى تعلم هذا و تعلم أننى لا أنام مطلقا و أن حالتى صعبة ، تأثر بصرى بذلك وفقدته حينا ، حرمنى من الدراسة الجامعية فترة ، ولكن الله أنعم على بنعمة البصر مرة أخرى ، قال بانديا :-

- و كيف تذهب إلى مكان و أنت فى مكان ؟!

قلت فى استعطاف :

- سامحنى لن أبوح لك بشىء .

- قال فى هدوء :

- ولكن هذا ليس شيئا عجبا !

فى الصباح أحضرت ابنتى الفاكهة ، وقالت أنت تحب هذه الفاكهة .

قلت فى استبشار :

- بل تمنيتها .

راحت فى صبر تجهز لى حبات الفاكهة كما أرغب ، أشرت إليها أن شرائط التسجيل قد نفدت ، سألتنى ماذا تكتب يا أبى ، ابتسمت و هى تضع شريطا جديدا فى جهاز التسجيل الذى ينيب عنى فى نقل كل ما أخبرك به ، أو أخبر نفسى ، إننى أتسلى ، ولكن فى الوقت نفسه بى رغبة أن أقول كل شىء أو على الأقل ما علق بذهنى ، لا يهم إذا كان هذا سوف ينشر على الناس أم لا ، سعدوا به أم غضبوا تحدث عنه النقاد أم لم يتحدثوا كما هى

العادة ، أنا يا بانديا نبت محشور إذا تحدثوا عن المسرحية قالوا : أنت روائى ، وإذا تحدثوا عن الرواية قالوا أنت مسرحى ، وإذا تحدثوا عن القصة قالوا : أنت معدود من النقاد ، وإذا كنت فى قريتى قالوا :أنت من أهل البندر ، وإذا كنت فى البندر قالوا : أنت فلاح - إذا تحدثت بالعربية قالوا : أنت رجعى سلفى متخلف ، وإذا تحدثت بالإنجليزية قالوا : أنت تحاول أن تتعالى علينا . أنا محشور بين تروس لا ترحم ولكننى أتغابى أحاول ألا أشكو لكى أظل - على الأقل أمام نفسى - عزيز ، لا يهم ، ماذا يحدث لو تحدثوا عنك ؟ ومع هذا أنهيت دراستى الابتدائية وتخلفوا من حولى ، كذلك فى دراستى الثانوية وتخلفوا هم ، وفعلت هذا فى كل عمل اشتغلته كانوا يسرقون الأقلام من أمامى ثم يبيعونها لى ، عبيط ، سمعتها من أحدهم ، كانوا يجمعون بعض النقود للمشاركة فى مناسبة مختلفة وكنت أول من يدفع ولم تكن هناك مناسبة ، ومع هذا كنت أدفع لأن هذا يسعدهم ، يسعدهم أنهم استغلوا غبائى ربما أكون غبيا وأنا لا أدرى فلماذا أقف أمامهم فى محاولة لإقناعهم بأننى أفهم - على الأقل - مثلهم ، وأفهم ألاعيبهم ، إن هذا يسعدهم وكفانى أنا هذا الشرف ، فقد كنت سببا لإسعاد بعض الناس ، لا يهم المال ولا الأقلام ولا الأوراق ، تعودت على هذا ، هذا الجرّاح الذى استأصل عصب اليد اليمنى وأصابنى

بكل ما أنا فيه ، ماذا أفعل له ؟ لقد قذف بى إليه طبيب أستاذ صديق هذا الصديق كان يعرف أنه جراح محدود الخبرة ! و لماذا ؟ . . من أجل رحلة علمية إلى أوربا ، من أجل حفنة من نقود . . . . أم كان حسن النية و لم يقصد ؟

ربما - و لكن هذه المرة لا أستطيع التظاهر بالغباء ، فلعبة العلاج على نفقة الدولة مهما كان شكلها مجرد تجارة تدر مالا على الكثيرين ، أكتب هذا بعد مضى أكثر من شهرين متنقلا بين المستشفيات حتى يخيل إلىّ أن هذه المستشفيات أصبحت دارى التى يجب أن أسكن بها مقيما لا مارا بها ، ربما جعلنى هذا أرى الكثير و أتعامل مع الكثيرين ، و لا أدرى لماذا أكتب أو أسجل كل هذا ، إنما أردت أن أحارب بالسيف الذى حملته طوال عمرى ، أحارب نفسى أولا و أخيرا ؛ لهذا ربما يكون هذا البوح خارجًا عن تقاليد الكتابة الأدبية ، أو ربما يكون وفقها ، و لكنه بوح على حال يريحنى .

زارنى اليوم ثلاثة من الرجال ، ظلوا يتحدثون و كأننى غير موجود بالحجرة سألت ابنتى من هؤلاء ؟ قالت : لا أعرف يا أبى ، سألتهم من تكونون ؟ قال أكثرهم سمنة :

- آه ، أنت (بتاع أكسفورد) !

ماذا (بتاع) أكسفورد ؟! هل الأمر تحول إلى نكته ، أم إلى أمر ساخر أم ماذا ؟

من تكونون ؟ خرجوا و لم يجيبوا - عرفت بعد أن غادروا الغرفة أنهم لجنة من وزارة الصحة فى جولة (تسويقية) أقصد تفقدية ، ولكنهم لم يسمعوا منى شيئا ، و لم يحاولوا أن يتفحصوا تقارير حالتى ، لقد جاءوا و ذهبوا لم يستغرق وجودهم بالمستشفى إلا بضع دقائق ، كان بالمستشفى ما يقرب من عشرة أشخاص من مصر - عشرة مرضى يرقدون فى حالة يرثى لها ، فى أشد الحاجة إلى مجرد كلمة طيبة . . . أخبرنى مديرنا بمكتب الإشراف الطبى بأنهم لجنة قدمت من مصر فى مهمة عمل لبحث مشاكل العلاج على الطبيعة ، ربما كان يقصد طبيعة حديقة هايد بارك وما حولها من أسواق و محلات و أماكن عديدة أسمع أنها تأخذ وقتا طويلا من السائحين و العرب الذين غزوا لندن هذه الأيام . . . أما عم شنودة الذى يبكى خوفا و هلعا وتبكى زوجته من الحسرة لأنهما لا يملكان (المال المطلوب) ، و تبكى (محاسن) من قسوة الألم الذى يطبق على صدرها و لا تملك ابنتى إلا استدعاء (الدكتور بانديا) كل ساعة تقريبا ، كنت أكاد أجن من أجلها وأنا أتابع حالتها من ابنتى المشغولة الآن بخدمة كل هولاء المرضى من أهالينا ، إنهم فى أشد الحاجة إليها لكى تنقل و تترجم لهم أوامر الأطباء والممرضات و تخبرهم بما يطلبونه هى مثلهم ربما تفهم عنهم ما لا يفهمه هؤلاء الأجانب .

* * *

الفصل الرابع

يبدو أن الدهشة من صورتى التى انعكست فى المرآة ، جعلت ابنتى تجهل ملامحى ، ملامحى تبدو مثل تمثال قديم لرجل مات منذ زمن ، العينان غائرتان ، والشفاة مقلوبة ، تبدو الأسنان صفراء ، الذقن مثل الشوك ، حاولت ابنتى أن تبعدنى عن المرآة ، لكنى أردت أن أعرف نفسى ، اشتقت إلى صورتى وحشتنى ، صدرى به الكثير من الأشواك ، أتحسسها أشعر وكأنها مجدولة من الخوص أو القش ، يدى اليسرى ترتعش من ملمس القش ، يدى اليمنى لا أحس بها ، قطعوا يدى ، قالت ابنتى إنها أسلاك يا أبى ، خياطة فى الصدر بعد العملية الثانية ، لذلك أغلظوا الربط لهذا تشعر بالألم ، وعندما تأتى الكحة فإن الآلام تصبح فوق الاحتمال الآدمى ، والكحة لا تريد أن تخرج ، تصر الطبيبة ، ولكنى لا أستطيع ، تتوقف فى منتصف البلعوم ، لا تصل إلى الزور ، أضغط على قطعة القماش التى وضعوها على صدرى هكذا ، حاول ، الألم لا يطاق ، ولكن حاول أحاول ، أخيرا أبصق وأرتاح قليلا ، ليعاود الألم من جديد ، وأحاول من جديد ، ويصبح النجاح فى إخراج آثار الكحة نصرا كبيرا .

عندما قررت الذهاب إلى الجامعة ، سافر معى خالى و عمى وأبى ، قدمنا الأوراق ، وحددوا لنا موعدا للاختبار الطبى ، أشكو من نزيف متقطع من أنفى ، و صداع حاد ينتابى كل بضعة أيام ، يعالجنى أبى بوضع الثلج لكى يتوقف النزيف ، و أتناول جرعات من الأسبرين ، تحدد موعد الكشف الطبى ، و قررنا العودة إلى بلدتنا ، شعرت بالسعادة لأننى سوف أدرس بالجامعة ، وأصبح طبيبا ، قال الطبيب : حاول أن تشرب المزيد من السوائل ، و لكنى لا أستطيع ، أضع كوب الماء و ما يكاد الماء يدخل إلى فمى حتى أسعل و يضيق صدرى و لا أقدر على الشراب ، صاح الطبيب اشرب شايا ، أو مياه غازية المهم أشرب كمية كبيرة من السوائل حتى يمكن تعويض السائل المفقود ، دخل (عم شنوده) كان خائفا يرتعش ، العملية سوف تجرى له غدا ، و لكنه خائف ، أصر أبى على أن نصعد إلى الطبيب كانت عيادته فى عمارة بجوار موقف السيارات ، كانت لافتته مكتوبا عليها أنف و أذن و حنجرة و عيون - و لا أدرى كيف تجاور طب العيون مع الأنف و الأذن ، صعدنا السلالم إلى الدور الرابع كان أجرة الكشف جنيها كاملا . . ،

دخلنا ، الطبيب متقدم فى السن إلى حد كبير ، يرتدى قلنسوة من الجلد على رأسه ، يبدو عظيم الوجه بارزا ، لا يبتسم - نظر نحوى و أخذ يفحص أنفى ، سأل أبى عن صحة أجدادى

و أمراضهم ، انزعج أبى و ثار ، قال أنا أبوه و كما ترانى و هذا خاله و ذاك عمه و كل الأسرة هكذا ، أيضا جده لأمه و جده لأبيه ، نحن من سكان الجبل توارثنا القوة من أجدادنا و تصاعدت ثورة أبى حتى أمسك بخناق الطبيب و طالب برد الأجرة لأنه ليس طبيبا وإنما دجال ، حاول الرجل أن يشرح لأبى و لكن كان قد بلغ منه الغضب مبلغه ، لم تنفع معه توسلات خالى و لاعمى ، هبطنا إلى موقف السيارات و كنا فى حالة من الحزن و الكآبة حتى أننا لم نتكلم ، سرق هذا الرجل فرحتنا ، سجلت هذا الموقف فى إحدى قصصى لا أذكر الآن اسمها ، اقترح عمى أن نأكل كان أبى يحب الأسماك ، ها هو محل السمك ، دخلنا و أكلنا ، و عندما ركبنا السيارة اشترك كل الركاب فى حكايتى نصحنا بعضهم بالعلاج بالكى على يد أحد شيوخ القبائل ذهبنا إلى هناك ووضع شيخ القبيلة قطعًا من الخشب ملتهبة أسفل أنفى لسعتنى النار و صرخت ، جريت رعبا ، دخلت الجامعة و بعد شهر كنت قد فقدت بصرى تقريبا ، كان الأمر قاسيا ، درت مع أبى على الأطباء نصحوه بأن يأخذنى إلى البلدة و لا داعى للشهادة و بالتالى لا داعى للوظيفة ، منطق !

قال البروفيسير يعقوب : لماذا أجروا لك الجراحة ؟ ما كنت فى حاجة إليها ، كيف ؟ لقد قرر الأستاذ فى مصر أن الجراحة

مهمة وضرورية وكذلك قال الأستاذ فى مستشفى أكسفورد وأجرى لى جراحتين ، ثم تقول إنهما لم تكونا ضروريتان ، مجرد فأر للتجارب كل هذا الألم ودون مقابل ، قال (عم شنوده) إنه خائف ، كنت قد لمحته منذ أسبوع ، كان مثل الفأر الخائف فى المصيدة زوجته تكرر قصة مرضه تزيدها فى كل مرة ، يتأثر السامعون ، رجوت المستشار الطبى لسفارتنا أن يتدخل ، كانت زوجته قصيرة القامة حزينة إلى درجة الهوس ، لا تردد إلا كلمات اليأس .

اكتشفت أن المرضى يحيطون بى - سمعتهم ، وحمدت الله على أننى بدأت أشعر وأسمع وأحيانا أبتسم ، أردد بعض الكلمات ، تساعدنى ابنتى فى الحديث مع الآخرين تود أن تشركنى مع الآخرين حتى لا أظل هكذا مثل كيس مملوء بالألم . لم أكن دوما أتألم ، كنت فى ذكر الله ، أردد اسمه باستمرار أشعر بسعادة داخليه تهزنى وأنا أسبحه ، أبكى كلما طاف بذهنى إثما ارتكبته أو ذنبا لم أكن أقصد فعله ، بكيت كثيرا ، ظللت راقدا بمستشفى العيون فى باب اللوق - كل يوم يعطوننى حقنة فى العين ، داخل العين ، أبى ينفق الكثير ، وأنا غاضب وغير مستقر ، كلما خرجت وذهبت إلى حيث كنت أسكن فى حى شبرا بجوار عمى المقيم هناك ، عدت إلى المستشفى ثانية بعد مغامرة التوهان فى الشوارع لصعوبة الرؤية ولرفض المعاونة من

أحد ، قلت لأمى : إذا جاء أحد من أهلى ورأيت الشفقة و الأسف مرسومتين على وجهه سوف أرديه قتيلا فى الحال ، لا أريد شفقة، سوف أشفى بإذن الله حتى لو لم أشف ، سأصير كفيفا ، ومع هذا لن يعوقنى عن حقيقة هدفى، أنا يا أمى أريد أن أكون أديبا، طه حسين كان كفيفا ومع هذا أصبح عميد أدباء العرب وغيره كثيرون، تبتسم أمى و تدس فى فمى قطعة من صدر دجاجة ، أحاول أن أشرح لها ولكن أبى يحسم الأمر بدعوتنا للعودة إلى بلدتنا ، لا أحد بجوارى ، أظل أفكر كنت أود أن أكون عالما من علماء الكيمياء و هكذا كتبت فى استمارة الثانوية أو التوجيهية كما يسمونها ، كنت أسابق زملائى فى حل مسائل الكيمياء الصعبة و أيضا أسئلة الطبيعة ، كان أساتذة هذه المادة يطردوننى من الفصل لأننى أسألهم أسئلة لم يستعدوا لها ، كانوا يرددون : عندما تذهب إلى الجامعة سوف تعرف الإجابة ، كنت أبحث عن الإجابات فى الكتب التى أعثر عليها عند الفسخانى ، لهذا كنت أبكى بشدة و أنا راقد بمستشفى العيون بباب اللوق ، وعندما قرروا سفرى منذ أعوام لإجراء أول جراحة فى القلب ، كنت أردد أخيرا ليسدل الستار على كل الأحلام ، لم أعد عالما فى الكيمياء و لم أعد طبيبا ، و لم أعد - و هذا هو الأهم - أديبا ، و بمعاونة أحد زملائى فى الجامعة ، كنت أتمنى أن أذكر اسمه الآن و لكن اسمه هرب منى ، ساعدنى

فى تحويل أوراقى إلى كلية الآداب حيث تخرجت فيها بالفعل ، كان يقرأ لى الكتب و كنت أشرح له ما غمض عليه و نجحت فى السنة الأولى ، و تم بإذن الله شفاء بصرى ، و دخلت الجامعة لأول مرة طالبا فى السنة الثانية ، كانت الثورة قد أقامت سورا من الأسلاك الشائكة حول الجامعة إلى أعلى حتى يراها كل الجنود ، و داخل الجامعة كان الحديث يدور همسا عن أمجاد الجامعة فى السنوات السابقة قبل الثورة .

عم شنودة قبع فى حجرتى ساكنا ساكتا ، لا تزال امرأته تشكو . « حسنين » من المنصورة ذهب مع والده الطبيب فى الجامعة ، قالوا إنه فى حاجة إلى جراحة شرايين و يجب أن يسافر ، وافقت شركته على السفر دفعت المبالغ التى تحتاجها الجراحة و لكن لابد من إذن الحكومة ، العلاج على نفقة الشركة و لكن الإذن بالعلاج يجب أن يصدر من الحكومة ، ودار حول نفسه ، و حول الأطباء - و قضى ليلة معى فى حديث حول قصة سفره كيف ارتحل إلى العاصمة و قابل أساتذة القلب ، و دفع (الفزيتة) قالوا نفس الكلمات و لكنهم كانوا يدفعون به إلى غيرهم، جاءت به إلى (عائشة) ، مسلمة من بولندا تصلى بانتظام و محجبة ، تشفق على المرضى العرب و تقدم لهم كل معاونة ، شابة جميلة بيضاء ، و قلبها أبيض قالت إن مستر (حسنين) خائف ، يلوذ بى الخائفون . اللهم ساعدنى على

مساعدتهم . . يا حسنين ما بك ؟ قال تعبت ، كنت أشرب كل صباح كوبا من الحلبة بالحليب ثم أسير حتى مقر عملى ، إنه بعيد عن منزلى حيث أسكن فى إحدى القرى ، أنام بعد العشاء ، لا آكل إلا الجبن القريش قالوا انسداد فى الشريان ، يحول إلى القومسيون ، فاتتنى الجلسة ، حددوا جلسة أخرى نصحونى بالعرض على أستاذ للقلب ، ذهبت إليه كان ابنى الطبيب معى ، دفعنا مبلغا فوق طاقتى ، أرشدنا الأستاذ إلى أستاذ آخر ، كنا نسمع عن شهرة هذه الأسماء و كان ولدى الطبيب يقول إنهم الأفضل ودفعنا ، حتى الضريبة دفعناها ، سألته و ما الضريبة ؟ ابتسم لا أعرف ، إنهم يقولون لنا ادفعوا فإذا دفعنا قالوا ادفع الضريبة ، هأنذا بعد عامين هنا ، ربنا يستر ، كانوا قد تجمعوا حولى ، سمعت ما لا يطاق من قصص أطباء القلب الذين انتشروا فى كل الأقاليم كل منهم صنع لنفسه شهرة لا حدود لها ، و المرضى يدفعون لكى يدخلون إلى جلسة القومسيون ، الأوراق تحتاج إلى (أسطره) أو لإعادة تحاليل أو لرسم قلب و أشعة فوق بنفسجية ، و غير ذلك وعلى المريض أن يدور و يدور حكايات لا أقدر على تسجيلها ، مرضى من الإسماعيلية و الإسكندرية و الفيوم ، جاءوا بعد معاناة و مكابدة أرهقتهم ، سمعت أسماء أطباء مشاهير كانوا يظهرون على شاشة التلفزيون يبتسمون ويتكلمون عن الإنسانية و الرحمة ، و لكن إذا ما ذهبت

الإنسانية إليهم فإنهم مجرد تجار يبيعون المرض والوهم والكلمات المبهمة ، آلاف من أطباء القلب ، كنت أعرف بعضهم وأسمع عن البعض الآخر ، كليات الطب كثيرة ، وفى كل كلية قسم أمراض القلب ، وفى القسم الكثير من التخصصات ولكل تخصص أساتذة ، وهكذا نحن أمام غابة متشابكة من أطباء القلب ، وكل منهم يكتب أعلى التذكرة الطبية إنه أستاذ وزميل كافة المراكز العلمية فى روسيا والنمسا وألمانيا ولابد من ذكر إنجلترا وأمريكا وسوف تجد أيضا عدة أرقام تليفونات لعيادات ومراكز طبية ومستشفيات خاصة ، هكذا فهو دوما مشغول ، ولا وقت عنده ، لا أدرى كيف يذاكر ويدرس ويقوم بالتدريس ومراعاة مرضاه فى عيادته ومستشفياته ؟! ومع هذا عندما تدخل إليه تجده غاضبا ساخطا على الوضع فى جمهورية نيبال ، تكرر معى شخصيا هذا الأمر ، وكنت أشفق على نفسى وعلى المرضى الذين يجلسون فى ملل قاتل فى انتظار الدور ، ومع هذا فالأستاذ مشغول بمرض حماته أو بارتشاف القهوة وبعضهم يشغل نفسه بالتدخين ، وماذا يهم إنهم مرضى دفعوا المعلوم وسوف يتحملون ، لا أدرى لماذا نتحمل كل هذا الهوان ، نقع فى براثن كافة ألوان النصب والاحتيال ونتحمل .

(حسنين) دار عامين كاملين حتى أخذ موافقة اللجنة الطبية

الحكومية ثم دورة ثانية كاملة حتى يحصل على موافقة الحكومة ، وأخيرا ها هو يجلس بجوارى فى انتظار إجراء الجراحة مثله مثل كل المرضى الذين تحلقوا حولى الليلة الماضية ، و حكى كل منهم حكايته و حمدت الله أننى لم أتعذب هذا العذاب ، مؤسستى كانت عند حسن ظنى بها هذه نعمة من عند الله أنعم بها على ، الحمد لله ، لقد سمعت هذه الليلة كيف يكون الإنسان معلقا من قدميه فى انتظار قرار الحكومة ، إما أن يأتى قبل أن يلفظ أنفاسه وإما لا يأتى ، . دخلت الجامعة و أنا كاره ، فقد كنت أرغب فى دراسة الكيمياء على أن أعيش حياتى بعد ذلك فى عالم الآداب و الآن أنا فى كلية الآداب ، حضرت محاضرات (لطه حسين) و (لسهير القلماوى) و (لإبراهيم سلامة) و أيضا محاضرات (لتوفيق الطويل) و (يوسف مراد) . . كنت قد اخترت الدراسات الاجتماعية ، بعيدا عن الآداب حتى يكون هناك فرق بين ما أدرسه و ما أنوى عمله ، مقدمة ابن خلدون كنت قد درستها و أنا فى المرحلة الثانوية خلال رحلة القراءة الممتعة ، معظم ما ندرسه بالسنة الثانية بالكلية كنت قد قرأته أصبحت طالبا مشاغبا ، الدراسة فى المدارس السابقة علمتنى ألا أكون تلميذا منتظما ، حاولت أن أنشغل بعيدا عن المحاضرات المملة و المكررة و التى لا تفيدنى ، معظم ما يقوله الأساتذة ليس فيه جديد . صحبنى زميل إلى سور الأزبكية ، لم أكن قد رأيته على

الرغم من أننى كنت أحضر إلى العاصمة مع أبى كثيرا ، وكنا أنا وهو نجول جولات حرة بشوارع وأحياء القاهرة ، ولكنى لم أكن قد رأيت سور الأزبكية هذه (النعمة الكبرى) التى أنعم الله بها على أهل القاهرة . . . ياه كل هذه الكتب ، وقفت مشدوها لاحظ زميلى ذلك ، أرشدنى إلى أحد الأكشاك ، حاولت اختيار الكتب ولكن هناك الآلاف من الكتب التى جذبتنى . بدأت أعرف الأسعار ، فوق طاقتى ماذا أفعل ؟ ولكن فجأة وأنا غارق فى بحر الدهشة والخجل وقلة الحيلة ، جاءنى صوته من خلفى ، تعارفنا ، جارى فى حارة القرية ، انقطع عن الدراسة واشتغل تاجرا للكتب هنا فى سور الأزبكية ، قال : خذ ما شئت ، عقدت معه اتفاقا : أن آخذ قدر طاقتى ثم أعود إليه لأرد له ما انتهيت من قراءته وأدفع ثمن ما أود الاحتفاظ به ، لم نختلف حول الثمن كان عرضه سخيا وكريما وحرص على أن ينال رضائى ، شكرته واشتريت مجموعة الكتب التى قررت الاحتفاظ بها ، وأخذت مثلها على سبيل الإعارة إلى حين ، وهكذا عوضنى الله خيرا عن دكان الفسخانى ، وهأنذا عرفت طريقا جديدا سهلا ومعقولا للقراءة وهكذا امتدت صداقتى (ببكر) وهذا هو اسمه ، ظل صديقى لزمن طويل حتى وضعت الحكومة نهاية مأساوية لسور الأزبكية ، كما وافقت على سفرى إلى هنا ، إلى أكسفورد حيث أجروا لى عدة جراحات كانت سببا فى رقادى

الطويل هنا، أرى الممرضات تتغير نوبات عملهن - كل واحدة لها طابعها و مزاجها و طريقة معاملتها للمريض ، أصبحت صاحب بيت ، لا داعى للقلق ، إنهم قادمون ، الحمام يمكن أن يتأخر ساعة لا يهم - يأتون إلى حجرتى لكى يقصون علىّ ماذا فعلن فى بيوتهن ، هذه أقامت وليمة ليلة السبت ، و هذه ذهبت لمشاهدة البالية ، أما تلك فقد نامت يومين كاملين ، إنها تشعر بأنها سوف تموت و هى تجرى ، إنها فعلا تجرى دائما ، سريعة الحركة قلت لها (ياسو) يجب أن تتمهلى قليلا ، قالت فى حزن : الحياة قصيرة . جاءنى الدكتور بانديا ، قلت : لقد غبت عنى يومين كاملين . قال : وأنت أيضا ، وحشتنى ، أخذ يتفحصنى بعناية فائقة ثم قال لقد اطلعت على نتائج التحاليل و هى مبشرة إلى حد ما .

قلت : هل آن أوان العودة ، ابتسم و قال لا تفكر فى هذا الأمر الآن على الأقل ، صرخت على طفلى محمد . . لماذا لاتنادينى يا محمد ؟! لماذا لا تقول عد يا أبى ؟! كانوا يقفون على عتبة باب المستشفى و أنا أدخل إلى عربة الإسعاف ، أجلسونى بعد أن وضعوا كمامة الأوكسچين نظرت إليهم من النافذة كانوا يرنون نحوى فى صمت ، عمرو و محمد و مى ، خلفهم تقف زوجتى ، لا يتحركون و لا يلوحون ، كانوا فى صمت التماثيل الحزينة . اندفعت سيارة الإسعاف ، حاولت أن

أستدير لأشير إليهم ، أن ألوح لهم ، ولكنهم ظلوا هكذا ، واقفون فى صمت ، ارتسمت الصورة فى ذهنى لا تريد أن تغادرها ، أضع السماعة على أذنى ، صوتى حبيس ، لا صوت لى ، أريد أن أسمع أصواتهم - تحدثوا قولوا أى شىء ولكن لا فائدة إنهم أيضا فى حاجة إلى سماع صوتى ، أضع السماعة أشعر بالحزن يعتصر قلبى ، أين صوتى ؟ وأين ذراعى الأيمن ؟ أين أولادى ؟ أريد أن أراهم ، أسمع أزيز الطائرات ، اغمض عينى وأتخيل النيل والبحر والماء والشوارع والأشجار وحقول البرسيم وولدى وهو يجرى نحوى ، . . ياه لقد غلبنى الخوف - البكاء يريحنى أحيانا ويرهقنى أحيانا كثيرة ، جاءت (چيسى) وقالت سوف يضعون لك (كانة) جديدة ولكن هذه المرة فى الرقبة ، قلت وهل تؤلم ، قالت : هل أنت الذى يسأل هذا السؤال ؟! كل هذا وتسأل عن الألم ؟! ابتسمت نعم كل هذا لا يكفى حتى أعرف أن الألم له حدود يجب ألا يتجاوزها ، وأنا تجاوزت الألم والألم تجاوزنى ، أصبحنا أصدقاء ، مرحبا بالألم ، ودفعوا بى إلى طبيب معتوه ، هل كانوا يعرفون عنه شيئا ، أم لم يكنوا يعرفون ؟ الأستاذ الذى أرسلنى ، كان صديقا ، تعاملت معه أكثر من عشرين عاما ، هل عقد صفقة من ورائى ؟ لماذا هذا الطبيب بالذات ؟ ولماذا أخبرنى الپروفيسير بأننى لم أكن فى حاجة إلى جراحة جديدة ؟! . . . هل هذا

ظلم ، أم إنه عدل ، لا شك إنه عدل من الله حتى أعذب فى الدنيا و أدفع ثمن أفعالى السيئة و ما أكثرها ، و أبكى و أنا أتذكر شريط حياتى ورغبتى المحمومة - فى الحياة ، كنت أعمل وكأننى فى سباق مع الزمن ، لا نوم . . مجرد إغفاءة لا تزيد عن خمس دقائق يتخللها ثلاثة أحلام مزعجة (كوابيس) ثم أصحو لكى أواصل العمل ، الماء ذلك المشروب الجميل ، يا سلام - كم أهفو إلى ابتلاع زجاجة كاملة من الماء العذب ، و خاصة إذا كان من ماء النيل ، لونه أبيض صافٍ به حبات من الثلج ، كنت أضع (القلة) أعلى فمى و أدعها تدلق الماء فى رشفات سريعة ، و أحيانا يتدفق الماء منها و أنا أشرب و أرتوى ، أحلم بأن أمسك الكوب و أشربه دفعة واحدة ، ولكنى الآن لا أستطيع يستحثنى الطبيب . . اشرب بقدر الإمكان ، اشرب ماء أو مياهًا غازية أو شايا ولكن حلقى مصاب ، ما أكاد أضع جرعة ماء أو أشرب فى فمى حتى يستعصى على بلعه وتأتى الكحة ، وأشعر بالألم فى صدرى و حلقى ، ينسكب الماء من فمى على ملابسى ، أريد أن أرتوى ، ما أحلى تلك الأيام التى مضت ! كنت أجرى و ألعب ، حقيقة أنا ألعب مثل الأطفال ، فقط كنت أعمل مع أبى - لا وقت للعب أو الراحة حتى إذما انتهى العمل - و هذا نادرا ما يحدث - كنت أسرع نحو كتبى ، ماذا حدث ؟! شبكة من أطباء القلب ، لامعين مشهورين ،

يبرقون مثل الإشارة الموضوعة على أكتاف و صدور خريجى الكلية الحربية ، أرى هذا المشهد الآن على شاشة التليفزيون تحت ضوء الشمس كل ما يرتديه الخريجون يلمع ، يبرق ، أزرار الجاكتات ، و إشارات التفوق تزهو تحت الشمس ، هكذا أطباء القلب عندنا ، لهم بريق ، مرضى مكدسون فى صالات الانتظار المظلمة ذات المقاعد الجلدية القديمة ، و مجلات متهرئة ، و يطول الانتظار ، ثم لا شىء ، تحاليل ، أشعات ، فحوص، مناظير ، تليفزيونات و كاميرات تصوير، و عليك أن تدفع تكاليف كل هذا ولا شىء يدون فى الدفاتر ، مجرد عدد محدود لزوم الضرائب ، و تخلع ملابسك و لابد لك من أن تخلعها لأنك سوف تبيعها ، إن لم تفعل سيقومون هم ببيعها ، و دفعونى إلى هناك قالوا هذا عالم جليل ، و لما قابلته كان مثل لاعبى كرة السلة فى طولهم ، و مثل لاعبى المصارعة فى ضخامة جثته ، صوته جهورى قال : مرحبا سوف أجرى لك جراحة كبيرة ثم بعدها سوف تقضى معى الصيف فى مصيفى الخاص ، أريدك أن تقوم بنشر تفاصيل العملية الكبيرة ، عرفت أنه على علم بمهنتى لهذا جاء يرحب بى ، و أدخلونى إلى (التياترو) وهناك رأيت أن السماء حمراء و بيضاء و صفراء . . و رأيت كيف يتضاءل هذا الطبيب حتى تحول إلى ضفدع صغير . . . . . .

ولدى الحبيب محمد . . توا يا حبيبى رأيتك تقف بجوارى .

و سقطت فى وهدة الألم ، و لم أستطع المقاومة . . لا أريد أن أتحدث ، ماذا فعلت لى كل الحكايات التى حكيتها ؟ لا شىء غير الألم ، لماذا أتعب نفسى كى أسلى هذا القارئ المجهول ؟ كل شىء إلى زوال .

* * *

الفصل الخامس

منّ الله علىّ فى الأيام الماضية ، و استجاب - بإذنه تعالى و قدرته سبحانه - أن أكون بالقرب من نوره، أردد اسمه ، و أجهش بالبكاء وأنا أدعو . . « يا رب » أعلم أنك بجوارى ، و أن هذه الحجرة على ضيقها تتسع لك و لحضرتك سبحانك ، أنت بجوار عبدك المريض ، أنت موجود بجوارى فى مكان ما حيث لا يحدك مكان أو زمان لأنك أنت خالق الزمان و منشئ المكان ، أنت الأول والآخر ، وتعلم وحدك مكانك وزمانك ، كل الخلائق تسبح باسمك وحمدك، ولا شىء يحدث إلا بإرادتك ، يا الله . . . . يا الله . . . . أشعر بأن روحى ترفرف فى سماء ألوهية ، أشعر بقربك وقرب رحمتك . أردد اسمك ، فى الليل وأنا وحدى فى غرفتى المعزولة . . . . لا أحد يسمعنى إلا أنت . . أنت الله ، ولا شىء هناك إلا وجودك ونور وجودك ، وأنا عبدك وحبيبك و أنادى اسمك الأعظم . . . . الله !

ربما أكون قد فقدت نصف عقلى ، أو لعله كل عقلى ، ولكننى - بعونك - لم أفقد إيمانى بك فأنت المعين المنان ، وأنت العافى ولا شفاء بغير إذنك .

ضعوا محاليلكم ، ضخوا الدماء والأدوية ، اخلعوا عظام

صدرى ، افتحوا الجرح ، و دعوه يتدفق دما ، فلا شىء يؤلم ، أنا فى حضرة الخلاق ، فى حضرة الذات الإلهية .

أجلس وحيدا هامسا إلى آلة التسجيل . . قالوا لى حارب ، و هأنذا أحارب ، عدتى فى الحرب دعائى ، ودرعى إيمانى ، و شفائى ترديد اسمه سبحانه .

أعجز عن الكتابة . . . . ياه . . بعد كل هذا العمر أعجز عن الكتابة ؟! كل تلك الصفحات التى سودتها ثم لا أستطيع الإمساك بالقلم ! يدى اليمنى قد أصابها العطب . . أنظر إلى حوائط الغرفة البيضاء ، ثم أنظر إلى يدى وهى راقدة على الوسادة .

مر زمن طويل وأنا راقد هنا ، ولكننى اليوم رأيت ابنى محمدا ، هفت نفسى إليه . . اشتقت إلى تقبيل وجهه . . كانوا يعلمون أننى أهفو إلى إنجاب طفل وأسميه محمدا ، تبكى العين كلما رددت اسم الرسول الكريم ، ولكن شاء الله أن أنجب طفلا وأسميه (عمرو) سألونى . . . كنا نظن أنك سوف تسميه - كما ظللت تحلم - باسم الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه لم أرد . . كنت أعرف أن الأمر لم يصدر بعد . وعندما حملت زوجتى للمرة الثانية رأيته - ﷺ - فى نومى ، وقلت إن كان ولدا سوف يحمل اسمك ، ولكنه لم يرد - ﷺ - ومضى ، وفى المرة الثانية لم يرد أيضا ، ولكننى سمعت صوتا يردد ، أبشر

بمريم ، وعرفت أنها أنثى ، ولما وضعتها زوجتى ، كان الشوق إلى اسم محمد يكابدنى ويأخذ بنفسى ، وكان الهاتف يردد مريم ، ماذا أفعل ؟! . . قلت فلتكن (مى) ، حرف الميم من محمد ومريم حرف الياء من مريم ، وشاء الله وما شاء كان ، وأتى (محمد) ، جاءنى الأمر بأن يكون الاسم محمدا ، وجاء (محمد) ، وفرحت . وهاجرت إلى مسجد رسول الله - ﷺ - وهناك رقدت بجوار القبر الشريف ، ثم اعتمرت وطفت بالكعبة ، و مكثت هناك وحدى فى ظلال الكعبة المشرفة ، لا شىء يعادل عندى رؤية الكعبة المشرفة . . لاشىء على الإطلاق . . تهفو نفسى إليها ، أشد الرحال بإذنه تعالى و أجلس بجوارها ، لا تعب هناك و لا مرض . . أول مرة منذ عشرات السنين ، كان الحر شديدا و كنت عائدا من سويسرا و كان الحر يفح صهدا لم أعهده حتى أن أنفى ظل مسدودا لا أستطيع التنفس ، كان الزحام شديدا و الضوضاء أشد ، لم أتعود على المكان . . و شعرت بالألم يعتصرنى ، كيف لم أحب الكعبة ؟! تألمت لأن حبى لم يكن كما توقعت . و سافرت إلى المدينة ، و هناك شعرت بالراحة و مكثت شهرا ، كنت أجرى مثل الأطفال و أنا أتوجه إلى مسجد الرسول فى المدينة ، كنت أندس بين المصلين فى الروضة الشريفة ، و لما حان موعد العودة أجبرانى عليها ، زوجتى وسائقى ، حملانى حملا حتى ركبت الطائرة ،

ولكن ما كاد العام ينصرم حتى هزنى الحنين إليها ، وأسرعت بشوق لا حدود له إليها وهأنذا أدخل حرمها وأهلل وأكبر سعيدا منتشيا ، لم أعد أرى زحاما ، لم أعد أشعر بالحر ولا بالصهد ، لم أعد أحس إلا بالشوق يهزنى ، أتطلع إليها ، أطوف حولها ، أشرب ماء زمزم ، أصلى ، أتمنى أن أظل بجوارها ، دخلت الكعبة إلى صدرى وقلبى وكيانى فلم أعد أراها ، فقط أستشعر جلال الله ، وأنا جالس قبالتها ، وفى كل عام ، وعندما يشتد بى الشوق أهاجر إليها ، لأراها فى منامى وصحوى .

عندما كنت أرقد هنا منذ أعوام ثلاثة ، ظللت بها زمنا حتى أفاقنى أخى بعد انتهاء فترة الإنعاش ، أما هذه المرة فلم أذهب رغم أننى كنت توا عائدا من هناك ، ولكننى دخلت (التياترو) ودخلت دوامة الجراحات وقد استعصيت على الكعبة فلم أرها فى صحوى أو فى منامى ، وحاولت استحضارها فلم أستطع ، حتى رأيت ابنى محمدا يقف أمامى ذلك الصباح يبتسم . قلت : يا بشراى . . . .هذا فأل حسن . . واستبشرت خيرا ، وجدته كما عهدته أبيض الوجه تشوبه حمرة خفيفة ، صامتا لا يتكلم .

قلت له : يا محمد ألا تنادى على أبيك ، ألا تقول له تعال يا أبى ، وحشتنى يا كبد الفؤاد .

يقولون عنى إننى كسول متأنف ، ويزعجوننى بالنصائح . . . قف ، تمالك نفسك ، حارب ، لابد من أن

تحارب فى معركتك ، يجب أن تثابر ، يجب أن تشرب ، تأكل ، تمشى ، تتحرك ، لماذا تعتمد على غيرك ؟ اعتمد على نفسك ، أحاول وأحاول ولكننى أفشل ، أنهد راقدا ، عقلى يدور مثل ساقية خربة ، يدور ويدور ولا شىء ، ويختفى ولدى محمد ، أين ذهب ؟ أجلس مستكينا ، جاء أبى بشعره الأبيض وقامته مرفوعة مفرودة نظر نحوى بعطف .. يبدو أنه يعاتبنى على ضعفى ، أشعر بالخجل ، يختفى ، لا أرى أحدا ، تسود الظلمة المكان ، تأتى ابنتى وتنير المكان ، أخبرها بأن محمدا كان هنا ، لا تبدو عليها الدهشة ، تبتسم وتصدق ، كيف أشك أنا وهى تصدقنى ، إذن فقد كان هنا .

أسألها فى صراحة . . . وأين كنت عندما شاهدتيه ؟ تقول فى ثقة :

معهم على التليفون ، قالوا إنهم بخير وإنهم أكلوا حلاوة المولد وإن محمدًا لعب كثيرا حتى نام بين أحضان أمه الحاجة ، تقصد أمها هى ذى ، أبتسم أحملق فى وجهها إنها تشبه شقيقها الصغير ، عاشت معى محنة المرض .

قالوا : لابد من أن تأكل ، ولكننى لا أقدر .. وضعوا الطعام فى فمى ، لا رغبة لى ، ولا أستطيع البلع ، حلقى يؤلمنى ، اتهمونى بعدم الرغبة فى الشفاء ، فالطعام معناه الشفاء ، وأنا لا أريد طعاما ، أرسلوا الطباخ إلى حجرتى ،

سألنى عن الطعام الذى أفضله . . قلت إنه منذ أربعة أعوام و أنا لا آأكل إلا (الكوسة) المسلوقة و الزبادى ، قال : حسنا لدينا أنواع كثيرة من الزبادى ، قالت ابنتى : (اصنع لأبى أرزا باللبن) وحاولت أن تشرح له الطريقة ، جاء فى اليوم التالى سعيدا وهو يحمل طبقا من هذا الأرز باللبن حاولت أن آكله و لكننى لم أستطع ، قال : أجرب صنفا آخر . .

إنه لا يعرف إلا طعام المستشفى وبعض أنواع من الطعام الهندى ، قلت : فلنجرب الطعام الهندى .

قال بانديا : إن التحسن يتم بصعوبة و نحتاج إلى وقت طويل .

زارنى البروفيسير وقال :أمامك أسابيع أخرى ، قلت محتجا : ألا تنتهى هذه الأسابيع الممدودة ؟! فى كل مرة تكرر هذا ، ابتسم وقال : ما باليد حيلة ، كان يتكلم بالعربية و مساعدوه من حوله صامتون ، يحاول أن يكون لطيفا و أحاول أنا . . . أستسلم ، (عائشة) جاءت بمواعيد الصلاة هذا الأسبوع ، و الفتاة السعودية تبدو قلقة فقد جاءت من مستشفى (الهيرفليد) و هى حزينة . . لم يقولوا لها متى ينقلون إليها قلبا جديدا و رئتين ! تتصور أنها جاءت إلى لندن لكى يضعوا لها قلبا و رئتين ثم تعود إلى أسرتها ، إنها صغيرة السن إلى حد كبير ، تزوجت منذ عامين ، كانت تلعب مع البنات فى الساحة و كانت

تجرى و تقفز و تنط و تكنس و تنظف الدار ثم قالوا لها سوف تتزوجين ، والدها دس المهر فى جيبه خمسين ألفا من الريالات ، و قام زوجها بتكاليف الفرح و الزفاف و أهداها و أمها ذهبا ، ثم ساقوها إلى داره ، كانت دار أسرته فى نفس القرية ، زوجها لا يكبرها كثيرا ، يعمل بأحد المصانع بالقرب من الرياض ، فجأة شعرت بالتعب و ألم فى الصدر ، نقلها الطبيب إلى الرياض ، و هناك وضعوها فى مستشفى كبيرة ، قالوا: إنها فى حاجة إلى قلب ورئتين ، ومن يومها وهى تحلم بهذا الأمر - لعلها تعود و تلعب فى الساحة كما كانت ، نقلوها إلى لندن بعد عامين من المعاناة داخل المستشفى الكبيرة بالرياض ، قال البروفيسير : سنحاول بإذن الله . شعرت بالأمل من جديد ، و لكن يبدو أنه أمل ضعيف لأنهم لم يحددوا بعد موعد العملية ، قلت لها : الصبر ، ابتسمت فى وهن ، كانت تأتى إلى حجرتى تجلس على مقعد تحدثنى ثم تمضى ، صغيرة كطفلة فى التاسعة ، لا أصدق أنها زوجة ومنذ عامين ! زوجها يأتى و يدخن بشراهة شديدة ، يتحدث هو الآخر عن عملية نقل القلب ، ثم يمضى إلى مسكنه ، دائما تفوح منه رائحة دخان السجائر ، يهتم كثيرا بما يتقاضاه من سفارتهم . . يقول إنه من أسرة فقيرة و إنهم فى حاجة إلى راتبه ، و يخشى أن ينقطع هذا الراتب .

من أين جاء بالمهر الكبير الذى دفعه لوالد زوجته ؟! بالتقسيط هكذا . . يشترى سيارة من شركة السيارات بالتقسيط بضمان راتبه ثم يبيعها نقدا لأحد أثرياء قريته و من ثمنها يدفع المهر وثمن الذهب و لوازم الأفراح و العرس ، ثم يسدد ثمن السيارة . . أشفقت عليه ، سألتها : هل يفعل هذا كل العرسان ؟ قالت : نعم . قلت : و يأخذ الأب كل المهر لنفسه ، قالت : نعم ، كنت أفكر فى زواج ابنتى الثانية بعد أن انتهيت بصعوبة من زواج الأولى ، ونفد المال من يدى و جيبى ، قلت لها : عندى ثلاث بنات . قالت - فى جدية شديدة : يابختك ، إنك تأخذ مهورهن كلها و تصبح ثريا ، ابتسمت فى وهن و شعرت بأن الألم يزداد . . لقد دفعت كل ما أملك لزواج ابنتى ، و هأنذا أحمل هم الثانية فما بالك بالثالثة ! الله وحده هو المعين ، مضت إلى غرفتها ، شعرت بأنهم جاءوا مرة أخرى لكى يجروا لى جراحة أخرى . . لابد من الاستغراق فى الصلاة والابتعاد عن هذا العالم .

وقفت فى الجمع المحتشد بالميدان ، الذى كانت تحده بعض المبانى الحجرية المغطاة بخوص النخيل . . وجدتنى أقف على جزع نخلة أخطب فى الناس . . كنت متحمسا ينتفض جسدى فى غضب - سيفى كان ثقيلا و لكنى كنت ألوح به فى غيظ . . رجال غلاظ يتحلقون حولى ، وجوه غاضبة زادتها

وحشية ، رمال الصحراء الصفراء التى علقت بذقونهم وملابسهم، أشاح بعضهم فى ضيق ، ونفر البعض الآخر يود قتلى ، كيف تقول إن رسول الله قد مات ؟! محمد لم يمت ، صرخ بعض الرجال سود الوجوه ، هويت بسيفى فتفرق القوم . . صحت : سوف نبايع (أبا بكر) خليفة لرسول الله ، كما بايع أهل المدينة ، ازداد الأمر سوءا وحاول بعضهم قتلى . . تماسكت ، تحلق حولى فى دائرة أولاد عمومتى . . أشهروا سيوفهم فى غضب ، انكمش القوم ، وراحوا يجادلون : نظن أنه لن يموت أبدا ، عندما أسلمنا كنا نحتمى به ، فكيف تقول إنه مات ؟ القافلة التى حملت إلينا الخبر لم يأت غيرها ، كيف نتأكد ونحن على مبعدة كبيرة من المدينة ، إنها مسافة تزيد عن أيام الشهر كاملة على ظهور الإبل . . أشرت إلى (عبد الله) ابن عمى ، فتقدم وخطبهم ولكن (جلف) حذيفة صاح غاضبا : لا تقل إن محمدًا قد مات وإلا ، والله لأقتلنك كما قتلت الكفار فى بنى النضير . ، يحاول أن يظهر أنه فارس مغوار اشترك فى غزوات رسول الله . أقسمت أن نبايع أبا بكر الساعة ، ومن لم يبايع يخرج من ديارنا فقد خالف الجماعة . . قال (حسان) ابن خالتى : أقول لكم ما قاله (أبو بكر) من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . . . وأنا أقول ، من يعتقد غير ذلك فقد كفر وأحل دمه.

تراجعوا ، ولكن البعض استمسك بأنه إذا كان محمد قد

مات كما أقول فلنعد إلى ما كنا عليه قبل مجيئه ، وهذه فرصة لن ندفع الزكاة بعد اليوم وكل ما نملكه لنا وحدنا . واشتد العراك والصراخ ، ولكننى ما تراجعت إنها ثورة ضدى ولكنى لن أستسلم ، سأقوم بما يحب أن أقوم به ، لقد عرفت الخبر وعرفت أن الإسلام لا يموت وأنه دين بنى آدم حتى يوم القيامة .. وتأتى الرسل وتذهب .. وشعرت بالإرهاق ، ولكنى لم أستسلم .

لا أدرى إذا كانت هذه الحادثة قد حدثت معى بالفعل أو لم تحدث .. ومن أنا ومن هؤلاء ؟ ولماذا أردت ذكر هذه الحكاية ؟ لا أدرى ، ليس عندى تفسير .. ربما فقدت عقلى ، أو نصف عقلى .. ربما دارت بى الدنيا دورة فإذا أنا بها من ألف عام ويزيد ، ربما لم تحدث وهى محض خيال ، انفض الناس من حولى وشعرت ببعض الراحة . جاءت سيدة وقالت فى حياء :

- أتسمح لنا بالجلوس معك ؟

نظرت فإذا بها تبدو أليفة الوجه . جلست بجوار الفراش وجلس شقيقها بعد أن أعلمنى بهذا ، إنها أستاذة بالجامعة ، جامعة الأزهر ، وقد جاءت لإجراء جراحة ، وهى خائفة . قلت باسما :

- المؤمن لا يخاف أبدا ..

ابتسمت وتمتمت بالشهادتين ، قال شقيقها إنه وكيل وزارة ، وإنه ترك أولاده لكى يرعى الدكتورة شقيقته وقد سمع عنى لهذا فهما يلوذان بى . . قدمت ابنتى لهما بعض الفاكهة . . شعرت بالسعادة والرجل يقضى على محتويات الطبق ، أحسست بالرضا وكأننى أنا الذى أكلت الفاكهة . . كان مضطربا وكانت خائفة . . . إنها أستاذة علم اجتماع .

ابتسمت وتذكرت كيف اخترت هذا القسم فى كلية الآداب وتذكرت زملائى وزميلاتى ، . . . . نقلت سكنى من حى شبرا بجوار عمى إلى الدقى وسكنت مع آخرين . . كنا فى كليات مختلفة – ابن العمدة فى الحقوق لا يريد أن يستكمل دراسته ، يحب شرب الجوزة بشراهة شديدة ، يتغيب من أجلها عن البيت والجامعة لكى يجلس فى مقهى فقير يقدم (المصرى) وهو اسم ذلك الدخان الذى يعشقه الفلاحون ، لا يتحدث كثيرا ويشكو من الهزال . . (عبد الستار) يدرس التاريخ ولا يشبع إلا إذا أكل سبعة أرغفة فى الوجبة الواحدة ، ضاحك السن ، مقبل على الحياة ، يزاملنى فى الذهاب إلى الجامعة . . (حسن) فى الزراعة أكبرنا سنا ، يقوم لنا بمقام الأخ الأكبر . . فهو الذى يطهو الطعام ، ويشرف على المنزل . . معه شقيقه الأصغر الذى يدرس هو الآخر . أحاول أنا أكون زعيما . . اكتشفت فشلى فى الأعمال المنزلية ، خشيت أن يضطهدونى من

أجل ذلك ، بدأت ألعب معهم لعبة القائد الذى يلقى بالأوامر كل لحظة رغم أننى أصغرهم سنا وحجما ، ولكنهم أسرعوا فى تنفيذ أوامرى ، وتعودت أن أتزعمهم وتعودوا هم الطاعة ، ولكننى شعرت بأن لدى من وقت الفراغ الكثير ، لهذا أخذت فى البحث عن عمل.. كنت طالبا مواظبا ، ومشاغبا أيضا، أحاول أن أعيش حياة الجامعة كما تخيلتها ولكن الجامعة فى ذلك الوقت كانت قد تحولت إلى جامعة مستأنسة ليس لها علاقة بالعالم المحيط ... المحاضرات وبعض الأنشطة القليلة .. حاولت أن أجد لنفسى مكانا فى فريق التمثيل وتقدمت (لفؤاد المهندس) الذى أعطانى دورا هامشيا لعبته ولكننى لم أتحمس.. حاولت أن أرتبط بالنشاط الأدبى ، ولكن لغتى لم تتفق مع بلاغة وفصاحة زملائى ، شعرت بأننى دون مستوى الجامعة وأننى لا أطيق التعليم المنتظم ، ولولا ارتباطى بصداقة بعض الزملاء لتركت الجامعة غير آسف .. ولكن هأنذا ألتحق بالمصادفة - بعمل فى (دار التحرير) التى كانت تصدر جريدة (الجمهورية) .. وفجأة وجدتنى موظفا بها أتقاضى راتبا كبيرا مثل بقية زملائى فى العمل .. بل إننى أخذت مكافأة تعد رقما قياسيا فى ذلك الوقت عندما (كتبت) أول إعلان لشركة (الإعلانات الشرقية) . وقمت بتصميمه . ووجدتنى فجأة أقابل (طه حسين) و(يوسف السباعى) و(لويس عوض)

و (الشرقاوى) وكوكبة من الأدباء ، لم أكن قد قرأت لهم من قبل . . ، كنت قد قرأت كل ما وصل إلى يدى من الراويات العالمية سواء فى لغته أم مترجما ، كما قرأت من المسرحيات والأعمال الإبداعية الأخرى الكثير . . وعرفت (چوركى) و (تولستوى) و (هوجو) و (موليير) و (شكسبير) و (سومرست موم) وكنت معجبا به إعجابا خاصا لا أدرى لماذا ؟ وقرأت الكثير من كتب التراث العربى سواء نثرا أم شعرا ، ومع ذلك كانت لغتى غير جيدة . . وعندما أحاول الكتابة أشعر بأننى لست فى بلاغة هؤلاء . . حاولت تأليف رواية وأنا فى السنة الثانية الثانوية وتحمس لها أصدقاء الحارة فى بلدتنا وكتبوها فى كراساتهم وتبادلوها وعندما كبرت وجدتها وقد مزقها أخى وحولها إلى ورق يبيع فيه الفلفل الأسود فى دكانه . . وضحكت لأننى كنت أتصور أنها أعظم رواية فى العالم ، وبالطبع لم تكن كذلك ، فقد انكشفت أوراقى عندما بدأ احتكاكى بالأدباء الكبار ، وانكشفت رداءة لغتى عندما حاولت الاشتراك فى نشاط الأسرة الأدبية بالجامعة ، وانصرفت إلى عملى بدار التحرير . . فى البداية اشتغلت عاما مصمما للإعلانات ، وهو عمل فنى بالدرجة الأولى ويحتاج إلى قدرة على الابتكار ، ولم أكن أعرف شيئا عن هذا المجال ولكنى حاولت أن أتعلم من زملائى ، فعندما أمرنى رئيسى بأن أصمم

إعلانا (١٥ على عامودين) ، لم أكن أعرف ما هو (العامود ولا البنط ولا الكور) وهى مصطلحات بسيطة مفهومة لدى العاملين فى مجال الصحافة والطباعة ، وأسرعت أراقب زملائى وأتعلم ، لذلك لم أكن أغضب عندما يسرقون منى الأقلام أو يجبروننى على أن أدفع ثمن طعامهم وأتظاهر أننى مغلوب على أمرى .. وقد علمتنى الحياة العملية وأنا فى تلك السن المبكرة فقد كنت صغيرا بكل المقاييس سواء فى العمل أم فى الجامعة ، تعلمت أن أتظاهر بالغباء أو العبط ، أعطيهم فرصة لاستغلالى أو لاستغلال غبائى وسذاجتى ، وهم يسعدون بذلك، وأنا أستفيد . وقد حقق لى ذلك نجاحى فى الدراسة بدرجة مشرفة ونجاحى فى العمل أيضا بدرجة ممتازة ، حتى أننى انتقلت إلى عمل جديد أفضل سكرتير التحرير ومن حقى الكتابة أيضا ، وفى الجامعة انتقلت إلى السنة الثالثة طالبا مشهورا محبوبا .. بيتى مثل دوار العمدة بعد أن أخذت سكنا مستقلا فى أعلى (ڤيلا) صغيرة بمنطقة العجوزة وكان ذلك يعطينى الفرصة لاستضافة أكبر عدد من الطلاب من مختلف الاتجاهات . لأول مرة أعرف ماذا تعنى الشيوعية المصرية ومن هم أقطابها ، ولماذا اشتركوا فى الثورة .. كنت من قبل على دراية بأعمال (الإخوان المسلمين) ، وقد ذهبت مرارا إلى دارهم فى الحلمية معجبا بهم ، ولهذا لم أدهش عندما اجتمع

فى مسكنى عدد منهم و خاصة بعد أن قضى عليهم عبد الناصر الذى أحبه جدا ، أرى فيه زعيم مصر المخلص ، لهذا سارعت بالاشتراك فى الحرس الوطنى . و كانت لى - مثل بعض طلاب الجامعة - أدوار لا تصل إلى الفعل الإيجابى و لم تتعد مظاهر الاشتراك فى حرب السويس ، و لكن الأهم أننى تدربت تدريبا عسكريا عنيفا و كنت على وشك السفر إلى بورسعيد، وقد وقع لى فى تلك الفترة حادث غريب ، فبعد أن انصرف أصدقائى وصرت وحدى فى مسكنى، فإذا بطارق يطرق الباب ، و عندما فتحته وجدته شابا نحيفا يبدو عليه الإرهاق و التعب كأنه كان مسافرا و جاء سيرا على الأقدام ورحبت به ، و اعتقدت أنه زميل جاء متأخرا عن موعد جلسة الأصدقاء ، كان الليل قد انتصف ، جلس و هو يلتفت حو له يتفحص المكان . . . أخذت فى عمل الشاى ، قدمته له مع بعض الطعام الخفيف ، شرب و أكل و هو صامت ، وقد يبدو مرهقا .

قلت :

- أتريد أن تنام للصباح ؟

لأول مرة أسمع صوته .

قال : هذا مسكنى .

قلت فى دهشة : كيف ؟

قال : كل شىء هنا يخصنى ، وهذه شقتى .

لم أرد كنت مشفقا عليه . قال و قد شعر بأننى غير مقتنع :

– كنت فى السنة الرابعة بكلية العلوم وكان امتحانى النهائى فى اليوم التالى عندما أخذونى من هنا ، و قضيت كل تلك المدة فى المعتقل ، لا أدرى لماذا ؟ و اليوم أخرجونى فعدت إلى بيتى !

قلت و قد صدقته :

– لك ما تريد ، لقد استأجرتها منذ عام من صاحب البيت ، و يمكننى تركها لك فى الصباح إن كان هذا ما تريد .

نظر نحوى و قال :

– لا . . اسمح لى فقط بقضاء الليل هنا ، و فى الصباح سوف أسافر إلى أهلى .

قلت : بإذن الله ، سوف أرحل مع فرقتى إلى منطقة قريبة من بور سعيد .

قال : أنا أيضا سأحاول دخول بور سعيد فهناك أهلى .

شعرت بتعاطف جارف نحوه . . أحضرت له المزيد من الطعام ، أخبرته بأن أسرتى كانت فى بور سعيد و أن أبى ولد هناك ، وجدى كان يعمل هناك و أنا مسافر كفرد فى قوات المقاومة فى بور سعيد . . . ابتسم و قال :

– عندما يعود السلام ، سوف أعود إليك ، و أحاول استكمال امتحان البكالوريوس.

وسافر ، و سافرت ، و لم نلتق حتى الآن ، لا أدرى ماذا

أفعل - لماذا اعتقلوه ليلة الامتحان ، بعدها عرفت معنى الاعتقال ، و عرفت الكثير من آلام الاعتقال .

كان بانديا يجرى جراحة فى عنقى لإدخال محقن للدواء داخل العروق الداخلية بعد أن هربت العروق الخارجية ، كان الألم حادا ، والدكتور بانديا وجرّاح آخر يحاولان ، قالوا إن هذه جراحة بسيطة و إن كانت مؤلمة ، ولكنها مهمة حتى يمكن استمرار الحقن .. تناسيت ما يفعلانه ، تذكرت ذلك البورسعيدى الذى قبض عليه ، و ابتسمت .. لقد تكرر لى الحادث نفسه بالطريقة نفسها .. كنت قد استأجرت مسكنا بمنطقة ميدان التحرير ، كان المسكن صغيرا ولكنه جميل و قريب من مكان عملى و قد أثثته بأثاث جميل ، عندما كنت فى السنة الرابعة ، كنت يومها أعمل محررا بالعديد من الصحف و طالبا بالجامعة و أيضا مشرفا ليليا على دار للأحداث، مكلفا بعمل دراسة عن الأحداث لزوم دراستى لليسانس .. هكذا كلفنا رئيس القسم الذى لم يكن مؤمنا بالامتحانات بشكلها التقليدى ، .... كنت جالسا أحاول أن أنهى موضوعا صحفيا ، وأيضا أفكر فى عمل استمارة (الاستبيان) الخاصة بالبحث . سمعت طرقا على الباب و أسرعت لأفتحه كنت أظن أن زميلا فى الجريدة جاء يأخذ ما كتبت ، فإذا برجل فى أواسط العمر يدخل و ينظر إلى المكان متفحصا ثم قال:

- كيف حصلت على هذه الشقة .

قلت فى هدوء :- تفضل أولا ، اشرب هذا الشاى حتى أفرغ من عملى ، فأنا كما ترى مهموما بالعمل .

جلس و شرب الشاى وحكى لى أن هذه شقته ، و أنه اضطر للسفر إلى إنجلترا بعد أن فشل فى عمله كروائى و خاف أن يقتل نفسه مثل زميله الذى كان قبله و مات بعد روايته الأولى و هو الآن يريد مسكنه .. وسمعته و أنا أنهى ما بدأت من عمل ، ثم وقفت و قلت :

- آسف عندى عمل ، الشقة ينازعنى عليها صاحب البيت اشتريتها من أخيه بموافقة من أخيك أنت ، و دفعت كل ما كان معى من مال ، فإذا انتهت مشكلتى مع صاحب البيت يمكنك استردادها على أن تدفع لى ما سبق أن دفعته .. أما رواية زميلك الذى انتحر فها هى ذى نسخة منها .

قال سعيدا : و هو كذلك ، سوف أقاتل و أحارب صاحب البيت هذا حتى يكف عن مطالبه .. قلت فى حزم :

- وأنا عند اتفاقى معك ، تكون الشقة لك .

وانصرف سعيدا ، و انصرفت إلى عملى ، أو أعمالى ، كنت بمجرد انتهاء محاضراتى فى الجامعة أذهب إلى المجلة ومن هناك إلى مسكنى لأستريح وأراجع ما فعلت ، ثم أسرع نحو المؤسسة . و هناك أظل طوال الليل ، أحاول أن أحارب

طواحين الهواء أو الفساد أو الكسل أو الغش أو كل ذلك معا ، إنها صورة لكل أنواع الفساد فى الجهاز الوظيفى الذى تحول فيه قلة من العاملين إلى ديدان تنخر فيه و تفسد ثمره ، فقد كانت تلك المؤسسة - وفقا للمفهوم العام الذى من أجله أقيمت - تعمل على رعاية وتربية (الأحداث) ، وهم الأطفال و الفتيان تحت السن القانونية ، الذين يرتكبون جرائم يعاقب عليها القانون (قانون الأحداث) أضعفها التسول وبيع السلع التافهة والسرقة وأغلظها القتل أو الشروع فيه و المساعدة فى بيع المخدرات . . و تحاول المؤسسة - بناء على حكم المحكمة - أن تبقى هذا الحدث بعيدا عن المجتمع إلى حين تعديل سلوكه ، تؤهله تربويا ونفسيا و اجتماعيا و مهنيا للحياة الاجتماعية من جديد ، لذلك كانت بالمؤسسة مدارس وورش صناعية يعمل بها مدرسون ومدربون و أيضا مشرفون اجتماعيون . . وكان عملى كمساعد للمشرف الاجتماعى ، فلم يكن كافيا أن أتسلم (العدد) كاملا لأسلمه كما هو فى الصباح ، بل و أن أشرف على هدوء المكان ليلا ، كانت مكافأتى نصف مكافأة الإخصائى المؤهل و قد رضيت بهذا العمل رغم ما أحصل عليه من الجريدة من راتب جيد لأننى كنت قد نويت أن أجعل تخصصى العلمى فى هذا المجال وبالفعل بدأت فى الاستعداد العملى ، فوافقت على العمل مشرفا ليليا رغم إرهاق هذا العمل الذى يحرمنى النوم فى

بيتى ، وأخذت أنقب عن طبيعة جرائم هؤلاء الأحداث ، وأصنفها ، وأناقش أصحابها وأتعرف بشكل شخصى ومباشر على مشاكل هؤلاء الصغار ، خاصة أن عمرى كان يقترب من أعمارهم .

دار الرجل صاحب الشقة ، أو الذى ادعى ملكيته لشقتى ، حاول مع صاحب البيت ، كان يخبرنى بما يفعله وأنا صامت ، فى النهاية وبعد فترة جاء ليخبرنى بأنه وقع فى حبائل ذكائى اكتشف موقفه ، وهو ينسحب وقال :

- أنت أذكى رجل قابلته فى حياتى !

ضحكت ، وعندما انصرف حاولت أن أفهم لماذا قال هذا؟ كنت فعلا على استعداد لتسليمه الشقة إذما نجحت فى التغلب على مطالبة صاحب العمارة بطردى - حاول هو أن يدخل طرفا فى النزاع فلم أمانع ، لكن يبدو أنه اكتشف أن صاحب البيت لا يريده أيضا ، وهكذا أحس أنه مهزوم وأننى السبب فى ذلك ، وغاب عنى ولم أكن أعرف أنه بالفعل روائى مبدع إلا بعد أن قرأت عنه بعد ذلك بأعوام مقالا فى جريدة إنجليزية .

انتهت الجراحة وركبوا فى رقبتى عدة أجهزة ، ثم بدأ الحقن ، وأخبرنى الدكتور بانديا أنهم سينقلون لى دما جديدا ، وأن هناك محاولة لمحاصرة التلوث داخل الدم وأنه يجب أن

أساعدهم بأن أشرب أكبر كمية من السوائل وأن أحاول تناول ما يقدم لى من طعام ، جاء فاروق محملا كعادته بكميات من الفاكهة : تمر ، وجوافة ، وتفاح ، وأشياء أخرى ، عندما حضرت إحدى الممرضات أعطيتها بعض التمر والجوافة ، سألتنى من أين ؟ قلت : لقد أرسلتها لى أمى من بلدتنا ، قالت فى دهشة : وهل عندكم مثل هذه الفاكهة ؟ استغرقت فى التمثيل وشرحت لها أن هذه الفاكهة قد تم زراعتها فى مزرعتنا وأن أمى ترسل لى يوميا أنواعا كثيرة ، أقبلت الممرضات ووزعت عليهن ما أحضره (زميلى فاروق) ، التهمنه فى سعادة ، لا أدرى إذا ماكن قد صدقن أن هذه الفاكهة من عند أمى بالفعل وقد أرسلتها بالطائرة ، أم أنهن تظاهرن بذلك ، الأمر عندى سيان ، فقد كنت فى حاجة إلى التخلص من الفاكهة وأيضا فى محاولة للتقرب إليهن ، عندما يقضى الإنسان وقتا طويلا فى المستشفى يصبح واحدا من المجموع داخل المستشفى ، واحدا منهم وليس مجرد زائر ، ويعرف عنهم الكثير ، أطفال الحكيمة (ميرا) وابن السستر چيسى الذى يدرس الكمبيوتر ، وهموم (سو) فى البحث عن رجل تعاشره ، وغضب (مارى) من زوجها ، وأسرار صديقة (ليلى) وكيف ترعاها كما ترعى ولديها ، وتسعد وتنسى ما كانت تفعله عندما أسألها عن (المهندس) وهو ابنها الذى دخل كلية الهندسة ،

فهى تسعد لأننى أطلق عليه لقب المهندس من الآن . . يبدو أنهم يحاولون تغيير نمط العلاج فقد بدأ جسدى يتلون بلون أحمر شديد الحمرة ، وأسرعوا لإخبار البروفيسير الذى جاء وأبدى عدة ملاحظات ولم يحاول إخبارى بشىء هذه المرة ، كانت أطرافى قد اكتست بلون أحمر . واصل بانديا دفعى إلى القتال وترك مايحدث حولى يسير دون أن أفكر فيه ، وتحدث عن (البوذية) ، قال : إن الإنسان خير بطبعه لهذا يجب أن يفكر فى الخير .

فى المؤسسة ، تفاقمت المشاكل بينى وبين المديرة ، كانت سيدة فوق الخمسين ، تبدو شرسة وخاصة عندما تقابلنى ، إسماعيل أفندى يتباهى بأنه يعمل فى هذه المؤسسة منذ (الأميرة فريال) ، أيامها كانت ملجأ وكان هو الرجل الأول ، أما الآن فهو مجرد (معاون) ، ودائما يعترض على هؤلاء الذين تسميهم الوزارة (بتوع الشئون الاجتماعية) لأنهم لا يفعلون شيئا ويتكلمون كثيرا عن (الأولاد) بأنهم (غلابة) ، ولأنى كنت منهم ولكن على حد قوله مجرد (صبى مشرف اجتماعى) فقد كان يتحدث معى بصراحة : الأولاد هنا لا يحتاجون إلا للكرباج أوللعصا على الأقل وأنهم لا شىء وأن زملائى الكبار لا يصلحون لهذا العمل وخاصة الست المديرة ، كان إسماعيل أفندى يبيع طعام (الأولاد) لأهالى الحى ، بخمسة وعشرين

قرشا ، وكان يتعامل مع المتعهد بشكل يسمح للمتعهد بتوريد طعام فاسد و غير كاف ، وشكوت ، ولكن لا فائدة ، هددونى بالطرد ، شكوت و معى عينات الطعام لكى أثبت ما يورده المتعهد ، وأيضا على نقص الكميات الموردة ، بالإضافة إلى بيع ما يطهى منه إلى الأهالى ، ولكن راحوا يهددوننى من جديد بأننى أتدخل فيما لا يعنينى ، مشكلتى أننى أحببت عملى ، و صارت الصداقة والمودة تربطنى بهؤلاء (الأحداث) أعرفهم معرفة تامة ، بالاسم ، و سبب دخولهم و ما يودون عمله ، حتى التصقوا بى و صاروا يصارحوننى بكل همومهم لذلك حاربت من أجلهم ، فقد كنت أقف حتى يتم دخولهم الحمام للاستحمام كما تنص اللائحة ويتم تغيير ملابسهم و الحصول على حصص كافية من الصابون والمناشف والملابس النظيفة ، والحق أقول إن اللائحة الداخلية ترعى مشاعر هؤلاء الأحداث ، كما توفر لهم كل الاحتياجات الصحية ، وكذلك فى التغذية أو التعليم أو التدريب . . لكن الشر نابع من الذين يشرفون على التنفيذ . . فهم لا يراعون الله . . فالصابون لا يتم توزيعه وتتم سرقته ، وكذلك فى بقية الأشياء حتى الطعام . . والويل لهم إذا ما اشتكوا أو تأففوا ، فإن العقاب موجود ، لهذا أعترف أننى كنت أقوم معهم (بسرقة) مخازن المتعهد ، و نأخذ ما نحتاجه من كل شىء ، يأكل الأولاد ويشبعون ، و يحصلون على كافة

احتياجاتهم ، ثم نغلق المخازن كما كانت ، هذا عمل سيئ إلا أننى اضطرت إليه ، ماذا أفعل أمام أطفال و فتيان جوعى ؟ كل أسبوع نسطو على مخزن المتعهد و نحاول أن نأخذ دون أن نحدث تلفا ، وأسمع أنا شكوى المتعهد ، و لكن لا دليل على السرقة ، المفتاح معه و نسخة أخرى مع (إسماعيل أفندى) فمن يا ترى سرق من ؟! من السارق و من المسروق ، و هما قد تآلفا وانسجما وأصبحا رفقاء ، يسعدنى أن أستمع إلى الأولاد كل فرد منهم و أدون كل ما يقوله ، و لكننى اكتشفت أن الأغلبية دخلوا هذه المؤسسة دون ذنب و لا جريمة سوى أنهم فقراء من أسر فقيرة ، الزوج ترك زوجته بعد أن أنجبت دستة من العيال ، وداهمته الأمراض و قلة الحيلة فتركهم ، تنصحها الجارة بأن تأخذ طفلا لتربيه الحكومة ، و تأخذه إلى الشرطة حيث تحرر له محضرا بأنه سرق منها أوانى المطبخ ، و تكرر منه ذلك ، فلا تملك الشرطة إلا تقديمه إلى المحكمة وهناك ترفض الأم استلامه لأنه لص أو أنه يهدد بقتل إخوته ، وأغلبهم دخلوا بجرائم لفقتها لهم أمهاتهم ، و سمعت آلاف القصص من الأمهات أنفسهن بعد أن سمعتها من الأولاد ، و القلة هم فعلا الذين ارتكبوا جرائم و منهم من تاجر فى المخدرات ، و قد عرفت منهم (طه) الذى اخترع عجينة خاصة وراح يبيعها على أنها أجود المخدرات ، وصار لها زبائن و عملاء كثيرون حتى أنه

قام بتصنيعها و هو داخل المؤسسة وراح يوزعها عن طريق شبكة من الفتيان ، كان أول عميل له بالطبع - (إسماعيل أفندى) الذى تغاضى عنه فى مقابل حصوله على حصة يومية من المخدرات ، وكان يوزعها بأثمان معقولة بالنسبة لمدمنى المخدرات. و أمسكت به خلال تصنيف هذه (التوليفة) فى حديقة المؤسسة ، ولم تكن تلك التوليفة الساحرة سوى خليط من الحناء ولبان دكر و بعض الحبوب من عند العطار التى تباع علنا لوضعها مع توابل الطعام ، و مع هذا كان (طه) قد اكتسب شهرة واسعة فى ترويجها على أنها أجود أنواع المخدرات ، وأحيل (طه) للنيابة وقام المعمل الجنائى بالتحليل ولما اكتشفوا أنها تخلو من مواد مخدرة محرمة قانونا - أفرجوا عنه ، حاولت أن أعرف لماذا اتجه (طه) هذا الاتجاه ؟ ضحك بشدة وقال :

- حتى أضحك على كل هؤلاء ، وخاصة الذين لفقوا لى التهمة و وضعونى هنا .

كان ينفق ببذخ شديد ، وكانت أمه تزوره بشكل أسبوعى دائم ، تجلب له كل ألوان الطعام ، سيدة من حى شعبى تبدو مثل برميل متحرك ، فيصدر الذهب الذى تتزين به وشوشة تغرى الكثير من الرجال و أولهم (إسماعيل أفندى) ، الذى ظل ودودا معها ، حتى بعد أن عرف كم كان مغفلا وهو يدخن

المخدرات المزيفة التى ولفها ابنها ، و أعترف أن (إسماعيل أفندى) يستحق كل هذه المساحة التى استغرقتها فى تذكره لأنه أثر فى نفسى تأثيرا كبيرا ؛ فقد كان يمثل لى لونا فاضحا من ألوان اللصوصية و الوصولية و النفاق لم أجدها فى أحد من قبل و لا من بعد ؛ و لهذا دخلت معه حربا معلنة و حربا غير معلنة ، و إن ظل يظهر لى عطف الآباء على أولادهم الضالين ، وكنت أسمى عمليات السطو على مخازن التغذية فى المؤسسة بوساطة الأولاد (غزوا غذائيا) لإطعام الأولاد ما هو حقهم الفعلى . ولم يحاول (إسماعيل أفندى) اتهامى مباشرة ، على الرغم من شكوى المتعهد من نقص صفائح العسل والطحينة والحلاوة والجبن بأنواعه . . فلم نكن نأخذ إلا هذه الأصناف حيث يسهل أكلها والتخلص من بقاياها ، لم يكن تعاملى مع (الأولاد) كله تعاملا ورديا وديا ، لأننى كنت فى أحيان كثيرة ألجأ إلى العنف و إلى الضرب بقسوة ، و كانت سياسة القسوة مع الملاطفة ، وكل منها فى وقتها تأتى بأثرها السريع حتى شعر كل من فى المؤسسة بنفوذى الشديد على (الأولاد) جميعهم . و قد رأيت (إسماعيل أفندى) يضع (طربوشه وعصاه) وسط حوض المؤسسة و يذهب إلى منزله ، و كان كافيا لكى يلتزم الأولاد بما أأمر به ، طالما أنهم يشاهدون هذا (الرمز المرعب) لمعاون المؤسسة ، ليعود بعد قيلولة الظهر ليجد كل شىء قد تم كما

أراد. . . . أردت أن أزيل هذا فرفعت الطربوش والعصا ، وحرضت الأولاد على ألا يخافوا من مجرد طربوش موضوع على مقعد خشبى ، واهتزت صورة إسماعيل أفندى ، وبدأ الأولاد يسألون ويطالبون بل يثورون ، وأحست المديرة أن حائط إسماعيل أفندى الذى كان يصد عنها غضب الأولاد بدأ ينهار ، وقدمتنى للتحقيق ، وهددتنى بالطرد ، ومع ذلك ظل هذا الحائط يتهاوى ، وأحس زملائى المشرفون - أخيرا- بهذا الأمر فراحوا يؤيدون موقفى . . . وانتهت المعركة بطردى من المؤسسة ، وبتحويل من أيدنى من المشرفين إلى التحقيق الذى انتهى بالفصل من العمل ، وحمدت الله أن ذلك قد حدث بعد أن انتهت رسالتى حول الأحداث ونلت شهادة الليسانس. . ولما عرف المسئولون بالتحقيق وتكشف أمامهم ما كان يحدث ، وجدت خطابا بتعيينى فى المؤسسة مشرفا مؤهلا ، ولكن كانت هناك قصة أخرى جرتنى إلى عمل آخر ، وإلى مؤسسات أخرى ، وكنت أيضا فى عملى الصحفى قد تعرفت على معظم الأدباء والكتاب الكبار وتعرفت على شخصيات كان لها نفوذها فى ذلك الوقت منها (أنور السادات) الذى كان رئيسا لمجلس الإدارة للمؤسسة الصحفية التى كنت أعمل فيها ، كان ودودا معى أبا وأخا عزيزا كما كان (يوسف السباعى) و(طه حسين) و(توفيق الحكيم) و(محمد عبد الحليم عبد الله)

و (محمود يوسف) و (محمود البدرى) و (يوسف جوهر) . . و غيرهم من الذين لا أتذكرهم الآن ، و العذر هنا مقبول لشدة ما أشعر به من ألم ، كل هؤلاء و معهم يحيى حقى و محمد فريد أبو حديد ، كان لهم تأثير مهم فى حياتى ، و فى فكرى ، وعلمونى الكثير ، . . . شعرت بأن حالة من التوتر سادت الغرفة وبدأت أنتبه لما يحدث حولى ، و أغلقت التسجيل لكى أعرف ماذا حدث .

* * *

الفصل السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾

صدق الله العظيم

اسمى (سارة فاروق الريدى) بالصف السادس بأكاديمية الملك فيصل الإسلامية أتكلم العربية ، وسكتت... استدارت نحوى ، وناولتنى قطعة من الحلوى ، قلت لها بالعربية شكرا ابتسمت ، ونظرت إلى والدها الذى استحث أختها لكى تتلو القرآن ، ولكن الصغيرة حاولت أن تتدلل ... اقتربت منى ، سألتنى بالإنجليزية :

– لماذا أنت مريض؟

ضحكت ، قالت ثانية :

– أبى يقول: إنك مريض جدا . . ما معنى مريض جدا .

قلت وقد أحالت الصغيرتان حجرتى إلى مكان به رائحة الأسرة التى أفتقدها :

– لاشىء . . فقط أود سماع صوتك و أنت تقولين بالعربية « بسم الله الرحمن الرحيم » . رددتها بسرعة . قلت : حسنا أنت تعرفين العربية ، قالت : و أعلم ماما وانطلقت تلهو . قالت و هى تعبث بالأشياء : هل تعلم من أين جاء المصريون ؟ قلت لا أعرف . قالت : من الملائكة . قلت : و من أين جاءت الملائكة ؟ قالت : من السماء طبعا ، ضحكنا ، هم والدها بالانصراف على وعد بالعودة ليلا أو صباحا ، و مضى بهما ، و لكن كانتا لا تزالان معى . شعرت بالسعادة للحظات ، اقتطعتها من بحر الألم و الوحدة و الهواجس و المخاوف.
عاودت ذكر الله ، المرض مثل الشوك يؤلم و لكن لا تستطيع نزعه ، إنه يرقد فوقك و معك و تحتك ، لا إله إلا الله الشافى ، منَّ علينا بالإسلام ، و هى درجة عالية لا ينالها إلا كل من هداه الله ، درجة يهبها الله لمن يشاء من خلقه ، و الإيمان درجات ، اللهم ارفعنا إلى أعلا درجاته ، الإيمان ليس فعلا فرديا إراديا ، إنما هو مشيئة الله ، فإذا كنت مؤمنا عرفت الحمد ، و إذا عرفت الحمد وجب عليك الشكر ، و إذا شكرت فإن الحمد واجب على الشكر ، والشكر مرتبط به ، فاذكر ربك و كن عند حسن ظنه بك ، ليكن الله عند حسن ظنك أنت أيضا – وثق أن الله معك فثق بنفسك . . و ذكرت الله و حمدته و شكرته وسبحته ، و جاء الأمل مثل نسيم البحر فى قيظ الحر ، و اشتقت إلى

الكعبة ، وهفت نفسى إليها ، و ازداد شعورى بالقرب من الله و بكيت ، و تذكرت سيئاتى وبكيت ، و تذكرت دنياى و بكيت ، وتذكرت إخوتى و بكيت ، يا منان ، يا عفو ، يا كريم ، أسبح فى جو أثيرى أستعذبه ، أشعر وكأنى طائر بين السماء و الأرض ، لاشىء يعوقنى ، أرى الأشياء ، الماضى و الحاضر يختلطان ، لا أود أن أفيق مما أنا فيه حتى لو كنت مجنونا ، أحيانا أبتعد عن النوافذ و أخشاها ، تهاجمنى الرغبة فى القفز ، فى الطيران ، أنا الآن أطير ، عبد من عباد الله ، سبحانه أسبح فى ملكوته ، دعونى لا أريدكم أن تعيدونى إلى الأرض ، مجنون أنا ، نصف مجنون ، عاقل ، لا شىء يهم ، المهم أننى أسبح و أذكر الله و قلبى يخفق بشدة و أطرافى لا أشعر بها ، يا ناس يا عالم ، ماذا فعلت لكم ؟ ذقت من الظلم أمره ، و من الهوان أرذله ، و من العسف أعنفه ، ولكننى أحمد الله على أننى عند إيمانى بالواحد الأحد ، الباقى ، الحى الذى لا يموت ، بيده الأمر و هو على كل شىء قدير ، قدوس تسبح كل الكائنات بحمده ، و تلهج بشكره ، أندفع نحو الشوك ، يغرس فى لحمى إبره ، يقول الطبيب :

- صباح الخير

اختلطت الرؤى ، لم أعد أعرف هل أنا فى مستشفى (أكسفورد) أم فى مستشفى (الفيروز) أم فى (الأولدكورت) ،

حولى ممرضات كثيرات وابنتى تقف أمامى مباشرة ، طلباتى كثيرة وأشعر بأننى فقدت عقلى لا أدرى حقيقة ما حولى . . سيطرت على فكرة أننى مريض لا يمكن تحمله ، و أصبحت أتألم وأنا أطلب شيئا، ساورنى الإحساس بأهمية الهروب ، أذكر أننى هربت ذات مرة لكننى لا أتذكر كيف حدث - اقتربت ابنتى وقالت :

- إنهم يحاولون إطعامك يا أبى . . حاول أن تساعدهم. . ابنتى تذكرنى بزوجتى (ماجدة) ، زوجتى ماجدة تذكرنى بأمى ، وأمى كانت أميرة و أنا كنت ألعب فى قصر الملك - حتى جاء يوم و أخذونى معها ثم وضعونا على المشنقة . . أشعر بحبل الشنق حول عنقى ، أخاف على أمى ، نحيفة سمراء هزيلة ، تكرر هذا أكثر من مرة ، كنت عايشته من ألف سنة أو يزيد ، و عايشته مرة أخرى منذ سنوات والآن أعيشه عدة مرات فى اليوم ، لا أدرى ما إذا كان اليوم أو الأمس أو الغد ، لم أعد أعرف الأيام و لا اليالى ، كلها أوقات متشابهات ، أصلى ثم أعود لأصلى ، ثم أتجه إلى الله عله يهدينى إلى الصراط المستقيم ، تضع ابنتى شريط التسجيل. تكلم يا أبى. . أتعجب لأننى لم أعرف ابنتى إلا و أنا راقد فى فراشى ، كنت أعرف أنها جيدة التربية و أنها محافظة على إيمانها و أنها صديقتى ، و لكن أنا الآن أعرفها أكثر و أعجز عن الحديث عنها ، فعالمى اليوم

هو ابنتى ، التى تحمل همى ورعونتى و ألمى و مرضى ، و تقرأ لى القرآن ، و تعرف ماذا أريد و تنطق بلسانى أو أنطق أنا بلسانها بعد أن فقدت النطق وأصبح صوتى مثل صفير خافت ، ويدى اليمنى لا أستطيع حراكها ، واليسرى تنوء تحت أسلاك الحقن من كل نوع ، وصدرى مفتوح و رقبتى تحيط بها مجموعة من الأنابيب و أنا مقيد بفراشى ، و هى تتحرك نيابة عنى و تتحدث بدلا منى ، تصاحبنى فى صحوتى و نومى ، تسرع إذا أحست أن هناك ما أحتاجه ، عرفتها و أنا على فراش المرض ، و لم أكن أعرفها جيدا طوال حياتها السابقة معى رغم أنها عايشتنى طوال عمرها و كانت أقرب بناتى إلى قلبى ، بل هى التى تسرع لتلبية احتياجاتى ، و مع ذلك لم أعرفها جيدا إلا هذه الأيام ، أحاطت بها مجموعة الممرضات و الحكيمات ، بل والأطباء ، فى كل مستشفى اتجهنا إليها و مكثنا بها.. كانوا يصنعون لها طعاما خاصا ، ويجلبون لها أحيانا من منازلهم بعض الطعام الخاص الذى يصنعونه خصيصا لها ، و عندما جاءتنى القدرة على اتخاذ قرار تغيير المستشفى واتخذت بالفعل الإجراء الرسمى ، وأحس الأطباء و الممرضات بأننى تاركهم كارها لهم ، أسرعوا وحاولوا كسبها لموقفهم بل حاولوا أن يدفعوها لكى أغير رأيى ، و لكنى كنت على يقين من أننى لو ظللت هنا لكانت نهايتى . . و كان هناك ما يدفعنى إلى ترك المستشفى لاخوفا من الموت ، فالموت

حق ، و لابد لنا فيه و يلاحقنا فى الزمان والمكان الذى سبق و أن حدده الله ، ولكن هناك قرارات اتخذتها من قبل لم يكن لها مبرر ظاهر ، بل و لا أستطيع أن أدافع عنها وقت إنجازها و لكننى اكتشفت فيما بعد مدى الشجاعة التى كانت لدىّ عندما فعلتها ، رغم عدم مواجهتها فى حينها ، ولكنى فعلتها ، مثل هذا القرار أو الفرار لا أدرى لماذا أفر ، أنا دائما هكذا لا أقبل الحرب و النضال ، دائما أتخلى و أهرب هأنذا أهرب ، ساعدنى صديقى الدمياطى وزميلى فى العمل عاطف و سفيرنا فى لندن أيدونى و ساعدونى ، ولكنهم هناك فى أكسفورد قالوا سوف نعطيك أدوية تريحك من كل متاعبك ، لا . . أنا لا أريد منكم شيئا ، بل لا أريد من الدنيا كلها شيئا ، كنت دائما أسرع بالتنازل لا أبغى حربا من أجل عمل أو وظيفة أو مال أو سلطة عندما أشعر بأنهم يحاولون محاربتى أرفع رايتى البيضاء و أهرب ، لا أندم على شىء ، هكذا خرجت من المستشفى كما سبق وخرجت من العديد من الأعمال والوظائف ، بل عندما أخذوا شركتى للسياحة لم أعارض ولم أقاوم. . قالوا الحكومة أخذتها وفقا لقوانين التأميم، كنت أعلم أنه لا توجد قوانين إنما هى السلطة تفعل ما تشاء طالما أن بيدها الأمر أما أنا . . فلست إلا عبدا من عباد الله ، أنا عبد الله ، آتانى نعمة العبودية له ، و منحة الإيمان به ، ورغبة اللجوء إليه ، فلماذا ألجأ إلى غيره . . ؟! حتى

ولو كانوا أطباء جامعة أكسفورد ، وأين كان هؤلاء الأطباء ؟ وأنا أتحول إلى مجرد خرقة بالية تلف منى العظم قبل اللحم ، ماذا كانوا ينتظرون ؟ لا .. لا أريد عطية من أحد ، اتصلت ابنتى بأحد الأصدقاء فى دبى وكنت قد كلفتها بأن تفعل وتطلب منه مالا ، وأنا أعلم مدى صداقتى به ، ولكنه تهرب منها ، وشعرت بالمرارة والحزن ليس من صديقى هذا بل من نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ولم أتحمل ولم أهدأ حتى أعدت أنا الاتصال به وبصوتى الواهن أخبرته بأن ابنتى أخطأت فى طلبها وأننى لا أريد شيئا وأرجوك أن تقبل عذرى ولك منى التحية ، ووضعت السماعة وأنا لا أريد أن أسمع صوته ، فقد كنت مشغولا بالعتاب مع النفس ، أنا الذى أخطأت فى حق نفسى وجعلتها تقودنى إلى التهلكة لا أستطيع البوح بكل المخازى التى اقترفتها والآثام التى ارتكبتها ، لا أريد ، أنا أبكى .. آلامى هذه ليست شيئا بجانب ما أحس به من ذنب فى حق نفسى ، أعطانى الله وأنكرت ومنحنى الله وجحدت ، كنت أصول وأجول وكأننى الوحيد من دون خلقه الذى عرف وتعلم وشق طريقه ! لا أريد شيئا ، كفانى ما أخذت ، وهل أستحق إلا كل هذا الألم ؟ أيها الطبيب لا تعطينى مخدرا ، بل شق اللحم بسكينك حتى أشعر بالألم ، وأرى النزف فى صدرى ورقبتى ويدى وكل جسدى .. أملت إلى الأمام فاندفع الدم قانيا فى تهور ،

انزعجت الممرضة وراحت فى ارتباك توقف النزف ، وجاء الأطباء ، ولكننى تشاغلت عن كل هذا . سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، أشعر بالارتياح كلما رددت هذا التسبيح ، أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ، اسجد يا بنى آدم ، استغفر ربك ، ستعود إليك الثقة بالنفس .

جاء إلى الغرفة وحيدا يحاول أن يمشى ، يتمايل ، جلس مهدودا ، قال : إنه يعانى من الوحدة ، زوجته وابنته لا يريدانه وهو يشعر باقتراب الموت ، ابتسمت فى وجهه ، قلت : حالتك تبدو طيبة لماذا هذا التشاؤم يا رجل ؟! خذ هذا الكتاب إنه يحتوى على آيات من القرآن اتلها على شكل دعاء ، لم يحاول أن يمد يده ليأخذ الكتاب راح يشكو ، جاء (مصطفى) وقال : إنهم صرحوا له بالخروج ، كان سعيدا ، ثم جلس وهو يقول: ولكن لا أدرى أين أنام حتى موعد عودتى إلى بلدنا ، قلت : هنا فى حجرتى ، قال النقود فرغت ولم أعد أملك أجرا للفندق ولا للطعام ، قلت : كف عن الشكوى منذ أسبوع واحد فقط كنت لا تدرى ماذا سيحدث لك : هل ستموت أم تعود إلى أولادك ؟ والآن تشكو من نفاد المال قلت لك كف عن الشكوى واذكر الله ، قال: ولكن النوم ، قلت له فى غضب: نم هنا بجوارى ولن يكلمك أحد وخذ طعامى فأنا لا آكل ، ثم استرح ولا تيأس من رحمة الله - قالت ابنتى : خذ

من المال ما تريد لدينا المزيد منه ، قال : لا . . قلت : إذن لا تشكو فأنت تخيف المرضى . . سكت ونام . فى اليوم التالى خرج و لم يعد إلا فى اليوم الذى يليه كان يحمل لى علبة من عصير المانجو ، و جلبابا كان قد اشتراه من رحلته السابقة إلى السعودية ، جلس بجوارى يرينى جهاز تليفزيون صغيرًا جدا ، كان سعيدا به غاية السعادة و جهازا للتسجيل جعلنى أتكلم حتى يحتفظ بصوتى وصورتى أيضا بعد أن قام بتصويرى و قال إنهم حجزوا له على طائرة الغد و إنه سعيد لأنه سوف يرى ابنته و زوجته فى الإسكندرية ، قدمت له ابنتى الطعام فأكل فى شراهة و قال إنه ظل طوال يومه يسير على قدميه للفرجة على لندن ، و سافر مصطفى بعد أن أصاب زميلنا المريض الدكتور عضو اللجنة الطبية ووكيل وزارة الصحة (بهستيريا) مرضية جعلته يلازم المستشفى أكثر من شهر رافضا الخروج ، وكلما سمحوا له بمغادرة المستشفى و العودة إلى بلده ، جاءهم فى منتصف الليل يهذى و يشكو من الألم فى صدره وزوجته لا تدرى ماذا تفعل . و تقول إنه ظل طوال عشر سنوات يعمل فى لندن جراحا للقلب و قد مرت عليه حالات أصعب من حالته ، و لكنه الآن يبدو مثل طفل يبكى كلما أحس ببعض الألم ، وقالت : إن الطبيب الذى يشرف على علاجه كان معاونا له طوال عمله هنا فى لندن ، وكانت زوجته تأتى لتشكو من توتره

و تسألنى ماذا تفعل ؟ و نطيب خاطرها ، و لا ندرى ماذا نقول لها فهو طبيب و جراح و سبق أن شاهد حالات فى ظروف أصعب ، دعوت الله أن يشفيه، واضطررت للوم مصطفى على لسانه المفلوت ، أكتب لكم هذا ولا أدرى ما إذا كنت أقدر على استكماله أم لا ، يدفعنى الدكتور (بانديا) على الاستمرار فهو دائما يسألنى و يناقشنى فى كل الأمور ، و اليوم عاد من إجازته الأسبوعية و معه أحد كتبى ، وجده عند ناشر لبنانى و طلب منى أن أكتب عليه اسمى بخطى حتى يريه لزوجته و سألنى متى بدأت الكتابة؟

وهو سؤال مثل : متى بدأت تعرف اسمك ؟ أو متى بدأت تتكلم ؟ و قد سألنى ولدى عمرو ، كيف عرف اسمى لأول مرة ، و كان السؤال صعبا للغاية ، فكيف أرد عليه ؟! كيف عرف ابنى الصغير اسمى ؟ و هل أنا اسمى فعلا ما ينطقه هو الآن أم أن لى اسما آخر ؟ و جلست أفكر فى الإجابة ، متى بدأت الكتابة ؟ و متى عرف ابنى الصغير اسمى فعلا ؟ و كان التليفزيون يعرض فيلما عربيا ، فقد سمحوا لنا بمشاهدة القناة المصرية و الفيلم عن مرض الإيدز ، كانت الممرضة ذات الأصل الآسيوى تضع الضمادات و تقوم بالغيار اليومى الليلى ، و كانت عملية شاقة بالنسبة لها و مؤلمة جدا بالنسبة لى ، فحاولت التشاغل بمشاهدة الفيلم ، وسألتنى و قد لاحظت انصرافى عنها

إلى موضوع الفيلم فحكيت لها ، فإذا هى تنبرى محذرة إياى من ممارسة الجنس مع نساء غير زوجتى ، بل و راحت تحاضرنى عن قسوة هذا المرض و تخيفنى من معاشرة النساء ، و أن أبتعد عن هذا الفعل تماما و ضحكت . . و قلت أترانى قادر على أن أتحرك فقط من مكانى حتى يمكننى ممارسة الجنس ؟ كيف و كل ما يربطنى بالحياة متصل بأنابيب ؟! ولكنها لم تكف عن تلقينى هذا الدرس الأخلاقى المهم . كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلا ، وساد الصمت و تذكرت سؤال ابنى و سؤال الدكتور بانديا . . متى بدأت الكتابة ؟

كانت السنة الرابعة بالكلية مضطربة ، فقد سكنت فى أولها مع أسرة كان عميدها أحد الأوصياء على العرش ، و كان يملك وحده قبل الثورة حوالى ثمانية آلاف فدان ، ثم جاءت الثورة و أخذت منه كل شىء و لم يبق معه إلا البيت أو (السراية) ، التى كانت تقع فى ذلك الوقت بمنطقة نائية فى الهرم و حولها الحقول والحدائق و يبعد عنها قليلا بيت الفنان يوسف وهبى ثم لا شىء ، و يربطنا بالجيزة شارع الهرم و أتوبيس رقم ٨ ، كنت أقطن فى شقة بالعجوزة مع زميل تشاجرت معه و قررت الهرب إلى أبعد مكان و أخذنى صاحب البيت و الذى كان يعمل طباخا عند الباشا و أدخلنى (السراية) و قال للسيدة التى وقفت أعلى السلم الرخامى فى مقدمة السراية : إننى طالب جامعة و أريد مسكنا معهم ، ابتسمت و قالت و هى تتأملنى :

- هل أنت فى الجامعة ؟

كان جسدى نحيلا وكنت صغير السن ، لم أجب.. شعرت بالإهانة و لكن ابتسامتها الطيبة شجعتنى على أن أسأل مباشرة :

- هل عندكم مسكن لى ؟

قالت بسرعة : نعم .

ظهر لى رجل أسود ، هكذا كان لونه ، نظر نحوى فى غيظ و غضب و قال :

- انصرف يا ولد .

شعرت بالتحفز لكى أسبه ، و لكن ابتسامة السيدة البيضاء التى تبدو أصغر منه كثيرا جعلتنى أتريث ، قالت موجهة إليه الحديث :

- إنه فى الجامعة و يمكنه السكن بالحجرة الخلفية.

قال فى عجرفة و كانت هذه أول مرة أرى فيها باشا حقيقى لا .. قلت لا .

ثم انصرف ، هبطت السلالم القليلة التى تفصلنا ، كانت ترتدى ملابس منزلية رقيقة و جميلة أيضا ، قالت بعد أن نظرت نحوى فى أمومة :

- من أين ؟

قلت : من الفلاحين

قالت و قد وقفت بجوارى تماما : و أنا أيضا ، و لكن من أى البلاد ؟ تعارفنا، وعرفنا أننا من بلدة واحدة أو تقريبا هكذا لأنها من بلدة تتبع بلدتنا ، سعدت وقد عرفت أسرتى ، صحبتنى إلى الداخل ، بعد أن صرفت الطباخ ، أدخلتنى حجرة فسيحة لم أكن قد رأيت مثلها من قبل و لها نوافذ عريضة كثيرة ، كما أن لها بابا يطل على الحديقة و يمكن الدخول و الخروج منه دون عبور (السراية) قالت : سيكون هنا مقامك ، قلت : و لكن هذا الرجل . . قاطعتنى برفق :

– زوجى رجل طيب ، و لكن الزمن أصابه فجأة . . لقد أخذوا كل أرضه و أمواله ولم يتركوا إلا هذا البيت ، حتى السيارة قديمة و لا تكاد تسير . . أنت بالتأكيد تعرفه – قلت : لا .

– قالت : إنه رجل مشهور فهو أحد الأوصياء على الملك الصغير (فؤاد) .

– قلت فى تحفز طفولى : لم يعد لدينا ملك و لم تعد لدينا وصاية نحن الآن فى زمن الثورة وأنتم إقطاعيون.

– قالت وهى تبتسم: يجب ألا تنسى أننى بلدياتك وأعرف أسرتك فلا داعى لهذا الكلام ، و أرجوك لا تدخل معه فى مناقشة ، دعه فى حاله فأنت لا تعلم كيف يكون ذل الرجل .

– قلت : إذا هو إقطاعى و أنا . . وضعت يدها بسرعة حول فمى .

– وقالت فى رجاء : اسكت ، و لا تصدر أحكاما ، عندما تكبر سوف تعرف ، و الآن هل أعجبتك الغرفة ؟

– قلت و قد فكرت فى التجربة ذاتها : نعم .

– قالت : يمكنك من اليوم السكن بها . . أين حاجاتك ؟

وأسرعت و أحضرت ما يمكننى حمله من حاجاتى ، و أخذت فى ترتيبها بالحجرة و لكنهم استدعونى لتناول العشاء ، و ترددت و لكن الرجل جاء و دعانى إلى العشاء فى لهجة آمرة اكتشفت أن لهم ابنا لا يزيد عن الثامنة من عمره ، ذكى ، لطيف ، مرح أحببته كثيرا ، و سيدة عجوز تعمل كل شىء فهى مربية و طباخة وأمينة سر السيدة ، أفادتنى هذه التجربة فى التعرف على الوجه الآخر للثورة ، والذى لم أكن أعرفه ، وخلال المناقشات التى كانت فى الغالب حامية من جانبى عرفت أسرار السياسة المصرية ودخائل الأحزاب والتكتلات والتدخلات والمصالح المتشابكة و المتضاربة . . عرفت أن كل الأزمنة هكذا وإن تختلف درجات ألوانها ، كان الرجل شيخا مجربا على دراية و اطلاع ، و لكن إحساسه بالفقر بعد الغنى ، و إحساسه بالمهانة بعد الجاه و السلطان . . كل هذا جعله نافرا ، غاضبا ، منعزلا ، لم يكن يزوره إلا قليل من الناس كنت أسمع عنهم فقط ولا أعرفهم ، كما كانوا يستأجرون سيارته فى السينما ، ومن إيجارها يعيش ، لهذا حددت لهم أجرا لسكنى و مبلغا مساهمة فى نفقات البيت ، وكنت أعلم أنه أحيانا لم يكن هناك إلا

ما أدفعه لهم ، لهذا رغم صعوبة الحياة فى تلك (السراية) إلا أننى تحملت ، فقد عضنى الناموس فى أول ليلة وذهبت إلى الجامعة وتلقيت الكثير من النكات الساخرة عن البقع الحمراء التى برقشت وجهى وكان على فى هذا العام عمل رسالة الليسانس وحل مشاكل المؤسسة وأيضا البحث عن عمل فى الصحافة بعد أن حدثت اضطرابات فى دار التحرير وتركها (أنور السادات) وحدث الكثير من التطورات السياسية بعد حرب ١٩٥٦م ، وأنا أتخبط لا أعرف طريقا محددا أسير فيه ، فقد خاصمنى أبى بعد وشاية من أحد أقاربى وبدأ دخلى يتقلص وكنت قد أحببت فتاة زميلة فى الدراسة ، وكان حبى لها قد بدأ فى السنة الثانية ولكنه ظل هكذا بدون كلام فى الحب ، ولكنها تجتهد فى حجز مكان لى بجوارها وإعطائى مذكراتها لكى أنقلها فى كراسات وتشرح لى التفاصيل التى كانت تحدث خلال دورانى فى ساقية العمل/ المؤسسة/ المنزل فى الهرم / محاولة فهم مشكلات سياسية كانت بالنسبة لى صعبة مثل الصراع الروسى الأمريكى وما ذنبنا نحن ؟ أسمع كلمات ضخمة مخيفة من الكبار الذين أجلس إليهم فى الجريدة ، وأسمع كلاما عجيبا من بعض الطلاب ، ولكن كنت عاشقا للثورة متلهفا على التضحية من أجلها أتصور الاتحاد السوفيتى ملاكا يحمى الفقراء وأمريكا وحشا يريد افتراس العالم ، أحاول أن أكتب لا يعجبنى ، أقرأ ، أشعر بأننى فى حاجة إلى قراءة العالم

الجديد ، الدنيا الجديدة أتخبط لا أعرف الاستقرار ، فى البيت أظل محملقا فى الظلام الذى يغطى حقول الهرم ، وعندما أشعر بالضيق أذهب إلى الرجل الذى يشرب من براد كبير شرابا مثل الشاى ، وعندما طلبت قليلا منه رفض ، بعد هذا عرفت أنه الخمر يشربه هكذا ، وعندما يشرب كثيرا يقول كلاما عجيبا ، كيف كان يضع امرأته فى البانيو المملوء بالحليب الساخن ، وكيف كان يقيم حفلات لكل القضاة أو الوزراء أو من بيده سلطة ما ، و ينفق ببذخ ، ويردد كلهم هكذا ويشير إلى فمه ، إنهم جميعا يشربون ولا يخشون شيئا وعندما أقول له ولهذا قامت الثورة ، يضحك فى هستريا عجيبة ، ويردد أنت طفل فى الجامعة لا تفهم أن فيهم من هو أسوأ ، ثم يثور فجأة ويحطم الكوب وهو يسبنى فتصحو السيدة وتأمرنى بالعودة إلى حجرتى وكفانى ما سمعت ، أحيانا كنت أكرهه لأنه يريد أن يحطم النموذج الذى أحاول أن أعشقه ، ولكن ذات ليلة اضطررت للعودة متأخرا جدا ، فوجدته يقف فى أول الشارع وقد تدثر بغطاء السرير يترقب عودتى ، وعندما لمحته وأسرعت إليه ، أشاح بوجهه وقال: أسرع . . فهى قلقة عليك .

وعندما دخلت البيت وجدتها فعلا تبكى ، قدموا لى الشاى الساخن ، وعندما جلس هو بجوارى قال فى تأنيب : عندما تنوى أن تتأخر ، دعنا نعلم .

قلت : أنا أعمل فى جريدة ، وأيضًا أعمل مشرفًا ليليًا فى

مؤسسة للأحداث شهق الرجل وكأنه صدم فى إنسان عزيز وصاح :

- وكيف تسمح لنفسك أن تعمل وسط هؤلاء الأحداث .

قالت السيدة :

- يجب أن تترك هذا العمل ، أنت من أسرة فاضلة ، والدك ليس فى حاجة إلى عملك . ثم إنه عمل . .

قلت مقاطعا :

- إنه عمل يتناسب ودراساتى ، إنه يفيدنى وسوف أحصل على الدكتوراه عن هؤلاء الأحداث.

قال فى يأس :

- أنت لن تحصل على الليسانس ، أنت لن تنفع فى شىء على الإطلاق .

قلت ضاحكا :

- لا يهم .

كاد أن يصفعنى ، ولكن السيدة أسرعت تدفعنى إلى الداخل وهى تشرح لى كيف ظل قلقا لغيابى ، ثم إنه بالفعل قلق على مستقبلك فأنت لا تذاكر مثل الطلبة الذين نعرفهم ، أنت هنا تشاكسه ، ثم تنام ، ثم تخرج طوال اليوم وبعض الليل ، بكيت ، بكيت فى حسرة فقد اكتشفت أنها على حق ، وأنه أيضا صادق فيما قال ، وأن العام يكاد ينصرم وأنا مشغول بألف شىء

وكلها لا تخص دراستى ، بل أصبحت شغوفا بالفرجة على النساء وتهفو نفسى إليهن ، وما كان هذا يحدث من قبل ، فى الجريدة يزاملنى (فؤاد) الذى يظل يتحدث عن النساء وحلاوة التعامل مع النساء ، وقدرته على اصطيادهن بسهولة ، وفى المؤسسة يجلس معى (إسماعيل أفندى) يحدثنى عن مغامراته النسائية ، وفى الجامعة كل زملائى يتعاملون مع النساء ، بل (عبد الستار) أبلغنى أنه يتعامل مع سيدة على أن يدفع لها أول الشهر ولكنها تكتب كل مقابلة لها فى النوتة لا تنسى ، والبنات فى الشوارع قصرن الملابس ومزقن الأكمام حتى صار الفستان وكأنه قميص نوم ، و (فكرى) يتحدث عن حبه للصبيان ، ماذا أفعل ؟ قصدت منزل أحد أقرباء أمى (الدكتور فتحى) ، وهو رجل طيب القلب ، يعمل أستاذا بالجامعة ، جلست معه يرحمه الله - لم أحاول أن أحكى له شيئا ، كنت فقط أريد أن أفيق ، أن أرى عالما غير عوالم (فؤاد وإسماعيل وعبد الستار) ثم انصرفت من عنده ، لكى أتجه إلى أحد أصدقائى فى (الحرس الوطنى) والذى تدرب معى ، كان قد سافر إلى (غزة) وأصبح فردا من أفراد المقاومة ، قابلنى فى سعادة وأصر على أن نتعشى سويا ولكننى لاحظت وجود سيدة ممتلئة وليست بالصغيرة ، حاولت الاعتذار ولكنه رفض وطلب من السيدة تقديم العشاء ، وأكلت لقيمات وتذكرت (الباشا) وما سوف

يقوله ، حاولت الانصراف ولكن صديقى لا يريد مفارقتى فهو يتعرض للموت كل يوم و لا يدرى هل يرانى ثانية أم لا ، كان يسكن نفس سكنى السابق ، وكنت قد تنازلت له عنه عندما أراد سكنا يلجأ إليه كلما جاء إلى القاهرة. . وأقسم أن أبيت معه ، نظرت إلى السيدة التى كانت تناولنا أكواب الشاى ، أبديت رغبتى فى الانصراف ، ولكنه أصر على بقائى و نام هو والمرأة على الفراش الوحيد ، ورقدت أنا على فراش خفيف على الأرض ، وحاولت أن أنام ، أنسى كل شىء : الأمريكان ، و الروس ، وعبد الناصر ، والباشا الأسود . . والخمر المراقة ، والأزمنة التى تتداخل ، ونساء (فؤاد وإسماعيل أفندى) . . . .

وإذا . . بالسيدة تتسلل إلى جوارى وتلتصق بى ، كان جسدها حارا دافئا ، فزعت ، ناوشتنى الرغبة و ناوشتنى المرأة . . ولكنى صحوت و قفزت خارجا ، أسرعت إلى الشارع وجريت ، جريت حتى وجدت سيارة تنقلنى إلى (السراية) . . و هناك سمعت كل ألوان التقريع ، وإن خففت السيدة بعضا منه ، ونمت بعمق لأصحو والسيدة تحمل لى كوبا من الحليب الساخن ، وقدمته لى وهى تقول فى نغمة ذات معنى :

- من هى تلك السيدة التى ظلت معك طوال الليل ؟

فزعت ، و تلفت حولى ، فقالت وهى تضحك :

- كنت تحلم . . أليس كذلك ؟

قلت فى صدق :

– لم يكن حلما ، كان واقعا مؤلما . . أريد أن أبوح أن أصرخ أن أتحدث أريد أن أبتعد عن هنا ، منذ أن جئت إلى هنا وأنا ليست أنا .

قالت فى حنان :

– إذن قص على ما تراه حتى تريح نفسك.

وجدتنى أحكى لها ، أقول لها ما بداخلى ، ما يفزعنى من نفسى ، فإذا بها تصغى السمع ، ثم ينسكب دمعها فى هدوء على خديها ، وأمسكت بيدى ، وأخذتنى إلى حديقة البيت وأجلستنى قبالتها :

– سوف يحدث لك أكثر من هذا . . المهم أن لا تتوه يجب أن تعرف ماذا تريد ، وألا تجذبك المظاهر الخادعة ، الأحاسيس الكاذبة قلت – فى صدق : لم أعد أعرف .

قالت : بل تعرف .

أولا : يجب أن تحصل على شهادتك العالية ثم افعل ما تشعر بأنه يلائمك .

تعودت أن أسمع ولا أنقل ما أسمعه ، لأننى أعرف ما سوف يقوله لى الناس فقد كان الجو العام من حولى متقلبا ، وأنا لا أفهمه . (الباشا) يقص على خيانة الثورة لقضية السودان ، وكيف باعوها للإنجليز ، ويحكى عن غراميات (قواد) الثورة

وانقلابات الجيش المتكررة ، وحكايات الاعتقالات ، وانفراد ناصر بالسلطة . . وأنا لا أصدقه ، وأحضر لى العديد من الوثائق والشهود ، ولكنى لم أصدقه ، أبى كان يهمه أن أظل معه ، تعودت أن أسمع كلامه عن أهمية ترك المدرسة والدراسة لكى أتفرغ لمعاونته فى تجارته لأنها الأجدى ، ولأننى بالفعل (شاطر) أجيد كافة عمليات البيع و الشراء بل أدخل فى صفقات يعجز عنها الكبار ، وأعرف كيف أحدد نوعية الأصناف وجودتها التى نتاجر بها ، فأنا أجيد (فرز القطن) ، وهى عملية فنية معقدة تحتاج إلى خبرة ، وتعودت أن أتعلم من الكبار وأستفيد منهم ثم أحاول تطوير ما تعلمته وأبتكر أيضا ، لهذا كان أبى مصمما على أن أظل معه. . وافترقت بنا السبل ، وتقاذفتنى الأعمال والوظائف وتكدست فى أدراجى الشهادات من كل لون ، وارتفعت كتبى حتى صارت هرما صغيرا بمكتبى ، قال إنه حزين لأننى لم أظل معه وإنه خسر الكثير بسببى و خسرت أنا أيضا الكثير ، ويومها شعرت بأن ما أفعله فى دنياى لا شىء ، لا قيمة له . . مؤلفات لا معنى لها . . شهادات معلقة فى براويز ، و لكن قلة المال و قلة الحيلة يطلان على أسرتى من النافذة ، والآن و أنا أرقد هنا تحصى ابنتى ما تبقى معنا من نقود ، والپروفيسير يزيد فى المدة للبقاء فى المستشفى ، والحياة ذاتها مهددة ، لاشىء . . لا شهرة تفيد و لا مال ، ولا جاه ولا منصب ، الكل

هباء . . عندما دخلت المستشفى منذ سنوات ثلاث رددت بينى وبين نفسى . . هل هذه هى النهاية ؟ لن أكتب ولن أقرأ ؟ ولن أفعل شيئا آخر ؟ . . هذه هى النهاية ؟ إن الصراع والمنافسة والاسم الذى يجب أن يكتب على أربعة أعمدة وأهمية الصورة مع المقال ، أنا الأفضل أنا الملك ، أنا وليس غيرى . . هكذا رأيت وسمعت (يوسف إدريس) يقولها ، وأيضا قالها من قبله(طه حسين) و (الحكيم) وكل (الأدباء) ، هم وحدهم ، كل منهم يظن أنه الملك وأنا الآن أرقد لا حول لى ولا قوة فى غرفة الإنعاش فى انتظار ما يحدث وأنا لا أملك لنفسى شيئا ، مرت الأيام ولكن الإنسان كلما أحس ببعض القوة ، ارتفعت هامته وهو يردد اللفظ الملعون « أنا » . . أنا فعلت وأنا سأفعل ، وهو لا يدرى أنه مهما كان ومهما كانت مناصبه وشهرته واسمه و سمعته . . كلنا نذهب ، تراب تذروه الرياح . . سمعت صوت الطبيب الآخر المسمى (شرم برم) أو هكذا أطلقوا عليه جاء لكى يأخذ عينة دم ، إنها عملية صعبة للغاية فلا عروق ظاهرة ، والآن يحتاج إلى صبر منه وتحمل منى . جاءت معه (چيسى) . . كنت قد صارحته بعدم حبى له وأننى أود قتله. نظر نحوى وقال بإنجليزية ركيكة ، لأنه من (التبت) ، أعلم أنك تود قتلى ولكن لن تفعلها إلا بعد أن تشفى ، ابتسمت ، راح يبحث عن وريد ، استغرق وقتا طويلا ، صليت وذكرت الله وسبحت باسمه

وهو مستغرق فى البحث عن نقطة دم ، أخيرا استطاع أن يحصل عليها ، هللت (چيسى)

و قالت :

- ألم أقل لك أنه عبقرى !

عبقرى ؟.. طبيب يعمل جراحا للقلب ، حاصل على الدكتوراه منذ عشرة أعوام ، ويعد عبقريا لأنه حصل على نقطة دم تصلح للتحليل.. نظر إلى جرح صدرى وأمر بتغيير المواد المستعملة واستخدام شريط أطول حتى يستقر بالداخل.. وضع إصبعه وراح يقيس عمق الجرح شعرت بآلام لا تطاق.. قلت لنفسى : هكذا أنت اضطررت لترك المسكن فى (سراية الباشا) ، بكت السيدة بشدة لأننى تغيبت عنها، لم أقل لهم إننى سأتركهم ، فقط انتقلت إلى مسكن آخر ، حجرة ببدروم فى إحدى العمارات القريبة من الجامعة ، كان بالبدروم العديد من الحجرات ، كل حجرة ، يسكنها خادم أو عامل فقير أو سيدة تعمل فى بيع جسدها .. القذارة هى العلامة المميزة لحجرات البدروم ، والعلاقات بينهم ودودة رحيمة ، وإن كانت تتسم أحيانا ببعض العنف .. السيدات المحترفات لم يحاولن احتراف المهنة مع بقية الجيران كن يتبرعن بغسيل الملابس وأحيانا تنظيف الحجرات. كانت حجرتى خالية تماما بعد أن تركت حاجياتى هناك واستقلت من الجريدة ومن المؤسسة ، شعرت

بأن سنتى النهائية فى الكلية على وشك الإفلات منى ، لم يعد أبى يعرف طريقى وبالتالى لم أتلق أية نقود منه ، اضطررت للاستغناء عن أشياء عديدة كنت أملكها أيام (العز) لكى أدبر مصروفات طبع رسالتى وأيضا طعامى وأجرة الحجرة وبعض الضروريات. زارتنى السيدة حرم الباشا ولا أدرى كيف عرفت مكانى . ظلت تبكى ساعة كاملة لكى أعود معها و لكنى رفضت العودة. ورجوتها أن تخرج من هذا البدروم القذر ولم أهدأ حتى استقلت سيارة أجرة . . كنت أخشى عليها من شراسة الجارات ، فقد جاءت إحداهن بكوب من الشاى وهى تحملق فى السيدة فى ريبة ، عرفت منها أن (الباشا) أصبح أكثر عصبية من ذى قبل وأنه على استعداد لمصالحتى بنفسه إذا كان سبب غيابى عنهم معاملته لى ، و لكنى رجوتها أن تعود ، فالحياة عندهم دمرتنى من الداخل ولم أعد قادرا على الحكم على الأشياء ، . . كنا نغنى عندما دخلنا منطقة البحيرات ، وكنا نقول إن ليبيا و السودان هما عمق مصر ، ولن يفلح الإنجليز هذه المرة ، وعدنا ، وقالوا انتصرنا ولكن الباشا ابتسم فى سخرية ، و رحت أبكى و أنا أعود إلى حجرتى . . تقدمت منى إحدى الجارات وحاولت التسرية عنى . . كانت عطوفة رقيقة ، كلماتها لا توحى بأنها سيدة ذات سمعة سيئة ، بل كانت تتعامل معى بكياسة و لباقة أدهشتنى ، ثم قدمت لى بعض الطعام . . كان طعامى فى

ذلك الوقت يعتمد فقط على الخبز والحلاوة ولا يكفينى إلا ثلاثة قروش فى اليوم ، وأحيانا كنت لا آكل وأظل أعمل فى رسالتى أدخر كل قرش من أجل طباعتها. . وبالفعل تقدمت بها وكنت قد تحولت إلى هيكل عظمى ، ولم يعد هناك ما يمكن بيعه ونجحت. . كانت علاقتى مع جيرانى قد تحسنت ، عرفت فيهم أخلاقا كريمة وزمالة محببة وتكاتفًا لم أشهده فى مكان آخر ، وهم يتفننون فى خلق الجو الضاحك مهما كانت الظروف. . كانت النساء يسخرن من أنفسهن لأنهن لم يستطعن الحصول على (زبون) وإنهن رجعن كما خرجن ، رغم الجوع الجنسى النهم البادى على وجوه الرجال والشباب . وأحيانا يعدن وقد فقدن بعض ملابسهن وعلامات الضرب المبرح على وجوههن ، لأنه تم الاعتداء عليهن عندما طالبن الزبائن بالفلوس ، ونحاول نحن أن نسرى عنهن ويقول جارى (السباك) : لقد ضربتنى زوجة مدير كبير على رأسى لأننى طالبتها بأجرة إصلاح الحمام وحملونى إلى الشارع وأنا أنزف دما ، ومع ذلك فأنا أعيش . . نضحك. . أحاول أن أضحك ينظرون نحوى نظرة إكبار وانبهار فأنا شخص متميز عنهم جميعا كنت صحفيا وكاتبا لحكايات مسلية ، وسوف أعود إلى عملى بعد (الامتحان) . . ، ونجحت ولم أعد إلى البدروم فقد طلبوا منى أن أعود إلى المؤسسة مشرفا مؤهلا ، ولكننى رفضت ، وعينت فعلا فى مجلة ذائعة الصيت

أيامها ورحبت بالعمل بها ، وكنت مشغولا بتكوين نقابة لخريجى المهن الاجتماعية والعاملين فى حقل الخدمة الاجتماعية بأشكالها العلمية الحديثة حتى نبعد عنها الهواة وعديمى التأهيل العلمى . ثم وجدت استدعاء من (كمال الدين حسين) عضو الثورة ووزير التعليم و أشياء أخرى وقتها لم أعد أذكرها ، ذهبت إليه ، وأحببته وشعرت بأن مكانى بجواره ، وازداد هذا الأمر مع الأيام ، ومع تجاوبه القوى فى تنفيذ أحلامى . . و سافرنا إلى موسكو فى أول احتكاك عملى مع (الشيوعية) !

الناس يتكالبون على شراء ساعاتنا المتواضعة لأنها من سويسرا ، وأجهزة التسجيل رغم خشونتها ، و ملابسنا وكل شىء ، بل يشتهون ما نأكل . . نحن نقيم فى شبه سكن عسكرى ولكنه نظيف ومنسق وبه كل شىء ، ونقدم عروضا كوّناها كما شئنا ، بعضا من رقص الخيل مع رقص تحية كاريوكا مع بعض الشعارات التى ليس لها معنى . . كنت صغير السن ، ومع هذا كنت أحد القادة الذين يلقون بالأوامر ، ويسيّرون الطوابير ويقودون الوفد الشبابى ممثلا للحكومة المصرية ، وكان معنا أساتذة أجلاء وشخصيات ناضجة تعرف أكثر مما أعرف ، لكنهم كانوا يتركون لى الأمر . .وعدنا ومعنا مجموعة من الأفكار والعديد من الأشياء المفيدة للرياضة والشباب ، وهكذا بدأنا فى

تنفيذ المجلس الأعلى للشباب ، ومن هذا المجلس ومن احتكاكى بالعمل مع مجموعة الوزراء والخبراء والأساتذة تعلمت الكثير جدا ، بل أكاد أجزم بأن ما أعيش عليه من خبرة حصلت عليها فى السنوات الخمسة التى قضيتها فى العمل برعاية الشباب ، حين كانت حياتى مثل حلم جميل ، ما أراه فى الليل أحققه فى الصباح . . ساعدنى على ذلك الرجل الذى أحببته كثيرا (كمال الدين حسين) ، إلى أن جاءت طامة (منظمة الشباب) و(تنظيم الطليعة) حيث وأدت أحلامى ، وجعلتنى أهرب من عمل عشقته وملك علىَّ نفسى باتهام باطل ولكنه كان فى ذلك الوقت كفيل بإدخالى السجن ، ألم أقل لكم إنه ليس لدىَّ هنا مستندات وأرشيف فأنا لا أنوى كتابة مذكراتى ، إننى أتسلى ، أحكى لنفسى أولاً ثم إذا أراد أحد أن يسمع فليسمع . . ماذا يفعل مريض لا يعرف مصيره ؟ هل يستسلم لليأس أم يحاول أن ينصرف عن الداء والدواء وكل ما يحيط به لكى يعيش داخل نفسه ؟ يحاول أن يتذكر . . والسؤال يعذبنى ، كيف أضعت حياتى هكذا بين مشكلات الأحداث ومآسيهم ولعبة رعاية الشباب وما أحاط بها من آمال ، بينما هى فى الواقع مجرد شكل اشتراكى ، تقليد كما تفعل البلدان الاشتراكية التى كنا نقيم لضيوفها حفلات العشاء الباذخة ولا ننسى (الطعمية والبسارة) لأنها طعامنا الشعبى ، وأيضا البصل الأخضر وعلينا أن نشاركهم

الطعام وأن نكون سعداء ونتظاهر بحب الاشتراكية التى تسمح للأغنياء والفقراء بأكل الطعمية ، وأذكر أننى كنت أتسول من الملاعب شبابا يوافق على الاشتراك فى حفلات عشاء الطعمية وبجوارها أطعمة واردة من فرنسا ، أيام لا أدرى كيف أكتبها دون أن يواجهنى أحدهم بالتشكك فى التاريخ أو الاتهام بالإساءة إلى العلاقات الدولية . . وحتى أريح نفسى أنا فقط أتذكر لنفسى ، قد تذكرت حفلات العشاء هذه لأنها كانت تتم بشكل يومى لا يقدر على تحمله زملائى ، فالطعام كان بالفعل دسما ، ولابد من أن يعقبه لون من ألوان التسلية والحديث عن العلاقات الودية بين الشباب الاشتراكى عندنا وعندهم ، لأن الاشتراكية هى التى ستسود العالم ، وأهرب لكى أؤدى صلاة المغرب والعشاء فى السر ، وكأننى أؤدى طقسا وثنيا لا يصح تأديته ، ثم يقولون الآن كلاما كثيرا ، كل الذين كانوا معنا فى التنظيم الطليعى سواء من تناسوا وأصبحوا من عتاة الدعوة الإسلامية أم من أبطال الديموقراطية وحرية الرأى . . كانوا يتشدقون بكلمات رنانة . . العدالة والخبز وحق العمال فى السيطرة على العالم . . ولا أدرى لماذا يرغب كل أصحاب فكر ما ، السيطرة على العالم حتى هؤلاء الذين يشعرون بالظلم فإن أحد المبادئ المهمة التى يدعون إليها ويصرون عليها : السيطرة على العالم ، النازية ، الصهيونية ، الشيوعية ، الرأسمالية ، حتى أصحاب المذاهب

المتطرفة : كلهم يسعون للاستيلاء على العالم ، أنا أيضا سوف أستولى على العالم ، ولكن بطريقتى .

كانت ترمقنى بعينين سمراوين ، وجهها رقيق أسمر ، لا تريد أن ترفع عينها عنى ، تنهال على بالأوامر ، فى العملية الأولى كانت تقف هناك متربصة بى ، أكلت سندوتشا أو هكذا تخيلت أنها تأكل ثم شربت شايا ، فى العملية الثانية كانت أكثر عنفا ، أحاول أن أتذكرها . لا يمكن أن تكون مجرد ممرضة إنجليزية إنها هى ذى . . تلك الفتاة التى جاءت إلى مكتبى برعاية الشباب ، كانت تتدرب تحت إشرافى وكانت ذات شخصية قوية ، كانت تعاملنى وكأننى أنا التلميذ وليست هى ، دائما تتحدث وتطلب ، وتأتى مبكرا وتعاقبنى لأننى تأخرت ، دائما لها رأى فى كل شيء يخصنى فى طعامى ، وفى ملبسى ، وفى حركتى ، يومها لم أكن مهتما إلا بعملى ولم أكن متزوجًا ، وكانت هى تتولى أمرى وتظل معى حتى آخر اليوم . . ، وكانت عيناها سوداوين ذات بريق ، وجههما دقيق رقيق سمراء فى خمرة محببة ، ضئيلة الجسم ، أناملها رشيقة ، وخطها جميل ، كانت تعد لى التقارير وتعاوننى فى الإشراف على الطلاب الذين ترسلهم لى الجامعة ، وتصنع لى طعاما خفيفا تحضره لى كل يوم ، ثم غابت فجأة ، شعرت وكأن شيئا مهما ينقصنى . بحثت عنها فلم أجدها حاولت التحرر من وجودها الدائم بجوارى . .

بعد أيام أخبرنى ابن خالى بأنها كانت تحبنى بشدة ، وأنها فضلت الانسحاب لأننى لم أحاول . . أن أعبر لها عن شعورى ، لهذا آثرت الابتعاد ، أضاف ابن خالى وأنا أتوجه إلى فراشى فقد كان يزاملنى فى السكن - إنها نعم الزوجة إذا أردت الزواج . . ضحكت وقلت : لو أننى تزوجت من كل فتاة أحبتنى حتى الآن ، لأصبحت زوجا لآلاف النساء .

نظر نحوى فى غضب وقال :

- ولكنها كانت تحبك حبا ملك عليها حياتها .

حاولت أن أتناسى ما قاله ابن خالى مصطفى كنت مسافرا فى فجر اليوم التالى إلى دمشق ، بعد الوحدة ، كنت مسئولا عن التبادل الثقافى بين شباب سوريا ومصر ، وأعطونى سلطة واسعة إلى درجة تمثيل رئيس الجمهورية فى احتفالات الشباب السورى والمصرى ، وكان الأمر بالنسبة لى جدا لا هزل ، ولهذا وضعت فيه كل جهدى وخبرتى ووقتى ، لم تكن الوحدة فى حد ذاتها تشكل شيئا فى فكرى العام ، كانت مجرد عمل يجب أن أجيده . لهذا كانت تصدمنى أشياء لم أتعودها ولم أتصور أننى سوف أراها أو حتى أسمع بها ، مثل(السنة) و(الشيعة) والفرق الإسلامية التى تكتب فى هوية الإنسان ، بحيث يصعب تعامل أفراد كل فرقة مع أفراد من فرقة أخرى . ورأيت (صورة) الوحدة فى حفلات البذخ التى يقيمها تجار حلب ودمشق

وحمص ، وسمعت لأول مرة الموسيقى التركية والموسيقى الشرقية القديمة ، كنت ، كأن عالما سحريا انفتح أمامى ولم أكن شاهدته من قبل ، تذكرت حجرتى بالبدروم عندما اكتشفت أن السيدة التى تسكن بجوارى (امرأة هوى) وأنها تحترف البغاء ، ياه ! إنها تبدو فى البيت سيدة عادية ترتدى قميصا أصفر مثل كل نساء البيوت ، وتصنع المحشى والملوخية وتشترى كما تشترى كل النساء ، ثم تقسم بالله إنها تحاول أن تتعامل مع الناس بشرف ، وعندما تبدأ جولة (العمل) تذكر الله وتدعوه أن يوفقها وأن يرزقها رزقا حسنا . . ياه ! لم أكن أعرف أنها مثل بقية النساء ، كانت هذه أول مرة أرى فيها امرأة من هذا النوع ، وأيضا كانت هذه أول مرة أرى تجارا من هذا النوع يبيعون السياسة ويتعاطون الأحزاب ويتباهون بفرقهم الإسلامية ويخططون للإطاحة بالحكومة على بركة الله وبإذنه ولا أحد يصدق ولا يريد أن يصدق ، وتيارات تفور وتدور تحت السطح ، والإحساس الداخلى أن السوفييت الملحدين يتدخلون ، وأن حكومتنا تخضع لهم .

و(التياترو) هو اسم غرفة العمليات ، هكذا كتب عليه وبحروف كبيرة ، دخلت إلى هنا عدة مرات ، تركنى الممرض الذى يدفعنى على مقعد متحرك بجوار جسد شخص ميت ، وراح ينهى الإجراءات وأنا أرنو إلى الرجل الممدد بلا حراك ،

لم أشعر بشيء . . و في الجراحة الثانية شعرت وهم يقومون بخياطة فتحة الصدر و خاصة غرزتين إحداهما وسط البطن والثانية في منتصف الصدر . . و الغريب أنهما ظلتا تنزفان مدة طويلة . . وغرز الصدر احتاجت إلى جراحة خاصة لإنقاذ ما تلف من عظام الصدر ، ولكن بعد عدة أشهر . . أتذكر تلك العينين السوداوين ، وهل هي ممرضة بمستشفى (أكسفورد) أم إنها تلك الفتاة التي كانت تتدرب تحت إشرافي منذ ما يقرب من أربعين عاما؟ ياه ! الزمن يمر . . جاء الطبيب(شرم برم) وأخذ عينة أخرى من الدم وكشف عن الجرح أعلى الصدر وقاس عمقه ثم أمر بالمزيد من الأدوية و لم يحاول الإنصات إلى حديثي ، توجه بحديثه إلى ابنتي لأنني بالنسبة له لا أعرف اللغة الإنجليزية . . ضحكت .

دخل فجأة، صاح الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله (ﷺ) حي على الصلاة، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وضع يده على ظهري ، . . لكنته هندية أو باكستانية و قال « اللهم رب هذه الدعوة التامة و الصلاة القائمة آت محمدا الفضيلة والوسيلة والدرجات العالية الرفيعة ، صدق الله العظيم و صدق رسولنا الكريم و نحن على ذلك من الشاهدين الشاكرين ، صلى بجواري . . و صليت معه . . ثم جلس يتلو قول الله سبحانه

و تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لله ما فى السموات و ما فى الأرض وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و الله على كل شىء قدير ﴾ .

اسمه (محمد أيوب خان) من باكستان ، و عندما علم أننى من مصر و أننى مسلم ، قرر أن يزورنى . . و هكذا صارت صداقة ، وود، و لم يتخلف عن زيارتى طوال الأشهر الطويلة التى قضيتها فى لندن حتى الآن . . صرنا الآن أكثر من عشرة مواطنين . . جاء اليوم أحد ضباط الشرطة المتقاعدين و معه زوجته ، رجل بدين و لكنه متفائل جدا ، كان يدعونى (شاويش المستشفى) بحكم أننى أقدم المرضى ، زوجته سيدة طيبة ، عرضت على ابنتى كل المعاونة ، شكرتها ابنتى . . و تمنيت أن تتم الجراحة لزوجها على خير . . عندما أنهى جراحته و سمح له بالتحرك أصبح الآن يتردد على حجرتى ملبيا كل ما أطلب ، سمع زوج مريضة من الإسكندرية أننى أشتهى جبنًا مثل جبننا الأبيض ، جاءنى فى اليوم التالى بعلبة كاملة ، و جاءت حماته و هى تحمل دجاجا مطبوخا بالفعل فى الإسكندرية و خصتنى بكمية وفيرة ، لا يتخلف زميلى (فاروق) عن الحضور و عن تزويدى بكل المعلومات ، شجعنى على إملاء عامودى

الأسبوعى و إرساله بالفاكس ، و شجعنى على إملاء قصة طويلة لنشرها فى ملحق الجمعة ، . .

تذكرت أنهم فى سوريا كانوا يخططون للانفصال و نحن نقيم جسور التعاون ، بل كنت أنفق أسبوعيا ما يقرب من مائة ألف من الجنيهات على التبادل الثقافى بين الشباب السورى و المصرى ، و أخيرا ، حاصرونا فى إستاد دمشق و لولا فدائية لاعبى الفرق المصرية لكنا الآن فى عداد الأموات ، فقد تم حصارنا بقوات من الجيش و فرق من الحرس و راحوا يضربوننا و اضطررنا للرد ، و هنا ظهرت مواهب لاعبى كمال الأجسام و على رأسهم بطل العالم (الجندى) ، ولاعبى الملاكمة ، و أيضا بقية الفرق التى خاضت حربا و كأنها معركة حقيقية حتى استطاعوا إخراجنا من الحصار ولم نصب إلا ببعض الجروح السطحية ، أحاول نسيان هذه الحادثة فحفلات الموسيقى العربية فى حلب و حمص تذكرنى بليالى سوريا الجميلة و الأصدقاء الذين احتفظت بهم !

لا أدرى لماذا يستخدم اللص ، و النصاب ، و الخائن ، جملة توكلنا على الله ، هل يتصور أنه مقبل على عمل طيب ؟! ضحكت عندما طاف هذا بخاطرى . . كانوا قد تجمعوا حولى ، بعضهم قارب الشفاء لهذا فهو قادر على الحركة حتى غرفتى و البعض الآخر فى انتظار موعد الجراحة ، و أقاربهم يتحركون

يسألون و يهتمون بكل شيء ... تزعجهم حالتى ، أردد أن حالتى حالة غير عادية ، و أن جراحتى كانت بمستشفى آخر غير هذه و على يد جراح إنجليزى و ليس على يد الپروفيسير ، و الكل يتكلم ، يحكى عن العذاب الذى لقيه و عن البدل النقدى الذى لا يكفى لشراء كوب من الشاى . دخل رجل طويل القامة وحيانا بتحية الإسلام ثم راح يسلم باليد على كل من فى الحجرة ، ثم جلس و أخذ يتلو القرآن ، و عندما انتهى قال : إن اسمه محمدًا ، وإنهم فى الحى المجاور سوف يجتمعون غدا لختم القرآن و الدعاء لنا بالشفاء ، و إن يومهم يستمر من الصباح حتى المساء ، يتخلله ساعة للراحة و تناول طعام خفيف و بعض الشراب الساخن ، كل منهم يحضر طعامه ، و النساء أيضا يفعلن هذا ، و سوف يخصصون الغد للدعاء لمرضى (الأولد كورت) ثم قال موجها الحديث لى :

- أريد أن أذهب إلى مصر لأرى فرعون .

حملق الموجودون فى وجهه ، قلت بصوتى الضعيف :

- ومن فرعون هذا ؟

قال فى إنجليزية واضحة :

- الذى جاء ذكره فى القرآن ، أكيد إنكم تحتفظون به ، على شكل تمثال أو على شكله القديم فأنا أعرف أن فى مصر علم التحنيط .

قلت :

– فرعون هذا لا وجود له ، وكلمة فرعون تعنى البيت الذى يحكم منه الملك ، وتجاوزا قالوا لساكن البيت (فرعون) ونحن لا نعبد إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وأخبرته عن (إخناتون) الذى يقال إنه رسول ، وكان ملكا حكم مصر مدة طويلة ووحد الدين . ونادى بعبادة الله الواحد ، أول من نادى بعبادة الله فى الزمن القديم ، وكانت مصر أول دولة وأول شعب عرف الوحدانية ، وأن هذا الشعب لم يسجد لصنم ولم يعبد الحجارة ، حتى فرعون الذى جاء فى القرآن كان يدعى الألوهية وهو يعلم أنه ليس إلها وأنه يستمد ألوهيته من الله . . مضى الرجل وهو يحذرنا من أكل اللحوم والدجاج الإنجليزى لأنهم لا يذبحون بالطريقة الشرعية ثم أنهم يطعمونه دما محرما .

وحاولت أن آكل الفاكهة أو الجبن الذى يرد لى من الأصدقاء ، وكانوا يحضرونه من تركيا أو من مصر ، شعرت بالدوار ، وغبت عن الوعى الليلة الماضية التى لم أتحدث فيها إليكم ولا أدرى ما إذا كنت سأواصل الحديث أم أن هذه نهاية المطاف ، لا أريد أن أثقل عليكم بالحديث عن الألم واحتباس الصوت إلى درجة انعدامه ، ولا عن يدى التى تؤلمنى ولا تستجيب للعلاج ، والدماء التى تغطينى ، والأطباء

يهرولون ، ولاشىء غير الخواء ، ولكن أتذكر تسبيحه ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

قررت أن أصلى الظهر فى المسجد الجامع بالرياض ، (مسجد الحكم) ، وذهبت إلى هناك والمسجد كبير جدا ، وقد أصلحوه وتوسعوا فيه ، وقابلت العديد من المصريين لاعمل لهم، والفاقة تبدو واضحة على وجوههم، وعندما جلسوا بجوارى وعرفوا أننى مصرى انفضوا من حولى فى رعب وفزع ، وخرجت من المسجد ، وذهبت إلى (البطحاء) وهو ميدان رئيس فى الرياض ، ووجدت الناس وكأنهم يوم الحشر ، جماعات متراصة ، أدقق النظر ، فإذا كل جماعة منهم لها ملامح واحدة ، وكأنهم أمة واحدة ، إنهم لا يفعلون شيئا إلا الوقوف هكذا ، والشمس تلسع الوجوه .. هربت إلى الحوارى ، اشتريت ملابس جميلة لأولادى كنت سعيدا بالملابس رغم أنها أرهقت يدى من حملها ، اشتريت المزيد ، وتذكرت شوارع الحميدية بدمشق ، وحركة الشراء ، المصريون يشترون كل شىء وتجار الشارع سعداء وفى كل أسبوع أقود مجموعة جديدة ، وفى كل أسبوع أزور مع رفاق الرحلة شوارع الحميدية ، والمال ينسال فى الشارع ، ومع ذلك أجبرونا على الرحيل دون حمل شىء .. وكنت عادة لا أشترى إلا ملابس للاستخدام للمرة الواحدة ، لأنه لا وقت عندى لغسيل الملابس ، لهذا لم أفقد الكثير ، ولكن زملائى فقدوا

الكثير . . وعدنا بعد أن شعرنا بأن كل ما فعلناه كان بلا معنى و لا فائدة ، عدت إلى قواعدى فى المجلس الأعلى للشباب أحاول أن أعوض فشلى ، و طاوعنى من بيده السلطة، فرحت أنشغل فى إنشاء العديد من مراكز الشباب و معسكر اتهم ، . . . و لكن هل اكتفيت بهذا العمل ؟ لم أفعل . تعودت أن أعمل فى أكثر من عمل ، بدأت فى إنشاء شركة للسياحة ، و تأليف كتاب عن الرحلات ، والدخول فى سلسلة من المعاهد العليا و السفر إلى إيطاليا ، وهذه لها حكاية خاصة . . أنا يا زوجتى نصف مجنون و نصف غبى و متهور و عاطفى ومتقلب و أشياء عديدة ، لا يمكن أن تصنع إنسانا سويا . . تهاجمنى آلام اللوزتين و ألم فى الصدر وأشعر أحيانا بالصداع و لا أستطيع النوم ، عندما أرقد عقلى يدور مثل الماكينة (الخرسانة) كل ما أكتبه أو أفعله يدور و أنا راقد ، أعد الساعات ، نحن الآن فى الثانية بعد منتصف الليل ، ها نحن نقترب من الثالثة صباحا ، سوف يؤذن لصلاة الفجر بعد قليل ، لم أنته بعد من ترتيب حركتى فى الأيام القادمة و أيضا محاسبة نفسى عن الأيام الماضية ، أنا الآن بمستشفى لا أملك إلا رصد ما سبق و البكاء على ما فات ، أخاف الليل و الطبيب يعطينى جرعات كبيرة من الحبوب المنومة، لا أنام ، أتابع الليل الأسود خارج نافذتى . . أحيانا أتصور أشياء جميلة ، شاهدت منظرا منفرا فى التليفزيون البريطانى . . اغتصاب فتى فى الخامسة عشر فى مدرسة داخلية أو فى سجن لا أدرى ، لم

أر المشهد كاملا ، فقد أسرعت بإغلاق الجهاز ، ولكنه ظل يطاردنى فأنا لا أحب العنف ، انتحر الفتى بعد الحادث ، ثارت نفسى ، غضبت غضبا شديدا ، لماذا لم يحاول قتلهم ؟ لماذا لم يحاول الانتقام منهم ؟ لماذا أسرع بالانتحار؟! . . الإحساس بالعار سيئ مهين ، ولكن لا يكفى الإحساس بالعار يجب أن يجاوره العنف ، الانتقام ، الأخذ بالثأر ، لماذا تبدو أفضل منى ، كلنا عجزة مصابون بالإنسانية الذليلة ، فلماذا تحاول أن تأخذ منى ما لا حق لك فيه ؟! لماذا تحاول أن تتنمر ، أن تصبح أسدا و أنت مجرد خروف قابل للالتهام ؟! نحن بشر ، لا . . لقد أزعجنى هذا الذى رأيته ، لا أحب الظلم ، ضربونا فى إستاد دمشق ، لكننا حولناها خرابا فوق رؤوسهم ، أطحنا بهم قبل أن يطيحوا بنا ، انسحب الجيش المصرى ، لماذا لم يحاول الدفاع عن المواطن المصرى ؟! . . لماذا نشعر بالقهر ؟ يحجزوننا يوما كاملا فى مطار جدة ، لمجرد أننا مصريون ! إننا لا نهتم . . نحاول الانتحار . . . لا أحب الانتحار ، ولا أحب الظلم ، ولكننى أعشق : العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم . . وإذا كنت أنت إنسانا له عقل ، أنا أيضا أملك ما تملك ولى حق الدفاع عن نفسى ، بل أقتلك إذا لزم الأمر ، والبادئ أظلم ، هكذا تعلمت ، وهذا الطبيب الذى سمح لنفسه أن يحولنى إلى شبه إنسان عاجز مريض . . سوف أنتقم منه ، لو أستطيع قتله لفعلت ، ولكن هناك أساليب أفضل ، وأيضا هذا الأستاذ الذى

كان صديقا و الذى باعنى للطبيب الإنجليزى ، لقد تحولت الحياة إلى حياة حشرية دموية ، لأننا انسحبنا بعد ذلك من اليمن ومن سيناء ومن كل مكان . انسحبنا بعد أن تظاهرنا بالقوة و ما نحن كذلك . . الليل لا يريد أن ينتهى ، وأنا فى ضيق شديد أتمنى أن تأتى الممرضة لتعلن أن الساعة تدق السادسة ، أريد أن أتحرك من الفراش ، أن أترك الغرفة ، أن أشرب كما تعودت فى الماضى كوبًا كاملاً مرة واحدة ، أريد أن ألقى جسدى فى البحر و أسبح فى الماء البارد ، و أغوص ، و أشاغب من حولى ، وأجرى خلف ابنى ، وأمسك بابنتى الخائفة . . الماء يتدفق حول جسدى باردا لطيفا ، وينساب داخل حلقى رقراقا متدفقا يروى الظمأ ، و لكن الصباح لا يريد أن يأتى . . و أتذكر الصلاة وأصلى ، وأسبح و أغوص فى عالم جميل يهدهدنى . أقف فى نهاية الطابور ، الرجال يرددون بصوت جماعى رتيب « الله . . الله . . أردد معهم » « الله . . الله » يصفق المنشد و هو يردد صلاة الله على محمد صلى الله على الأمين ، . . أسبح باسم الله ، أردد « الواحد ، الأحد المنان . . يا رب خذ بيدى ، أنقذنى ، ألجأ إليك أنت البداية والنهاية الملجأ إليك و بك ، اهدنى إلى الصراط المستقيم » و جاء الصبح !

* * *

الفصل السابع

أسرعت نحوى و السعادة تغمرها ثم وضعت طبق البيض المقلى المغطى بخبز أسمر ، قالت : جئت به توا من المطبخ أعرف أنك تحبه هكذا . . كل ، أنت لا تأكل و لا أحد يود أن يطعمك ، البيض يصنع فقط فى المطبخ الرئيس ثم يوزع على الأقسام التى توزعه بدورها على المرضى فيأتى إليهم باردا . . . إنهم يتشاجرون، وابتسمت . . رغم الإحساس بالهزيمة إثر ليلة مملوءة بالأحلام الموءودة ، و الآلام التى تقسم الظهر . نظرت إليها ، تلك السمراء الطيبة ، إنها من جنوب إفريقيا ، متزوجة من رجل أعمال إنجليزى أبيض يعمل فى هولندا ، لديها أربعة أطفال تعمل هنا فى قسم نظافة حجرات المرضى و لكنها دائمة الابتسام سريعة الضحك تآلفت معها بسرعة و بدأت تقدم لنا المعونة كلما أمكنها ، ليس من وظيفتها إحضار الطعام ولكنها . . تفعل ذلك من أجل خاطرى . . تسكن فى بيت ذى حديقة و تعيش حياة سعيدة مع أولادها و زوجها . . السيدة المشرفة على الطعام فى القسم تعاملنى أنا و ابنتى بطيبة شديدة ، و مرح إيطالى لطيف ، فهى دائما فخورة بأنها من أصل إيطالى ، تحب كل من يأتى من بلاد البحر المتوسط ، و قد أحبت ابنتى و دثرتها

بأمومة بالغة العطف ، إلا أن السيدة السوداء تحاول هى الأخرى أن تحضر لى البيض المقلى كل صباح فى السادسة صباحا ، و تحاول أن تتكلم معى و لكن مرضى كان شديدا و حالتى تزداد سوءا ، فلم أعرف كيف أبادلها نفس المودة ، بل نفس الحديث وحرارته ، ظلمتها بصمتى الدائم ، وعندما انتقلت إلى المستشفى الثانية وجدتها هناك أقصد مثيلتها ، سوداء أيضا من جنوب أفريقيا و تعمل فى النظافة ، تضحك باستمرار كما كانت تفعل السيدة الأولى فى أكسفورد وتسرع لتلبية أوامرى ، وتحضر لى هى الأخرى الأطعمة خاصة من المطبخ ، بل تطوعت بغسيل الملابس بعد أن تركتنى ابنتى و سافرت و راحت هى تعمل لى ماكانت ابنتى تفعله ، وحاولت إعطاءها نقودا و لكنها رفضت ، كانت أصغر سنا من السيدة السوداء فى أكسفورد ، و كانت ظروفها معى أفضل فكنت أبادلها الحديث ، و أحيانا أخبرها بأننى سوف أصحبها إلى مرقص يوم الأحــد عندما أكون قادرا ، فكانت تضحك ، وهى تضحك دوما و لم يكن هناك ما يضحك .

محطة (الكوتش) أقصد محطة أتوبيس الأقاليم تقع فوق رأس الطريق الأسود الذى يقطعه هذا (الكوتش) جيئة و ذهابا كل خمس دقائق بجوار سريرى ، و الجو الحار خانق و لا نسمة هواء ، أكاد أشم رائحة تراب الحجرة و أنادى على السيدة التى

تسرع بتنظيف الحجرة ، و تضع لى مروحة هوائية و إناء به ثلج و تقول :

لم نشهد هذا الحر منذ سنوات عديدة ، و الماء شحيح ، و لا يأتى إلى البيوت إلا كل ثلاثة أيام و الحديقة ذبلت و كادت تموت .

الجو خانق ، لا أدرى لماذا لم يفكروا فى وضع أجهزة تكييف ؟ ثم لماذا أقاموا مركز جراحات القلب بجوار محطة الأتوبيس ؟ إنه يعذبنى ، و أشم رائحة نفاذة و كأنها صادرة من داخلى ، أتحمل ، لم تعد (لويزا) تعاملنى معاملة حسنة ، أو هكذا أصبحت أتصور ، و أيضا هذا (المايكل) الذى يتباهى دائما بأنه زار مصر و أقام فى فندق (هيلتون) . . هذا الممرض يعاملنى و كأننى مجرد شخص معتوه ، و الممرض الطويل الذى تصورت فى أول الأمر أنه رجل عاقل أخبرنى بأنه قضى الليل مع زملائه فى شرب الخمر ، و أنه يفعل هذا دائما و يتغنى بحبه للخمر و يؤدى عمله فى روتينية مملة . . ناديت على (لويزا) كانت تبدو مثل طالبة تحبو فى الصف الأول لا يبدو عليها خبرة الفتيات الإنجليزيات المحنكات ، وجدت لها مثيلا بعد ذلك فى مستشفى (الأولدكورت) تلك البولندية التى تعمل فى الكافتيريا و لا تعرف شيئا عن العالم المحيط بها بل ارتبكت عندما اكتشفت فجأة أن غدا عيد ميلادها الخامس و العشرين ، لويزا كانت

مثلها ، جاءت و عقدت صداقة وطيدة مع ابنتى ، و أحسست بأنها سوف تعاملنى معاملة حسنة أو على الأقل سوف تلغى هذا البرود الإنجليزى ، ستكون أكثر حرارة فى التعامل ، و تذكرت حنان ممرضتى فى مستشفى الفيروز التى كانت تصنع لى الشاى ، و هى لا تشربه ثم تشكو من زوجها لأنه دائما يذهب إلى البيت قبلها و يأكل الطعام الذى أعدته طوال الليل ثم لا يترك لها شيئا ، تقول هذا كل يوم و تضحك ، و أنظر إلى يدها و هى تناولنى الدواء ، أو تأخذ عينة من الدم ، أو تساعد الطبيب فى رفع الأربطة ، أتعجب : كل هذه المهارة فى يدين ظلتا طوال ليلها تصنعان (صوابع المحشى) ! أقارن حكيمات مستشفى (الفيروز) بممرضات و حكيمات (أكسفورد) ، هنا لا يكلمونك فى صناعة المحشى أو كيف تضع البصل فى السمن بطريقة لا تجعلك (تعطس) كما كانوا يحدثوننى فى (الفيروز) ، أو قضاء الليل فى محاولة للبحث عن اسم فتاة لطبيبة على وشك الولادة ، يقولون هذا و هم يتحركون و يقدمون الخدمة الطبية للمرضى ، يتضاحكون معى لأننى متابع كما يقولون و مشترك فى الحديث عن محشى ورق العنب ، بل إن الأستاذ الجراح المصرى الأصل و الأمريكى الجنسية الذى أجرى لى الجراحة الأخيرة ، كان يحدثنى عن عشقه للمحشى ، و كيف أنه كلما زار أقاربه وجد أنهم قد أعدوا له أطباقا من المحشى ، يقول هذا وهو يتابع فى

اهتمام آثار الجراحة ويأمر بما يراه ، و أدعوه أنا أيضا إلى (حلة محشى) ولكن بعد أن أعود إلى بيتى .

تختلط الأمور فى عقلى ، ولا أدرى هل مازلت فى أكسفورد مع (مستر وسبى) أم نقلونى إلى مستشفى أخرى ، تشابه الأمر على ، أردت أن أتحرك ، أن أفعل شيئا . قالت (لويزا) : إن جارى مسلم ، وإنهم يجرون له عملية خطيرة لمرض خطير أصيب به ، و إن ولده يجلس وحده فى الحجرة يبكى . حملتنى إليه . . كان فتى نحيفا أسمر الوجه لم يكن يتكلم العربية قال بالإنجليزية : إنهم أخذوا والده إلى المسرح ، يقصد غرفة العمليات ، وإنهم تأخروا . قلت (للويزا) : دعينى معه ، حاولت أن أسرى عنه . والده إمام المسجد ، و هو يعمل فى مطعم إقامة الأسرة هنا فى أكسفورد . . لم أتركه إلا بعد أن أخبروه بأن الخطر قد زال عن والده . دفعتنى (لويزا) إلى حجرتى ثانية . فى اليوم التالى جاء لزيارتى وأحضر معه طعاما باكستانيا : أرزا ودجاجا ، كانت رائحة الطعام تبدو مألوفة فهو نفس الطعام الذى نأكله فى مكة و المدينة و نحبه ، أكلت ابنتى و لكننى لم أستطع كان حلقى يؤلمنى و الرغبة فى الطعام غير موجودة ، و فى اليوم الذى يليه جاء أيضا و معه زوج شقيقته و كان معهما طعام كثير ، قال إنه طعام حلال لأنه مذبوح على الطريقة الشرعية ، و إنهم تخصصوا فى صناعته . حاولنا أن

نشكرهم فالطعام كثير و لكنهم أبوا ، و تكررت الزيارات ، حتى جاء الأب أخيرا ، رجل ذو لحية طويلة بيضاء رأسه يحيط بها شاش أبيض كثيف و معه زوجته التى شكرتنا على حرصنا على السؤال عنهم و كنا بجوار ولدهم الصغير ، وأخذ الرجل يتمتم بصلاة شكر ، وانصرفوا جميعا ، و لكن ظلوا يرسلون لنا الطعام حتى غادرنا المستشفى .

وزوَّار المرضى مختلفون ، متباينون ، كان حظى منهم كثيرا : يحضرون ، يتكلمون أحيانا عن تجارب مرت بهم أو بأقاربهم ، و أحيانا لا يتكلمون عن المرض ، وكنت أحيانا أشترك معهم فى الحديث و أحيانا أخرى أظل صامتا ، و إن كنت أعترف الآن و أنا فى وحدتى هذه بأنهم جميعا - بلا استثناء - كانوا رحماء بى ، أسعدنى وجودهم سواء أكانوا مجرد مصريين جاءوا للواجب أم من أقطار أخرى ، هذا بالإضافة إلى التليفونات التى لم تكف عن الرنين و السؤال ، و تذكرت حديثا قدسيا معناه أن الله سبحانه و تعالى سأل عبده لماذا لم ترنى يا عبدى ؟ فقال العبد وكيف أراك يا الله ؟ و أنت الله ، قال : ألم يكن فلان مريضا قال : بلى . قال الله تعالى لو كنت زرته لوجدتنى عنده ؛ فأنا عند عبدى المريض حتى يشفى ، صرخت من أعماقى : « يا الله أعلم أنك هنا بجوارى امدد يدك إلىَّ فأنا أمدها قدر استطاعتى و أعلم أنك بجانبى ، فإذا كان المكان

والزمان محدودين لا يسعانك فأنت خالق الزمان وخالق المكان، امدد يدك إلى، أنت الشافى أنقذنى يا الله، أسعدنى هذا الحديث القدسى، وظللت أردده، وأرى زوار حجرتى يتوافدون وأنظر إليهم، هم عباد الله الذين يراهم الله، أسألهم الدعاء. وحضر رجل مسن بريطانى ظل يردد أنه زار مصر مع (وينستون تشرشل) عندما زار تشرشل مصر أيام الحرب، وأنه أكل حلاوة وطعمية. وظل يردد هذا كلما حضر لزيارتى علما بأنهم أربعة أشهر فقط هى كل ما تبقى له فى الحياة، ومع هذا يتحرك ويقرأ، وكلما قرأ شيئا يخص بلدنا يرينى إياه، ويكرر أنه يتمنى أن يأكل الحلاوة والطعمية. فقلت لابنتى: أرسلى فى طلب ما يشتهيه من الأصدقاء، ولكنه قال: إنه يحب أكلها فى مصر، وإنه سوف يسافر بعد أن يخرج من المستشفى، كان رجلا طيبا يدفعنى لكى أحاول التماسك.
وزارنا صديق له زوجة فى حالة صحية سيئة وتقيم بالمستشفى أكثر مما تقيم فى البيت، يزورها يوميا ومعه بناتهما، عرف بوجودى فجاء مسرعا، حمل إلينا من الفاكهة ما لا طاقة لنا به، أصنافا وأشكالا نادرا ما تجتمع فى وقت واحد، ولكن لم أكن أرغب فى الطعام أو الشراب أو الفاكهة، وظلت مكدسة بغرفتى لا ندرى كيف نتخلص منها، ومع هذا ظل يزورنا كل مساء جالبا معه كل ألوان الطعام والفاكهة، وعرفنا أنه يدير مجموعة

محلات أطعمة عالمية مشهورة ، وقد أخذ ابنتى إلى أحد المطاعم لتشاهدها وتأكل ما تشاء حسب رغبتها ثم دار بها أنحاء أكسفورد ، وكنت أنا وهى لم نريا مدينة أكسفورد ، ويوم تذكرت أن أول قصة قرأتها وأنا طفل كانت بعنوان (فول مدمس أكسفورد) وأذكر أنها كانت عن تجربة أحد الطلاب من مصر أقام مطعما للفول المدمس فى أكسفورد خلال دراسته هنا ، وظلت أكسفورد مرتبطة فى ذهنى بالعلم والعلماء والأدب والفنون والجامعة ، كما ظلت قصة الفول المدمس تدور فى عقلى كلما أكلت هذا الطعام ، والآن لا أرى فولا مدمسا ، ولا أرى علما ولا علماء ولا جامعة ولا أدب ، مجرد حوائط بيضاء لحجرة كئيبة فى قسم جراحات القلب ، وجراح اغتالنى ثم هرب وتركنى بين الحياة والموت ومستشفى تمور بالمرضى والممرضات والأطباء ، وتشعر بأنك داخل مستشفى القصر العينى بضجته الفريدة ولا أحد يهتم بك ، جيش من الأطباء ولا تدرى من هم على وجه التحديد يسألونك كل صباح ثم لا يفعلون شيئا ، وطبيبات العلاج الطبيعى وكأنهن يعملن فى سيرك مجوّل يتحركن حولى فى بهلوانية لا أفهم معناها ، ثم لاشيء بعد ذلك ، ممرضات متحجرات القلب لا يفعلن شيئًا كأنك مجرد (رجل خردة) لا نفع فيه ، متكبرات ، الكثير من البرود - والكثير من الإهمال ، ثم يقولون لك التمريض

هو الأهم ، و لا أدرى أين هذا التمريض و أنا أتبول فى فراشى و أكاد أفقد السيطرة على جسدى - أنا إنسان مهزوم ، لولا التمسك بالإيمان بالله لأسلمت الروح ، والروح من عنده وحده ، و الشفاء من عنده وحده ، و هؤلاء لا يعرفون هذا ، و لا يودون معرفته و لا يهتمون ثم يقولون : المهم التمريض .

كنت قد اشتريت أسدا بنيا جميلا من الفرو الناعم -ووضعته أمامى فى الحجرة عندما دخلتها لأول مرة ، و كنت أضحك أنا و ابنتى كلما نظرنا إلى الأسد الصغير الذى اشتريناه لولدى (محمد) و لكن عندما رأيت ابنة صديقى صاحب المطعم و هى تحدثنى بالعربية ، فهى تعيش فى مصر منذ فترة الدراسة و لا تأتى إلا فى الموسم الصيفى ، أسرعت بإعطائها الأسد حتى أن ابنتى تأثرت بشدة لأنها كانت تحب هذا الأسد الصغير و تود أن تعود به إلى أخيها الصغير حتى تسعده ، وكنت قد أحضرت معى كثيرا من الهدايا ، فرحت أوزعها على هيئة التمريض . . ، وأعطيت ابن الجراح إحداها كما أعطيت الجراح هدية حملتها من مصر ، شعرت بأن الهدايا لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء الذين أخذوها أو كانوا من البرود و عدم الإحساس لدرجة أننى ندمت بعد ذلك على تقديمها إليهم ، و عندما جئت هنا إلى المستشفى الأخرى كانت ثمرة (الجوافة) أو (حبات التمر) التى أعطيتها للممرضة تقابل بشكر لا حدود له .

كانت ابنتى تجرى اتصالات تليفونية بأسرتى ، و كنت أكتفى بسماع أصواتهم فقط لعدم مقدرتى على الحديث ، مجرد سماع أصواتهم و كنت أبكى لأننى لا أستطيع الإجابة على ابنتى أو على ابنى . . . .

جاء بطلعته البهية فى اليوم الخامس و الستين كان رقيقا و طويلا و مهيبا حاملا بعض الزاد محييا ، و قدم لنا الزاد ، و قال فى إنجليزية رقيقة : إن هذا نصيبك ، ثم بالعربية (أمر الله) قلت فى عفوية : اليوم هو الخامس و الستون ، أمسك بذراعى المصاب و أخذ يتلو القرآن بصوت خفيض و لكنه واضح ، ثم قال : الصبر ، ليس أمامى إلا الصبر ، الصبر على البلاء ، و الصبر على المكوث حيا ، أدعو الله كل حين ، و كلما مر بخاطرى ما يضايقنى دعوت الله ، أحاول ألا أتذكر أولادى ، تعودت أن أفعل هذا فى سفرى ، ذات مرة أخذت صورة مشتركة لأولادى و كنت فى زيارة لمدينة دبى ، لم أستطع المكوث أكثر من أسبوع ، كل صباح تطالعنى الصورة التى علقتها على المرآة ، بعدها لم أحاول أن أحمل صورا لهم ، أبتعد قدر الإمكان عن تذكرهم : كيف يلعبون ؟ كيف يتكلمون ؟ تذكرت كل أخطائى و خفت عذاب الله ، و بكيت . سألته المغفرة ، الله أعلم بأخطائى و ذنوبى و هى عديدة كثيرة ، لا تقنطوا من رحمة الله ، أرفع رأسى و أدعو الله المغفرة ، أبكى و أنا قابع وحدى فى ظلام الغرفة سائلا المولى - عز و جل - أن يسامحنى ، إذا كان ما نزل

بى عقابا عن تلك الخطايا و الذنوب فأنا أتحمله و لكن لا يكون بك غضب على ، أنا مجرد عبد ضعيف ، حاولت و فشلت ، وكنت فى كل عام أجلس وحدى لأسجل أخطائى ، و عيوبى ، و ماذا فعلت ، و لكن نسيت هذه العادة ، جذبنى التيار بعيدا ، يسألنى (بانديا) لماذا لم تعد كما كنت ؟ قلت : عجزت عن التحليق . و عجزت عن التركيز ، و ضاع منى الأمل و الحلم ، و لم أعد أنا هذا الإنسان الطاهر الذى يسعى فى محبة الله ، أجلس فى المساجد و أسهر مع الذاكرين . . لفعتنى الثورة ، حملتنى إلى وكر الغرور ، هأنذا على وشك أن أتقلد المناصب العليا ، و أصبحت علاقاتى بكبار الرجال ، و عرفت أن هؤلاء الرجال ما هم إلا قشرة مزيفة تحتها يقبع طفل تسعده كلمة حلوة ، لفظ جميل ، و لا شىء داخل السترة إلا مجرد رجل حالم كان يتمنى أن تصير مصر على رأس الدول ، مجرد حلم لم يمارسه من قبل و لا يعرف كيف يتحقق؟ و لم يدرس ، ولم يتعلم ، و لا يحاول أن يدرس وأن يتعلم كيف يحول الأحلام إلى حقائق ، و الخيال إلى واقع ، قالوا نقيم مجلسا للشباب ، و أقمنا و جلست شهرا وحدى لكى أكتب ماذا يفعل هذا المجلس ثم إذا ظهر ما كتبت تلقفوه و أذاعوه . . ذهبت إلى موسكو و روما و أسبانيا ، و جئت لكى أطبق ما تعلمت ، و لكن كان ذوو المناصب و الأحلام يقفون هناك خلف متاريس الثورة يحاولون ، و كنت مجرد شخص ، جندى مجهول الهوية ،

و لكنه يفعل كل شيء ، فليذهب المجد إلى حيث شاءوا هم ، و لتذهب كل الأشياء فأنا لم أعد أحتمل ، و لا أجيد رد الاتهام إذا وجه إلىّ ، ولا أجيد الإجابة المقنعة ، إذن يجب أن أبقى فى الظل ، و إذا أردت الحديث فأنت هالك لا محالة .

و قلت : إن الدين فى شعبنا منذ أن وجد، وإن حذف الدين و التدين هدم لأركان هذا الشعب . انزعجوا . . قالوا : أنت مجنون . و تكالبت الذئاب ، و أنا وحدى كيف أسبح ضد التيار و أنا لست بطلا فى السباحة ، و ليس لى فى حيل الإنقاذ شىء ؟ . .

جاء بطلعته البهية ، يسألنى أن أشاركه الطعام ، أن أغمس يدى فى الطبق ، حاولت ، ولكن السعال اللعين هاجمنى بشدة ، ارتعب هو ، حاول أن يستدعى الطبيب ولكننى رفضت ، وكنت أود أن يظل معى ، كان يذكرنى بليالى الذكر فى مضيفة (سيدى يوسف) بقريتى - و نفر من أهلى يرددون اسم الله ثم سقونى بلسما ، قالوا هذا شرابنا لا يشربه أحد سواك ، من اليوم لن يمسك ثعبان بأذى ، قلت : اجلس بجوارى وضع يدك على ظهرى و راح يتلو كلمات الله ، الحمد لله يا رب هكذا كان الحلم بالأمس ، و قد تحقق اليوم ، سأذكر هذا ، يحيطون بى لا يفهمون ما أمليه على مسجلى ، كلماتى تبدو مبهمة يسألوننى و لكن ماذا أقول لهم ؟ لاشىء ، إن كل الأشياء تساوت . . من سافر ومن لم يسافر ، ومن كتب و من لم يكتب .

فى السادسة صباحا يحضرون ، يجب أن أغادر الفراش ، إنه غيار الفراش ، و موعد الحقن اليومى و العمل الروتينى فى كل المستشفيات درجات الحرارة و النبض و الضغط و كمية البول و أشياء عديدة ، أحاول أن أرى برامج التليفزيون المصرى ، إنها هنا تذاع بوساطة جهاز خاص ، فى أكسفورد لم يكن هناك شيء من هذا ، كان هناك خط اتصال مباشر مع بيتى بالقاهرة ، و هكذا كنا نتصل باستمرار ، أما هنا فالمكالمات مكلفة و المال بدأ ينفد ، و الأيام تمر ، و لا أحد يعرف متى نخرج من المعتقل رقم ١٦ - و هو رقم غرفتى - يحضرون طعام الإفطار ليظل أمامى ثلاث ساعات كاملة أحاول تناوله و لكن يدى لا تطيق كسر البيضة و لا فتح كيس الجبن و لا كيس الخبز ، و السكين يسقط على الأرض ، و الشاى يندلق دون تحكم ، و أحيانا تمر بى إحدى الموظفات لتقص أخبارها، و تلاحظ أننى لا أستطيع أن أفعل لنفسى شيئا ، تحاول أن تساعدنى ، و لكن البلع صعب و الفم ملتهب ، و أخيرا تحضر ابنتى لكى تجعلنى أرتشف بعض الشاى . فى التاسعة تتغير الأحوال ، فابنتى معى . يحضر الدكتور بانديا و يقومون بتغيير الأربطة و فتح الجراح لإخراج ما تجمع من دماء ، ابنتى ترى أنها محاولة دون جدوى ، يطلبون منها الانصراف ، و لكنها ترفض.. أذهب أنا للصلاة ، أحب الصلاة فى مسجد قريتى ، رطب ، مظلم قليلا ، به نسمة هواء

خفيفة و أحب الصلاة بجوار النيل ، و الماء يجرى أمامى ، كم أشتاق إلى النزول فى الماء و السباحة لمسافة طويلة ، و الماء من حولى من كل جانب ، سكون هائل ، الماء يحيطنى و السماء من فوقى ، ثم لا شىء ، أكمن فى الماء دون حراك ، أتأمل لون الماء و السماء ، أحب لون ماء البحر كما أحب لون ماء النيل ، وأحب السكون ، أذهب إلى حقول البرسيم فى الشتاء ، أنام محتضنا أعواد البرسيم الطرية الرطبة . . تنكسر بعض العيدان تحت ثقل جسدى . . أسمع بكاءها ، أستدير محاولا الاعتذار ، ألملم الأعواد المكسورة ، أعتذر لها ، أرجوها المغفرة ، تسمعنى ، أحتضنها بنعومة ، ما أسعدنى و أنا أعيش وسط هذا العالم الأليف الذى يسبح بحمد ربه ! أرفع عقيرتى مسبحا ، ينسال الدمع من عينى ، أدور بجسدى كله وسط عيدان البرسيم ، البرسيم لا يحيطه شىء ، واسع عريض فسيح ، مثل ماء البحر و ماء النيل ، و أنا وسط هذا المحيط الأخضر يتنفس جسدى بقوة ، ترتعد أوصالى . . محبا عاشقا و لهانا مسبحا لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، أحبك يا الله ، يا معبودى و عشقى ، يا أنا . . الله داخلى ، صنعنى كما شاء ، و صورنى كما أراد ، فأنا منه و إليه ، و من صنعه ، هو أنا . أنا هو واحد أحد، لا إله إلا أنت المعبود الخالق المصور المنان ، أرفع يدى ، ألمس أطراف عيدان البرسيم ، إنها ترقص ، إنها تسبح

إنها تكبر ، إنها تلبى ، أحب رائحة الكعبة ، و أتمسح فى بلاط الحرم ، أرقد عليه أنام ، ترتخى كل عضلاتى ، وأشعر بالامتنان لأننى مسلم و أنظر إلى الكعبة .. كل شيء جميل و لطيف ، يعلو صوتى بالشكر ، أنا مسلم ، وهذه كعبتى نظيفة ، بهية ، لا مثيل لها ، إنها بيت حبيبى و خالقى و مولاى و معبودى ، إنها بيت الله ، كيف لا يكون لها مثيل ! و أصعد إلى الدور الثالث و أنظر إلى السماء لم تعد هناك حدود ، حقول البرسيم ، و موجات البحر و رقرقة ماء النيل و أنا وسط هذا كله ، أصرخ . . يعاتبنى الطبيب فى رفق فقد كاد ينتهى و الألم يصعد إلى رأسى ... أعواد الحديد الساخنة ، أكظم ألمى و غيظى ، ها قد انتهوا ، تردد ابنتى - و لكن أين حقول البرسيم ؟ أين ماء البحر و أين السماء ؟ لماذا تذهب منى الأشياء الجميلة ؟ لماذا أفقد كل ما هو جميل؟ لم أحصل على حب يكفينى ، و لا طفولة أمتعتنى و لا شباب ألهو به و يلهو بى ، و لا أحب كما كنت أحلم ، كل الأشياء التى حصلت عليها كانت معطوبة ، أستغفر الله ، لا حول و لا قوة إلا بالله ، و لا اعتراض على ما أعطاه الخالق لعبده ، الشكر لك يا رب ، كانت ابنتى تراقبنى و طبيبى يجلس فوق رأسى فلم أستطع استكمال ما كان يجول فى ذهنى، ألم أقل لكم إننى نصف معتوه ؟ و نصف . . لا أدرى ما هى الكلمة التى كانت على خاطرى ، دعونى أتوقف.

كنت أذهب إلى الحقول مع عمى ، و هو فى مثل سنى و إن كان يكبرنى بعام أو بعض عام ، و كان عامه هذا يجعله مرشدى و موجهى و هو المسئول عنى ، فإذا أخطأت عوقب هو ، وإذا فعلت شيئا نُسب إليه ، و مع هذا كان يحبنى و أحبه و لم أخاطبه بلقب عمى قط ، وعندما نكون فى حقلنا يجلسنى تحت (الجميزة) بجوار الترعة ، و يذهب هو لكى يساعد الرجال ، و لكن سرعان ما يأتى ليجدنى قد صنعت من طين الترعة تماثيل لأبقار و لحيوانات الحقل المختلفة ، فيتعجب و يبدى دهشته من مهارتى وكنت أحفر فى جذع الجميزة حفرا صغيرة حتى ينبثق منها سائل له لون اللبن و لزوجة الصمغ ، فأطلى به حيواناتى الصغيرة و أتركها لتجف تحت الشمس فتبدو بعد ذلك كأنها صنعت من الخزف . . و يأخذنا النهار و يأتى الليل لنترك تماثيلنا تنام تحت شجرة الجميزة ، ربما نعود إليها فى الغد ، و المسافة حتى دارنا طويلة يغنى فيها عمى أغانى (أدهم الشرقاوى) ، حتى أننى كنت أبكى عندما يصل إلى مقتله على يد الخيانة من صديق . . وعدت وحدى فى ذلك اليوم ممتطيا حمارا أصيلا كان يجرى مثل حصان (أبى زيد) فى الهلالية رافعا عصا رفيعة وكأنها سيف بتار ، فإذا بجماعة من اللصوص و قد تحلقوا حولى فى منطقة تظللها الأشجار الكثيفة حتى تبدو و كأننا فى عتمة الليل و أمسكت برقبة حمارى فى تشبث الموت ، و صارع حمارى

بأرجله الأربعة دائرة الرجال من حولى ، لا أدرى ما إذا كانوا فى طلبى أو فى طلب الحمار ، وفشلوا ولكنهم ازدادوا شراسة ، وراحت صيحاتى الفزعة تستصرخ رجالا لا أراهم ، فإذا بصوت رجل يجيب بقوة وما كاد الرجال يسمعونه حتى انطلقوا هاربين ونجوت ، وكان يوما مشهودا ، فقد انطلقوا من حولنا بكثافة لم نعهدها ، ارتعدت مفاصلى ولكنى واصلت الزحف حتى سقطت فى حفرة الرمال ، وصاح مدربنا فى غضب إننا لم نتدرب بعد كما يجب ، يومها رأيت الشعر ينبت فى صدرى لأول مرة وعرفت معنى الرجولة ، لهذا كانت أوامرى لمجموعتى إطلاق النار على جنودنا الفارين ، ولما زاد العدد عن المعقول جاءتنا الأوامر بالانسحاب ، وأمطرتنا القنابل من كل نوع ، وتشتت شملنا ، ولم نعد إلى دورنا مباشرة ، وكنت حزينا ومكسور النفس باكيا أقبل الكبارى والشوارع والبيوت ، لماذا هزمتنا قيادتنا ؟ لماذا أعطونا السلاح وقالوا لنا كلاما كبيرا ؟ لا أدرى لماذا تتدافع تلك الأحداث لتتمركز فى بؤرة واحدة ؟ إن هذا الرجل لم يكن يعى ما قاله عندما أمر بإيقافى وعدم صرف راتبى ، وإن الكبار عندما يجلسون على المكاتب المكيفة الهواء ويصدرون القرارات لا يعرفون أن بائع الفول لايفهم هذه القرارات ، وأنه يطلب ثمن ما يقدمه من طعام ، وأن الأولاد والزوجة يجب أن يأكلوا ، ولكنهم هؤلاء الكبار يريدون أشياء

عادية جدا ، يريدون بناء مصر المستقبل ، و أن يحفظ الصغار الميثاق ، و أن يهتف الشباب بحياة الزعيم ، و أن يقفوا فى الشمس طوال اليوم لكى يعبروا عن حبهم لزعيمهم و ضيفه ، ويحصل كل منهم على خمسين قرشا . علينا نحن أن نفعل هذا ألسنا ملتزمين اشتراكيين طليعيين !!

الرؤساء و الكبار فى المكاتب يعاتبوننا أحيانا ، و على الوجوه ابتسامة ساخرة يأمرون (بالإيقاف) و عدم صرف الراتب الشهرى . . إنهم يتسلون ويتشدقون بكلمات عن العدالة و البذل و التضحية و نكران الذات . . ثم يأمرون بإيقافنا عن العمل و هم يحتسون المشروبات الباردة . . و صورة الزعيم تنظر إلينا فى بلاهة ! و عندما تصغر النفوس تكون رحلتنا نحن الصغار لزيارة متاحف الظلام و أفاعيل الشيطان لنأخذ منها عبرة و دروسا نستفيد بها لكى نسمع الكلام و لا تطالبنى أبدا بنقطة نظام . . و قد مضت الأيام و سقط الكبار و لكن مازلنا نحن مجرد الصغار تلهو بنا الريح و الأمطار و نسقط تحت عجلات الزمن !

و أسقطنى (العجل) فى النهر ، ورحت أغوص إلى الأعماق ، وزادت الظلمة من حولى أحسست بأننى قضيت أعواما تحت الماء ، ثم شدنى إلى أعلى ورأيت السماء و الأشجار ، وزحف بى عائدا إلى الشاطئ ، كانت الظلمة هى التى تأتى وتروح ، ولمحت كلبى (فوكس) يشدنى من

جلبابى ، ولما أفقت رأيت أعمامى وأخوالى ورجالاً كثيرين يخرجون الماء من جوفى ، وعلمت أن العجل دفعنى إلى الماء وأن الكلب أنقذنى ، لا أدرى هل الحمار أنقذنى من اللصوص أو أن الكلب هو الذى فعل ذلك وأنقذنى من الغرق ، وجلست بجوار خالى ليقص لى قصصا عجيبة كلها لحيوانات وأشياء ونباتات تتكلم . . أحيانا أجلس بجوار شجرة التوت وأسمعها، وفى المنزل جلست إلى مائدة الطعام وسمعتها ، كل الأشياء أسمعها تتكلم . . حتى لمبات الكهرباء ، وأكواب الشاى ، قال خالى : إن (النسر) تكبر وتجبر ولم يطع أوامر سيدنا (سليمان) ، فأرسل إليه غرابا صغيرا ، وقال له : إذا لم تطع سيدنا فسوف يرسل إليك الفكر لكى يقتلك ، ولكن النسر لم يخف التهديد والوعيد واستعد لملاقاة الفكر ، فلم ينم ولم يذق الزاد فى انتظار ذلك العدو المسمى بالفكر وأجهده الانتظار وفقد اتزانه وقوته ، فسقط مريضا . . فإذا بالغراب يقول له لماذا لا تطيع ؟! ولكن النسر الذى كان يغالب الموت قال فى صوت واهن :

– أين الفكر الذى هددتنى به حتى أقتله وأستريح ؟ فضحك الغراب وطار ، وبعد أيام كان النسر قد مات وأصبح حكاية . . كما فعلت السيدة التى أكلتها الغولة ، فالغولة كانت تحب رجلا قويا وكانت تحرسه وتحميه على ألا يقترب من سيدة أبدا ،

وحذرته منهن ، قالت: إنهن يأكلن ولا يشبعن ، ويكذبن ولا تفلح معهن حيلة أبدا ، ولكن الرجل احتالت عليه امرأة ودعته إلى عشها بعد أن تزينت له ، وأوهمته بالحب والإخلاص، وفوق هذا كنز جدودها الأثرياء ، وذهب الرجل ولم يسمع كلام الغولة ، فإذا بالسيدة التى وعدته بالحب تنقلب إلى دب ، وتهشم عظامه وتأكل لحمه ، فهجمت عليها الغولة وأكلتها ، وجلست تندب رجلها الطيب الذى انخدع من امرأة أخرجت جده من الجنة ، ولكن الرجل لم يسمع كلامها وغلبته شهوته ، ففقد عقله ، وبعده فقد حياته ، ويروى خالى أن ذلك حدث فى أيام جده الذى روى عن رجل عاش منذ ألف عام ، وعاشر الجن وعرف لغتهم فعلموه كيف يحيل أرانب الليل إلى أبقار سمينة ، وكيف يسخر جنية البحر لكى تصطاد له الحوت، ولكنه ذات ليلة سقط فى حبائل سيدة كانت تبيع الهوى لمن يدفع ، بكت على كتفيه، وصارحته بالرغبة فى التوبة فصدقها ، ولما فعل كانت نهايته التى تذكرها حوائط الجدران ولا يكتمها السائرون فى الأسواق ، ولكن كل الأحداث تعود للظهور ، وكل المحظورات مرغوبات والعياذ بالله .. كما استفحل أمر المحافظ الذى رفع الزعيم إلى سماء الأنبياء ، استفحل الداء ودفعنا نحن- أرانب الظهيرة - الثمن وصرنا حميرا وأبقارا ندور فى السواقى ونحمل الأثقال ، حتى إذا سقط

المحافظ وسقطت معه كل الصحبة العزيزة الذين كانوا يتندرون علينا و هم جلوس فى مبنى اتحاد الكرة ، لم نعد كما كنا أناسا ، لأننا كنا قد تعودنا حمل البرسيم و جر العربات ، مع أننا كنا ندخل المساجد الخالية و نؤذن للناس للصلاة . لامونا أيضا لأننا خشينا من الغولة و من سيدة الكنوز المسحورة و من جنية البحر و من طمع الدنيا الذى يسبب النكد ، و لكنهم سرعان ما جلسوا على الكراسى و سألونا أن نلتزم بالنظام حتى يعود الماء للنهر الجاف . . .

دكتور(وهبة) صاح فى وجهى بقسوة . ارتعدت أوصالى و خرجت مسرعا من غرفته ، قالوا لقد حضر فى منتصف الليل ترتعد أوصاله من الخوف . وعجبت أن هذا المريض الطبيب الذى أكد له الأطباء الشفاء التام و هو لا يصدقهم و عندما يدفعونه إلى الخارج يعود ، و أسفت لأننى كنت أود أن أتحدث إليه و أن أجعله ينسى مرضه و لكنه عايرنى بمرضى و بصدرى المفتوح و تلك العلامات التى يعرفها بوصفه طبيبا تؤكد له سوء حالتى ، و شعرت بالهزيمة . . لماذا يأتى الشعور بالهزيمة دومًا عقب كل عمل ؟ الهزيمة عن طريق الأصدقاء . عدت إلى حجرتى .

قالت ابنتى :

– أنت بخير يا أبى ، أخبرنى الطبيب بأنك فى طريقك للشفاء بإذن الله . قلت لها فى ثقة : أعلم يا ابنتى أن الأمر كله بيد

الله ، وما أخزانى الله قط ، وأن كل شيء مقدر ومعلوم وأنا راض بقدرى مستسلم له ، ولكننى أتشاغل عنه ، وأنسى مرضى ، وأحاول أن أتعايش وأن أعيش . . ودخلت (عائشة) لتخبرنا بتغيير مواعيد الصلاة ، وقدمت لابنتى جدولا بمواعيدها ، وعائشة جاءت من بولندا مسلمة هاربة بدينها ، ترتدى الحجاب وتدرس الدين وأدب الجاحظ وتستعد لنيل الدكتوراة فى الأدب العربى ، وتتحمس لخدمة المرضى ، جاءت لتعتذر عن سلوك الطبيب المريض ، وتطلب منى أن أواظب على الحركة ، علمت منها أن كل العاملين بالمستشفى يراقبوننى وإنهم يتمنون أن أعبر نهر المرض بعون الله . لم أكن أعرف أن كل طاقم المستشفى من سائقين وعمال وحرفيين يتابعوننى ويتابعون حالتى . . استدعوا لى الدكتور (بانديا) الذى جلس بجوارى ، فقد كنت أتقيأ بشدة وحرارتى بدأت فى الارتفاع وحالتى فيما يبدو أصبحت حرجة ، أمر (بانديا) بأن يرتبوا إقامة لابنتى فى غرفتى ، وأن أظل تحت الملاحظة الشديدة ، ولكن سرعان مازالت آثار الحمى وبدأت أعى ما حولى ، وبدأت أطلق النكات وأروى الحكايات التى سبق وأن سمعتها من أخوالى وهم يطلبون منى أن أكف عن الكلام ، وأنا أحاول ارتشاف كوب من الشاى .

وانكمش الدكتور (وهبة) على نفسه ، وتحلق المصريون

حولى ، يتضاحكون . . جزارين وعمالا وتجارا وقضاة . . فى البداية كانوا ضعفاء يتألمون ، يصرخون أحيانا ، ولكن الأمل فى الشفاء يدفعهم للتجلد . . وتمت الجراحات وبدأ كل منهم يتحرك وفقا لحالته الصحية . فى النهاية تجمعوا حولى . . كانت الممرضة تدفع بالحقنة إلى داخل صدرى لتسحب الدماء ، كان المنظر يبدو بشعا فى ظاهره ، ولهذا كانت ابنتى تتألم فأمسك بيدها وأحكى لها حكاية . تحولت إلى جسد متبلد يكاد لا يحس بشىء وعقلى أيضا يدور فى الماضى ، أحكى عن كلبى (فوكس) ، وقطتى ، وأيضا عن (عمرو) ولدى كيف أداعبه كما كنت أداعبها . . ولكن الدكتور وهبة يلازم حجرته ، لا يريد تركها ، بينما خرج الجميع يتضاحكون ويتجادلون حول شراء الهدايا من أسواق لندن المنتشرة فى الأحياء ، كل منهم ينقل خبرته إلى الآخرين .

وجاء (بانديا) يسألنى المزيد من القتال ، لا أدرى كيف أقاتل عدوا لا أعرفه ولا أراه ، ولكنه أصر على أن يقول لى الكلمات نفسها ، ثم عاد فى المساء ، وراح يسألنى من جديد عن (عبد الناصر) لأنه يحبه ، قلت : ونحن أيضا كنا نحبه ، وهو أيضا كان يحب نفسه ، حتى كره نفسه فكرهناه !! هو السائل والمسئول ، القاتل والمقتول ، أحاول الابتعاد عن الفترة التى سمحت لى الظروف أن تجمعنى بقمة الدولة منذ عام

١٩٥٨ وحتى نهاية عام ١٩٦٥ ، أحاول الابتعاد ، فقد كنت صغيرا جدا ، ساذجا جدا ، كل ما أسمعه أصدقه وأنفذه ، وأقوم به ، تعترينى رعشة وكأننى أصلى ، عندما أخذونى وأنا لا أكاد أخرج عن طوق الطفولة ودفعوا بى إلى التدريب العنيف مع كل أنواع الأسلحة ، ثم دفعوا بى بعد ذلك إلى مناطق كانوا يعلمون أنها معرضة للخطر ، وكنت أصدق ، وأسافر ، وأتعلم من أجل بلدى ، ثم لا شىء . . ، لم أجد شيئا فى يدى . . وعندما أبديت بعض الاعتراض زجوا بى فى عتمة الظلم ، ولا أدرى ماذا فعلت . . ومنذ أيام قال أصدقاء : لماذا لا تكتب عن كل هذا ؟ وكيف أكتبه ؟ الأشخاص – بصراحة شديدة – لم يتغيروا ، من كانوا معنا فى التنظيم الطليعى ، أو الشبابى يتربعون الآن قمم السلطة ، ماذا تم؟ لا شىء . كل شىء مرسوم ، وأنا لست ذكيا حتى أحاول تسلق القمة ، حتى ولو بمصعد كهربائى . .

أرقد الآن وقد حبستنى كل هذه الأجهزة ، تحبسنى فى عيون ابنتى التى تنادى : أفق يا أبى يجب أن أعود بك ، كيف أقابلهم بدونك ؟ ويردد (بانديا) : حارب ، قاتل ، تلميذ نهرو وناصر ما زال يتذكر الحرب . (الباشا) الأسود يضحك ، يقول : انتظر . . إن السلطة خمر ، من هم الآن أبرياء لن يظلوا على حالهم ، لقد سرقوا المقاعد والموائد من قصر عابدين ، بل

سرقوا أطول سلم من مسجد (زين العابدين) بالقلعة ، لم أصدق ، قال إنهم يبيعون مجوهرات القصور فى أوربا ، وإنهم (الأبرياء) كانوا يرسلون بأموالهم إلى سويسرا .. لم أصدق ، وبعد أن دخلت بيوت بعض هؤلاء الأبرياء رأيت سجادا كان قد وصفه لى ، ومقاعد ذكرها ، ومع هذا لم أصدق .. حتى الرجل الكبير يقول وهو يؤنبنى لأننى تمسكت بالقانون : يا شاطر نحن الذين وضعنا القانون ! وضحكت لأن القانون سيظل كما هو ، ويذهب صانعوه .. وقد ذهبوا .. أجلس وحدى بجوار النافذة فى غرفتى رقم ١٦ ، السحب تتماوج فوقى ، أقصد المستشفى ، خفيفة ، تدل على أن الجو سيكون باردا . أنظر إلى السحب .. سرعان ما سادت الظلمة فى الخارج ، ولم يتبق إلا الضوء الباهت فى غرفتى وكوب ماء على المائدة ، وأنا وحدى أكاد أجن من الوحدة .. وقد انقطع إرسال القناة الخامسة وهى التى تذيع برامجها من القاهرة على القناة الفضائية وتربطنا بأهالينا ، وتربطنا بتلك البرامج الهابطة التى كنا نستهجنها ونملها ، ولكنها الآن أصبحت جميلة ولطيفة ومسلية .. لأنها - على الأقل - لا تكلفنا إلا النظر إلى ذلك الجهاز العجيب ، التليفزيون .. ويسكت الصمت حتى أننى أكاد أسمع صوته ..

غرفتى فى نهاية الممر ، أسمع وقع الأقدام من أول

الممر . . لا أحد هناك ، إذا سمعت وقع الأقدام أنتظر أن يكون زائرا أو ممرضة أو طبيبا ، ولكن سرعان ما أتبين أن وقع الأقدام قد انقطع . . أمام غرفتى يقع مخزن الملابس وملاءات الأسرة المغسولة والمكواة ، ويأتون لأخذها ، اللمبة على الحائط مطفأة ، وصورة لمنظر طبيعى فيما يبدو ، ولا أكاد أتبين ملامحه جيدا ، فقد قل بصرى أو ضعف ، بحيث لم أعد أتبين الأشياء بوضوح ، حجرتى تبدو أنيقة وبها الكثير من الكماليات ، بها مدفأة ومائدتان بالإضافة إلى السرير الذى يعلو ويهبط ، والمقعد ، ودولاب صغير عليه جهاز تليفزيون ، وملحق بها من الداخل حمام به دولاب ملابس وبه الكثير من الإمكانيات ، التى يمكن أن يستخدمها . . وكما قلت من قبل : إن النظام اليومى أن آأخذ حماما فى الحادية عشرة ظهرا ، بعده يتم تغيير الأضمدة على جرحى ، لأنهم اكتشفوا منذ أيام أن به ثقبا ، وأن الأمر سيأخذ منهم بعض الوقت . مضت ابنتى إلى مسكنها منذ ساعات كما طلبت منها ، لأننى بكيت وتأثرت بشدة عندما استمعت إلى القرآن الكريم . . خشيت أن يكون هذا غضبًا من الله ، وبكيت خوفا وارتفع ضغطى ، وقلت لابنتى بعد أن جففت دموعى وتماسكت : اذهبى وأنضجى لنفسك طعاما مما أحضره هذا الرجل المبارك ، وأحضرى منه قليلا فى الصباح .

جاءنى (محمد) و هو شاب مفتول العضلات جاء مع والد زوجته و معهما زوجة أبيه و زوجته هو أيضا . تراهم دائما حول الرجل المريض والد زوجته ، و هو رجل لطيف المعشر . . . رأيته مرة أو مرتين خلال التمرين الإجبارى للسير على الأقدام . . ربما يكون من الأفضل الرجوع إلى نقطة البداية ، و الأمر يا صديقى ليس أن تحكى و لكن كيف تحكى ؟ هذه هى المعضلة الحقيقية التى يقف أمامها الفنان ، و تفرق بين المبدع و غير المبدع ، عندما فكرت فى كتابة هذه الأوراق ، ما كنت أتصور أن تكون رواية أو مذكرات أو ما يشبه ذلك ، إنما هى تنفيس عن الإنسان فى محنته ، آليت على نفسى ألا أشكو لغير الله تعالى ، و أتوسل إليه لكى يشفينى ؛ لأن كل ما يحيط بى يهزمنى . . . كلام الأطباء ، كلام الممرضات ، لابد من أن أتحمل الأسابيع الكثيرة القادمة ، حتى أشفى إذا كان لى حظ الشفاء بعونه تعالى . . فكرت أن أذهب إلى منزل قريب ، أستأجره و أقيم و ابنتى آكل طعامها و أراها كل حين و تخرج هى كل لحظة إذا شاءت و أعلم أن المسكن يكلف الكثير ، لا يهم فالمهم أن نستريح من هذا المحبس الإجبارى ، الذى استمر حتى الآن . . و لكن الأطباء قالوا يجب أن نستشير (البروفيسير يعقوب) . . . الذى رفض بشدة . . . يذكرنى بما حدث بعد أن هربت من مستشفى أكسفورد ، و بعد أن توسلت لكل الناس ،

وبكيت وصممت حتى أهرب من تلك الغرفة بمركز القلب بجامعة أكسفورد وبعد أن أحسست أننى أتهدم مثل بيت عتيق يسقط . . هربت من ذلك الخوف اللعين الذى يطاردنى بالليل بعد أن عشت أكثر من ستين ليلة تهاجمنى فيها الهواجس ، أدور فى حكاية غريبة مثل التى رويتها ، وفى كل ليلة ، عندما يضعوننى على السرير أجدنى فى عالم آخر ، أتخبط وأصرخ وأناضل وأحارب وأدعو الله ثم أجدنى فى الصباح قد جلست مقرفصا فى مقعدى والنافذة مفتوحة وأزيز تلك الأتوبيسات أو الكوتش كما يسمونها - يصدر طنينا قويا فى رأسى مع صوت الأذان كل لحظة وأسأل ابنتى عن مصدر هذا الأذان ، وتقول إنه لا يوجد هنا مساجد ، ولا أحد هنا يؤذن ولا يوجد إلا قلة من الباكستانيين ، وكان أحدهم يزورنا . لا أدرى إذا كنت مسهدا أو نائما أو مستيقظا ، أعيش فى عالم آخر ، شككت فى عقلى وطلبت أن يرسلوا لى طبيبا نفسيا أو معالجا وابتسموا ابتسامة الإنجليز هذه ومضوا ولم يسمعنى أحد . فى النهار يأتى إلى كل الأطباء هذا يتعلم وذاك يعلم وذلك يسال ثم لا شىء طوال اليوم ، ولأننى فأر تجارب ، زارنى (وسبى الجراح) الذى قام بإجراء الجراحتين ، ليخبرنى بالنجاح الهائل الذى حققه ، وأنه فعل المستحيل لإنقاذ حياتى ، وتعديل أو تثبيت ما هو بداخل قلبى وشكرته كل الشكر ، ثم حدث بعد أيام قلائل ما يسمونه

بالتسمم . . تعرض جسدى لذلك التسمم بسرعة شديدة ، وأخذونى مرة أخرى إلى المسرح لإجراء جراحة يمكن بها إنقاذى من التسمم ، وخرجت منها مزموم الصدر والبطن ، الآلام تهاجمنى فى كل موضع ويدى اليمنى لا تعمل ، وجلست فى سريرى أحملق فى سماء الغرفة التى ازداد كرهى لها ، والجو خانق حار . . . . النهار يمضى بآلامه وأطبائه وإخصائييه ، الذين لا تعرف منهم أحدا ، إلا ثلاثة من الهنود تقربوا إلى ، حاولوا أن يأخذوا بيدى ، ولكن ما باليد حيلة . . بقيت الممرضات الإنجليزيات حمر الوجوه يهتممن كثيرا بطعامهن أكثر من اهتمامهن بالمرضى ، ليس عليهن إلا تقديم الدواء فى مواعيده المنضبطة ، ثم مجموعة من الأوامر الصادرة منهن إلى المريض ، لا تفعل ، افعل ، لا تحلق ذقنك ، لماذا ترتدى ملابس النوم ليل نهار ؟ أنت كسول تعتمد على ابنتك ، هذا الطعام يجب أن تأكله كله ، هذه أوامر الطبيب ، وآكل الطعام وينتفخ بطنى ويأتون لى بشراب لا طعم له إلا أنه يتميز بأنه مغذى ، لأنه يحتوى على كميات من الفيتامينات والمعادن ، وما إلى ذلك . . . قامت الجامعة بدراسة كل ذلك وتقديمه للمرضى لخدمة الذين لا يأكلون . . ماء أبيض ، ولكن تشربه بطعم اللبن الحامض ، وهذه مجموعة معادن وفيتامينات لا أحب هذا الشراب ، جاءوا إلى بعصائر تبدو من

الخارج عصائر الفاكهة ، ولكن ما هى بعصائر ..طعمها مر المذاق .. وعندما ينصرفون ، أجلس وابنتى .

قبل أن تسوء حالتى تضعنى ابنتى على كرسى متحرك إلى الدور الأول من المستشفى لنرى المحلات هما محلان اثنان ، أحدهما يبيع كل شيء : المأكولات ، والمشروبات الخفيفة ، والآخر للزهور ، ثم بنك مغلق دوما ، نذهب إلى البهو الرئيس ونجلس .. كنت أستريح فى هذا البهو ، وهم يدخلون ويخرجون ، كل من يدخل قد ارتدى تقليعة غريبة ... معظم النساء عاريات تقريبا ، لأن الجو حار بالنسبة لهن ، فخلعن ملابسهن وارتدين (الشورتات) القصيرة وتركن بقية أجسادهن عارية ويمشين بسرعة فائقة ويدخلن بحماس واضح .. ثم بعض المرضى ، وقد أجلسوهم على مقاعد متحركة تدور فى دوائر ، هيصة ، لا أحد يعرف أحدا ، ولا أحد يكلم أحدا ، ومكتب الاستعلامات مشغول دائما بشيء ما ، مكتب بريد تضع به الخطابات ، كل شيء متاح ، وكل شيء يمكن أن تفعله ، حتى أننى بعد أن انسالت منى المياه غصبا ، كنت أجلس فى هذا البهو وأترك بولى ينسال على الكراسى والمقاعد ، ماذا أفعل؟ هكذا أظل ذاهبا قادما من دورة المياه لا أتحكم فى نفسى لابد من أن أشرب لعطشى الشديد أمسك زجاجة المياه وآخذ منها جرعة بصعوبة بالغة ، وأحتفظ بها مدة طويلة حتى تضيق بى

و أضيق بها وأقذفها ، الليل يمر و أنا أعيش حكاية غريبة . . . فى ليلة كنت قائدا لقبيلة تعيش فى منطقة الكويت - و لا أدرى لماذا كانت الكويت بالتحديد - فى زمن ولاية أبى بكر الصديق ، رغم أننى لم أزر هذه الكويت فى حياتى ، وفى الليلة الثانية أجدنى بطلا لحكاية أخرى ، أصول و أجول و أخترق الحواجز وأندفع ، و تندب فى جسدى عدة رصاصات و أموت و أصرخ حتى نهاية الليل ، و لا أدرى ما هى نهاية الليل ؟ أنا أجلس على مقعد أكاد أرتجف من البرد و أحاول أن أجذب غطاء لجسدى ، و لكننى لا أجد القوة لفعل ذلك ، كما أن الاستعانة بالممرضات شىء صعب لأنهن يتصورن أنك فى خدمتهن و لسن فى خدمتك أنت . . حاولت التقرب من إحداهن و لكن هذا لم يشفع لى . . و لم يحاولن مساعدتى مساعدة فعالة ، و خاصة بعد أن هاجمنى المرض بشدة . هذا الوباء الذى بدأ يأكل جسدى . . واختفى (الدكتور وسبى) فجأة ، كان يتحمس للقائى و يأتى لزيارتى . . واتفقنا على أن نكتب عن هذه العملية الكبيرة التى أجراها لى ، حيث تمكن من وضع الأورطى فى مكانه السليم ، و أن يفعل أشياء كثيرة . لم أهتم فى البداية بما سوف يفعله ، و كل ما أطلبه الشفاء ثم الذهاب إلى منطقة ثانية من أكسفورد و المكوث بها فترة من الزمن حتى أسترد عافيتى و أعود إلى لندن مع ابنتى لنشترى ما اشتهت لنفسها من أشياء غريبة كانت تسمع عنها وهى

فى بلدنا مصر ، اشتاقت ابنتى إلى مصر ، ظهر هذا واضحا منذ الأيام الأولى، قالت : ما اشتهى المال ، ما أهوى الطعام هناك ، ما أحلاها مصر فى كل شىء فى حرها وشمسها ونيلها وازدحامها وتعامل الناس مع بعضهم البعض ، والرحمة التى تغلف قلوب الناس . . وعلى الرغم من أنها أحيطت بالرعاية - التى كنت أراها - من الممرضات ، وبالتحديد بعض الممرضات ، يلبين طلباتها ، بعد تركها تفعل لأبيها ما تشاء ، واستراحوا . فكانت تقوم بغسل ملابسى وتشرف على حمامى وعمل ما يمكن أن تفعله الممرضة ذاتها ، وهى لم تشك ولم تتذمر ، كانت سعيدة ؛ إذ تقدم خدمة لأبيها وتحاول أن تنجح فى إعادته إلى الحياة وإلى عائلته ، كانت تكاد أن تجن من التأخر فى الشفاء ، وذات مرة أجبرتنى على أن أقسم لها أن أقاوم ، وأقسمت أنها ستجدنى على غير هذا الحال بعد أيام قلائل ، ولكن بعد أيام كنت فى حال غير ذى حال ، كنت فى الأسوأ وظلت ابنتى ، وأنا أشعر بها تماما، تحن إلى عائلتها ، إلى بيتها ، إلى فراشها ، إلى أختها ، تردد دائما اسم ابن أختها (مصطفى) .

ومن فضل الله تعالى أن التليفون بحجرتى ، تليفون دولى مباشر ، وكنت أكافئها فى نهاية اليوم بأن أطلب منها الاتصال بأمها أو أختها وكانت تقوم بذلك بسعادة شديدة تبدو على

وجهها ، ذات مرة أوحشنى الأطفال و أوحشتنى عائلتى وكان صوتى قد حبسه المرض ، و لم أعد أتكلم إلا همسا لا يسمع و أتألم عندما أصدر هذا الصوت كما أتألم الآن . . و اتصلت بالأسرة و طلبت منهم أن يتكلموا هم، ولن يحصلوا على رد لأننى لا أستطيع النطق . استمعت إلى أصواتهم جميعا ، وكانت ليلة ليلاء ، لأننى استمعت إلى بكاء ابنتى . . هزنى الصوت هزا شديدا كاد يفقدنى عقلى فى تلك الليلة . أكاد أجن إن لم أكن قد دخلت عالم الجنون بالفعل - وأخذت أصلى . . صلاة المريض مريحة . . . لا وضوء هناك و لا شىء سوى أن تكبر فى سرك ، و تركع و تسجد لله ، كل ذلك فى مخيلتك و بعينيك فقط إن كنت تستطيع أن تحرك العينين . و فعلت هذا مرارا و كلما وجدت نفسى مستيقظا أو متذكرا للصلاة ، و مرت الأيام فى المستشفى كل يوم تزداد كآبته بشدة حتى ضقت ذات ليلة و جلست مفكرا أستعرض ما حدث . . . فى الأول من يوليو ، و كنت فى عملى ، أتممت الحجز لابنتى لقضاء شهر العسل . . دفعت التكاليف و هبطت إلى مكتبى لكننى لاحظت انتباه الجميع لى و كل منهم مشفق علىّ ، يطالبوننى بالذهاب إلى البيت أو إلى المستشفى . و زاد هذا من ارتباكى لأننى كنت أشعر بأن هذا أمر وقتى سرعان ما يزول ، لكنهم أصروا واستدعوا مساعدا

للطبيب ، لأن أطباء المؤسسة كانوا قد انصرفوا . . طلب منى المساعد الذهاب إلى المستشفى ، ولكننى قاومت ، وهبطت إلى الدور الأول وشعرت أيضا بالدوار والإرهاق . . كنت مصمما على أن أذهب إلى بيتى وأنام وأستريح فى غرفتى فى ظل التكييف البارد ، ولكن زميلى نصحنى بأن أذهب للاطمئنان ودخلنا المستشفى الخاص ، وجلسنا فى البهو ساعة كاملة ، والموظف يبحث عن غرفة وذهب زميلى إليه ، يا أخى هذا رجل مريض أسعفه ثم افعل ما تشاء . . وأخيرا أدخلونى غرفة العناية المركزة وتركنى صديقى (محمود) وذهب ، نظرت حولى فإذا سريرى ملاصق للنافذة ، نظرت من خلالها رأيت حديقة خضراء ، قلت مستبشرا هذا جميل ، الحمد لله على ذلك . ورقدت مستسلما ، وجاءوا وأخذوا يفحصون ويدققون ، وقالوا لا يمكننا عمل أى شىء إلا إذا أتى الأستاذ . وفى اليوم التالى بدأت أدخل مرحلة الفحوص اليومية ، فحص أشعة وتلك أشعة مقطعية وذلك رسم وهذا بيان وقياس النبض والحرارة وما إلى ذلك ، كثير من الأدوية ، ولا أدرى وقد استسلمت استسلاما غريبا وكانت الغرفة مكيفة الهواء باردة ، وكان أطفالى يأتون إلىّ بل ينامون معى فى بعض الأحيان وكل يوم يأتينى صديق ، كنت سعيدا فى تلك الفترة ،

وأمضيت أسبوعا كاملا فى تلك الغرفة بعد أن نقلونى من العناية المركزة و هذا أمر مضحك ، لا عناية مركزة و لا يحزنون ، بل هم مجموعة من الممرضات الثرثارات اللائى يتكلمن ليلا و نهارا ، وأنت مجبر على أن تستمع .. و الأطباء يروحون و يجيئون ، المرضى يأتون ، منهم ذلك الرجل الذى كان مصابا بجلطة فى القلب ، كلما أعياه المرض جاء إلى المستشفى و قضى بها عدة أيام ، حتى تخف حدة الجلطة ثم يعود إلى عمله و إلى حياته المعتادة .. و سألته ماذا تأكل ؟ قال: إن طعام المستشفى لا يعجبنى ، لهذا أتى بالزيتون المخلل و الجبن الرومى الحادق و(برطمان الطرشى) ، و خرج و أنا ما زلت جالسا فى تلك الغرفة ، حتى جاء يوم أخبرنى الأستاذ بأننى فى حاجة للسفر لإجراء عملية جراحية عاجلة مرة أخرى .. فى تلك اللحظة ، أصابنى الشلل الفكرى ، لم أسأل كثيرا و هذا آلمنى فيما بعد ، هل كان يجب أن أذهب إلى طبيب آخر ؟! لكن هذا الطبيب معالجى طوال الأعوام الماضية ، هل هو يكذب ؟ ولماذا يكذب ؟ بالتأكيد هو صادق ، لأنه كتب تقريرا تمت إجراءات السفر بناء عليه .. لا يمكن أن يفعل بى هذا ، فكرت فى كل ذلك تلك الليلة التى أجبرت فيها نفسى على أن أظل مستيقظا أفكر فى أمر نفسى فى مستشفى أكسفورد ، هل كان

يجب أن أذهب إلى طبيب آخر فى اليوم التالى ، هناك عدة أطباء فى مستشفيات أخرى بها أجهزة أحدث ولكنه أصر ، قلت : كان يجب التدقيق فى أمر هذه العملية ، حتى أتيقن تماما من أهمية وضرورة إجراء العملية فى شهر يوليو.

هذا ما حدث ولا داعى لكلمة « لو » لأنها فى النهاية كلمة مكروهة وأنا لا أحبها ، تخلصت من أفكارى بسرعة ولا داعى للبكاء على الجرح النازف ، جاء (مجدى يعقوب) الذى أخذ ينظر إلى صدرى ويقول ، لقد تذكرتك ، أنا الذى أجريت لك العملية الأولى منذ أربعة أعوام ، وفعلت لك كل شىء وما كان يجب أن تجرى أية جراحة بعد ذلك .. وقلت له مندهشا ومصعوقا : هل جئت من القاهرة إلى لندن لإجراء جراحة غير ذات موضوع ؟ قال : نعم ، إذن ما تقوله صحيح... إنها جريمة قتل ؟ إننى الآن أموت بميكروب لا يعرفونه ، فى سبيل من ؟! فى سبيل العلم ؟! فى سبيل الوطن ؟! فى سبيل من ؟! من الذى فعل هذا بى ؟! أستاذ القلب وصديقى يدفعنى دفعا إلى الموت ؟! أدفع حياتى ثمنا لأخطاء الأطباء ؟! فلما نظر نحوى ، قلت : إذن عليك بإثبات هذا إذا كان هذا صحيحا . قاضيت الطبيب الذى قام بإجراء جراحتين لى وتسبب فى حالة الانهيار التى أعيشها والتهديد المستمر بفقد حياتى فى سبيل لا شىء . وكانت ابنتى تسمع كل هذا فانفجرت باكية ، تبكى خيانة الأمانة

أم تبكى على ما هو قادم ؟ حاول الأصدقاء أن يعجلوا لى قرار السفر والجوازات و ما إلى ذلك ، و الجميع يجرون و أسرتى تلهث و أنا أجمع نقودا ، كنت فى أشد الحاجة إليها لأسدد ديونى ، جمعت كل ما يمكن جمعه لأننى أعلم مصاريف العملية و قد عانيت ذلك من قبل ، عانيت منها منذ أربعة أعوام ومازلت أعانى من آثارها فى دخلى و دخل أسرتى ، هل هذا معقول يا يعقوب ؟ هل هذا معقول يا (شريف) ؟ هل هذا معقول يا وسبى ؟ ثلاثة أطباء ذبحونى فى لحظة واحدة ثم لم يكتفوا بذبحى ، ذبحوا ابنتى فوق جسدى و أنا أراها مذبوحة ، صرخت و بكت و أخذت تردد بصوت عال أنها تسببت لى فى كل هذه الآلام . لا أدرى كيف جاءتها هذه الخاطرة ، إنها لم تفعل شيئا سوى كل الخير ، لم تقدم لى إلا كل العون ، لقد بذلت جهدا كبيرا فى القاهرة من أجل إتمام الأوراق و الإجراءات الروتينية التى تأخذ وقتا طويلا ، كان المفترض أن تتزوج فى يوم سفرنا و ألغت حفل زواجها ، و جاءت معى سعيدة فرحة لأنها كانت ترغب فى أن تجنبنى آلام الوحدة التى شعرت بها أثناء إجراء العملية الأولى ، وكانت فى قمة الحماس حتى تلك اللحظة اللعينة التى أخبرنى فيها يعقوب . . تماسكنا و صلينا لله ، و قلنا هذا أمر الله وليس أمر أحد فلنكتمه فى أنفسنا ، و نكتمه أيضًا عن الآخرين ، وبدأ علاجى هنا علاجا طويلا ولكننى أتحمل

وأتجلد وأشكر الله ، وأستطيع الآن أن أخرج إلى الشارع بضع خطوات ، وأقف بجوار ابنتى أحكى لها ذكريات طفولتى ، وما كنت أفعله وأنا طفل ، حيث كنت أمرح فى الحقل بين أعواد البرسيم أسعد فى القرية بين أحضان أسرتى جميعا .. أخوالى وأعمامى وأبناء أخوالى وأبناء عمومتى ، طفل مدلل لأسرة كبيرة يذهب هنا وهناك ، وفى كل بيت قلوب مفتوحة وصدور تفتح ذراعيها لتتلقانى ، لكى تمدنى بكل ما هو جميل ورقيق ولطيف ، تذكرت كل ذلك وتذكرت حنو أبى وحنان أمى ، وتذكرت جدتى بيضاء الوجه مثل الملائكة التى كانت تأخذنى فى آخر اليوم بين أحضانها وأنام قرير العين وهى تحكى لى حدوتة آخر الليل ، التى لا أسمع لها نهاية .. كنت أنام قبل أن تتمها ، وأصحو فى اليوم التالى ألهو ، حتى أدخلونى المدرسة وأنا لا أزال طفلا يكاد يمشى لأن أبى أراد ذلك .

وذهبت إلى جدى الذى علمنى أن الكذب حرام وأن الصدق حلال ، والصدق هو الحسنة والكذب هو السيئة وهكذا أقيس الأشياء .. ما استراحت له النفس يكون حلالا وما لم تسترح له نفسى يكون حراما . استفتِ قلبك قبل أن يفوتك .. هكذا علمنى جدى وأنا صغير وهكذا علمت أن الله رحيم بعباده .. ونسيت أن (بانديا) كان يجلس بجوارى وأنا أحكى كل هذا ، وإنه ظل طوال الوقت يستمع إلىّ ثم سألنى : لماذا

يبدو بعض الناس أشرارا؟ فاجأنى السؤال و لم أعرف له إجابة ، و أمهلته حتى اليوم التالى ، فقال : أنت دائما تهرب من الإجابة ، و تهرب من مواجهة الحقيقة .. ثم مضى منصرفا لتكتشف ابنتى فى اليوم التالى أن جهاز التسجيل كان يعمل ، فسمعت كل ما قيل ، و قالت فى مرارة: لقد سبق لك أن رويت هذا من قبل .. ابتسمت و لم أدهش من نظراتها الغاضبة نحوى .

* * *

الفصل الثامن

لا أدرى هل يمكننى أن أتم هذا العمل أم لا ، اليوم لم أستطع تناول طعام الإفطار ، وقد تكرر هذا منذ عدة أيام ، وجاءت ابنتى .. ابتسمت فى وجهى وقلت لها فى عاطفة صادقة : أحبك يا منى ، ابتسمت ، وقالت : سوف تحكى لى يا أبى ما حدث معك عندما ولدنا أنا وأختى.. ضحكت وقلت : أعلم أنكما لا تودان سماع الحديث ، ولكن رغم تكرارى لقصة ميلادكما إلا أنكما لم تفهما المعنى الذى أقصده ، لقد ترسب فى عقليكما أننى لا أحب البنات وهذا الأمر لم يخطر ببالى قط ، كل ما فى الأمر أننا مثل أى زوجين يحلمان بالأولاد فإنهما يفكران فى الولد الصبى ، واتفقنا على أنه إذا جاء ولد نسميه (محمدا) ، حبا فى رسول الله (ﷺ) ، ولكن جاءت « هبة » فى البداية ، وكنا قد انتقلنا إلى المستشفى وهناك كانت الأسرة تحيط بنا ، والقلق والتوتر باديان على وجوههم جميعا ، ولكننى لم أشعر بشىء : لا بالقلق ، ولا بالتوتر ، ولا بالفرح ، ووجدت أننى فى موقف فردى شاذ ، لهذا قررت الهروب ، وصليت حتى أحسست بالراحة . ومضى الوقت ، فعدت إلى المستشفى وكنت قد اشتريت علبة حلوى من رجل كان يجلس

بجوار المسجد ، وعندما دخلت طرقة المستشفى قابلنى الطبيب غاضبا وهو يردد :

- بنت ، يستدعوننى من السينما لكى أشرف على ولادة (بنت) !

فقلت بسرعة :

- هبة من الله

وتركنى الطبيب وخرج ، وأسرعت أنا إلى زوجتى وكان الطبيب قد أمر بوضعها بالدرجة الثانية ، فأمرت بنقلها للدرجة الأولى ، ووجدت الأسرة، قد كسا الحزن وجوههم ، فقلت مبتسما :

- هى (هبة) بإذن الله .

وقدمت ما معى من حلوى إلى أفراد الأسرة وإلى من تجمع من أهالى المرضى ، وكنت سعيدا ، وجاء الطبيب وحكى لى : إنه عندما كان شابا أشرف على ولادة زوجة العمدة فى إحدى القرى بالوجه القبلى ووضعت زوجته بنتا وكانت العاشرة لجناب العمدة الذى قرر قتلى - هكذا يروى الطبيب - وهربت قبل أن يفعلها ، وقضيت ليلة كاملة أعانى البرد والخوف ، ومن بعدها ظللت أخاف من ولادة البنات . . واشتهر عن هذا الطبيب - رحمه الله - كراهيته لولادة البنات ، أما أنا فقد سمعت من أخبرنى بأن رسول الله ﷺ بشَّر من أنجب البنات وأحسن

رعايتهن بدخول الجنة . فكنت سعيدا بولادة (هبة) ولكن ما حدث فى اليوم التالى لم يكن متوقعا ، فقد ذهبت إلى مكتبى فوجدتهم قد أغلقوه بالشمع الأحمر وراتبى تم إيقافه كما تم تحويلى إلى التحقيق تمهيدا لتحويلى إلى القضاء ، ولم أكن قد فعلت شيئا يستوجب كل هذا ، وعدت إلى المستشفى وليس فى جيبى ما يمكننى من أن أدفع مصروفات المستشفى ، بل لم يكن معى ما يكفى لطعامى وقد صرت وحيدا فى المنزل ، مهددا بالسجن والاعتقال ، ومستقبلى لا يعلمه إلا الله .

وتصادف أن تكرر هذا فى ولادة (منى) .. هكذا شاء الله ، نفذت مشيئته ، ولكنها كانت مشيئة خير وفرج من عنده ، تعالى ، فهو المنان الرحيم ، . . . . . وصارت الأبواب موصدة وقد تخلى عنى كل الناس ، بل تبدلت عواطفهم ، حتى أقرب الناس وأعزهم أيقنوا بهلاكى فلم يتقدم أحد ليمد يد العون .. ماذا أفعل لكى أوفر مصرفات ولادة زوجتى ؟ وماذا أفعل لكى أواجه هذا الاتهام الفظيع والشائن الذى وجه إلىّ ، ودرت حول نفسى ، أنا الذى أقمت كل هذه المنشآت الشبابية وسهرت آلاف الليالى أدبر وأفكر فى جمع الشباب حول الثورة ، وحول الوطن ، متشاغلا عن أسرتى وعن صحتى وعن كل ما أستحقه من مكاسب أومناصب ، بل متشاغلا عن حلمى الأساسى وهو الكتابة والأدب ، وأعمل فى إقامة المعسكرات وأضع

القواعد واللوائح وأشارك فى إقامة منظمة الشباب ومنظمة الطليعة وأسافر إلى موسكو وبرلين ومدريد وغيرها لكى أرى وأتعلم - وأعود لكى أطبق ما تعلمت ، نسيت حلمى الذى شغلنى من قبل أن أكون كاتبا وروائيا - لكى أتلهى فى عالم الشباب بمشكلاته ومؤسساته ولوائحه فى خدمة النظام الذى كنت ساعتها مستعدا لفدائه بروحى ، ها هو النظام ينقلب ضدى ويسخر منى ، ويتركنى بين أنياب مجموعة من المحققين لا يعرفون ما هى التهمة التى يجب أن يحاكمونى على أساسها . . ومن الطريف أن نسخة من كل التحقيقات وصلتنى رسميا بعد أن صرت مديرا عاما . . . ووجدت ذات يوم مظروفا ضخما تم تحويله إلى مكتبى للاختصاص والتصرف ، واحتفظت به وأنا أضحك ، ولكن يومها كان الموقف يصعب تحمله ، زوجة تلد بالمستشفى والجيوب خاوية ، وأنا محول للتحقيق بتهمة مبهمة ولكنها تبدو وقتها مخيفة ، أخافت الأقارب قبل الأصدقاء ، وأخافت الأهل قبل الزملاء ، لهذا وجدتنى أقف وحدى والأمر كله لله ، وكما حدث فى ولادة (هبة) حدث فى ولادة (منى) وتكررت المأساة ، يبدو أنهم لم ينالونى أول مرة فأرادوا تكرارها لعلهم يفلحون ، من هم ؟ لا أدرى ، هل المنظمة ؟ هل الذين يقفون خلف العلم الأحمر ؟ لا أدرى . . . صدقا أتكلم الآن لأن الرؤية لم تكن عندى واضحة ، أنا أعمل

فى مجال الشباب بكل اجتهاد وجد ، ومع هذا أتهم بأفظع الاتهامات ويأتون بالعديد من الشهود ، والإثباتات والأدلة ، وكالعادة يتخلى عنى كل الناس ولكنى أتمسك بالإيمان بالله ، وأننى برىء ، مهما تعددت الاتهامات ..وتكرر إيقافى ، والتحقيق معى والإحالة للقضاء ، والاعتقال ، ومع هذا لا شىء ، أجد نفسى أعود إلى منزلى أتطلع إلى وجه (منى) وأفكر كيف أعيش ! اتجهت للكتابة .. هى الآن الأمل الوحيد والحلم المرجوّ ، وبدأت أكتب وأكتسب بعض المال ، وأعمل مدرسا بمدرسة خاصة وأحاول أن أعول أسرتى .أخذوا شركتى ، كانت ملكى ، شركة سياحة ، ولكنهم أخذوها وتركوا لى الديون - وكان الله معى ، وبدأت أكتب وأكتب ، وكانت أولى رواياتى التى حصلت بعد ذلك من أجلها على مجموعة من الجوائز من روسيا وإنجلترا ، وكأن ما حدث لى كان بمثابة صدمة الإفاقة ، ونظرت إلى وجه منى وهى تسألنى : هل أنت رجل !

ابتسمت وقلت : نعم . قالت : وهل الرئيس رجل أيضا ؟ قلت : طبعا . قالت : وهل عند الرئيس تليفون ؟ قلت : بالطبع . قالت ولماذا لا يكون عندك أنت - وأنت رجل - (تليفون) ؟ كانت فى عامها الثالث لا تعى من أمور الدنيا ، رأيت أن أجرب عليها اختبار الذكاء الذى كنت مشغولا به فى

بحثى ، وأجريت عليها الاختبار الذى يحدد ذكاء الأطفال ، وكانت النتيجة مذهلة ، ازداد إعجابى بها ، ولكنها كانت كثيرة المنازعة معى ، فى المستشفى أرقد مستسلما وهى تحاور .. وتناقش ، وتنفعل ، وإذا أبديت رأيا ، أقنعتنى بعكسه ، أردد بينى وبين نفسى أنها الأذكى ، وهى أعلم منى ، وأسكت . وتغضب منى لامتناعى عن الأكل ، ولكننى لا أقدر على ابتلاع الطعام ، أصبحت تأخذنى خارج المستشفى لعدة دقائق تدفعنى دفعا وهى تحمل المعدات التى تحيط بجسدى وكأننى رجل فضاء ذاهب لاستكشاف عالم جديد ، أقص عليها حكايات حياتى ، صوتى لا يبدو واضحا ، ولكننى تعجبت من منظر الشجرة التى كانت تقف فى منتصف نافذة غرفتى ، رأيتها الآن ، هى فعلا شجرة جميلة ، الأشجار هنا كثيرة وكثيفة . الأيام تمر بصعوبة ولكنهم يقررون مد الإقامة ، نسأل : ومتى الخروج ؟ لا أحد يستطيع التحديد ، يجب أن تبقى وتحارب وتتحمل . أتحمل ولكن لا أدرى كيف أحارب ؟ قال بانديا :

- يبدو أنك لم تكن موفقا فى بداية حياتك .

قلت بانزعاج : كيف جاءك هذا الخاطر ؟ لم يجب .. ظل محملقا فى وجهى . هذا الطبيب الهندى ليس رجلا عاديا ، إنه يتعامل مع داخل الإنسان ، يعرف أكثر من مجرد طبيب جراحة ، قال :

- لماذا لم تحاول أن تستفيد من موقعك ؟

ضحكت وتذكرت أننى تحدثت معه عن (عبد الناصر) ، وعن اشتغالى بالقرب منه بحكم عملى فى مجال الشباب ، تذكرت الأشياء التى بدا لها معنى الآن ، لم أكن أعرف معناها عندما حدثت أمامى وكنت أعايش واقعها . . الآن فهمت ، كنت مختلفا ، أصلى وأصوم وأقيم المساجد ، ولكنهم لم يكونوا يحبون من يفعل هذا ، الآن فهمت ، لماذا حاولوا إبعادى ، ولكن الحق يقال . . على الرغم من أنهم فعلوا (كل شىء) من أجل ذلك إلا أنهم أفادونى ، كنت سأظل أدور فى الفراغ ، فلم أكن زعيما ولا راغبا فى الزعامة ، لم أكن أحب السلطة، فماذا أفعل ؟ كان الضباب يحيط بى ، وكنت أحسبه أبخرة للمجد ، كنت أسمع طنين الذباب ، وكنت أحسبه طنين النحل الشغال ، لهذا لم أجد عسلا ، ولم أجدنى راغبا فى ابتلاع الذباب ، وعرفوا هم هذا قبل أن أعرفه أنا ، وكنت أقول رأيى صراحة ، وهكذا تعرضت خلال ولادة ابنتى إلى نفس الظروف التى لم أفهم مغزاها إلا بعد زمن طويل !

وكان التحقيق بطيئا للغاية فالمحقق مشغول بزواج ابنته ، راح يسألنى عن كيفية التغلب على مصاعب الإعداد للعرس ، ويسألنى عن مسئوليتى فى خبايا تخريب عقول الشباب ، وأنا أجيب ، إذا سألنى عن العرس أجبته بصدق فقد كان فى سؤاله

يبدو إنسانا يحتاج إلى من يصدقه القول ، وعندما يسألنى عن جرائم ، كنت أجيبه بإجابات غير مفهومة ، مجرد شقشقة لسان أجرب فيها أساليب الحوار المسرحى ، فقد تحولت من العمل فى مجال الشباب إلى دارس وباحث فى عدة معاهد عالية ومنها معهد المسرح ومعاهد أخرى كانت قد بدأت العمل مثل السيناريو والنقد والسياحة وغيرها . فالتحقت بكل تلك المعاهد لكى أكون مشغولا ، فما يكاد المحقق يكتب عدة أسطر مما أمليه عليه حتى يشعر بالتعب ويصرفنى على أن أعود إليه فى اليوم التالى ، ولم أكن أقضى معه أكثر من ساعة ، كان هو يعلم ، كما أعلم أنا ، أننى برىء ، ولكن يجب أن يثبت إدانتى . . لعبة نلعبها معا . . هو مشغول بزواج ابنته وأنا مشغول فى الصباح مع ابنتى هبة ومنى فأخرج بهما إلى الحدائق والمتاحف ، وفى المساء مع دراساتى وأبحاثى وكتبى ومقالاتى ، عرفت الآن أن ما حدث كان خيرا لى فقد عدت إلى الكتابة ، إلى الأدب بكل حماس ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعوضنى عن فقد راتبى . . وانصراف الأهل والأصدقاء طوال عامين كاملين - بمكافأة سخية متمثلة فى مكافآت المقالات ، ومعنويا فى العودة إلى بناتى ، وإلى عالمى الأدبى الأثير ، وتعلمت خلال وجودى بالمنزل ، بعد أن كنت لا أعرف المكوث فى المنزل أكثر من ساعات النوم ، وأصبحت الآن

أقضى فيه معظم اليوم . . تعلمت أشياء عديدة عن ربات البيوت وعن الشغالات وما يدور فى عالم البيوت خلال ساعات النهار ، كان من نتيجتها كتابتى لمسرحيتين هما (ممنوع دخول الستات وحفلة طلاق) وأيضا مسرحية (ألماظ) التى جمعت فيها خبرتى مما كان يدور فى أوساط القيادات فى ذلك العهد ، عندما كنت قاب قوسين أو أدنى من السلطات العليا .

وانتهت المحنة ، أو التى كانت تبدو كذلك ، وحصلت على عدة دبلومات عليا ، وعلى خبرة أوسع فى الكتابة الأدبية كان نتاجها روايتى (الجرار رقم ٣٥) التى نلت عنها عدة جوائز ، وترجمت إلى عدة لغات وقادتنى إلى الطريق السليم ، . . فى النهاية يا ابنتى ، أعلم أنكما تغضبان عندما أحكى تلك الحكاية ، ولكن كيف أنساها وهى التى جعلتنى أفيق ، وأعرف من الذى كنت أهتف له ومن أخذ شركتى ووظيفتى ودفعنى دفعا إلى العودة إلى الكتابة ، وحرمنى النوم أشهرا طويلة ، وحرمنى حنان الأهل وحب الأصدقاء ومنحنى كثرة الحاسدين الذين ظهروا فجأة وهم يضحكون .

كيف أنسى ؟ وقد انتشلتنى هذه الحوادث من وسط كنت أتصور أننى أقيم فيه عالما جميلا ثوريا يحقق الرخاء لوطنى ، ولأبناء وطنى ، ثم يتهموننى بالتخريب ، لمجرد أننى قلت

« لا » . لم أكن أعرف وقتها أننى أعارض ، أو أننى أثور ضد صنم ، دعوت كل شباب وطنى لعبادته لأننى لم أكن أعرف أنه مجرد صنم .

بعد عامين أحالونى إلى المحكمة التأديبية ، لم أكن أعرف ما هية تلك المحكمة ، ولماذا تمت إحالتى إليها ، سألت ودلونى ، دخلت المبنى ، قديم ، النيل قريب من هنا ، لا أدرى ماذا أفعل ، اقترب رجل فى الخمسين وسألنى ما هى تهمتك ، ابتسمت وقلت النصب والاحتيال ، قال فى تهكم ؟ لا يبدو عليك ذلك . قلت : وأنت ؟ قال فى لا مبالاة : سرقة كابلات كهرباء القاهرة وثمنها خمسة ملايين من الجنيهات ، وقال مكملا : فأنا المهندس المختص ، قلت بصدق : وطبعا أنت مظلوم ؟ قال فى لهجة جادة : أنا سرقتها بالفعل . وظهر واضحا أننى انزعجت بشدة ، فقال بسرعة : انتبه سوف ينادون عليك حالا . ودخلت القاعة . . . هناك خمسة من القضاة على المنصة . قال كبيرهم : هل معك محام ؟ قلت : لا . قال : وهل تعرف تهمتك ؟ قلت :لا . . ابتسم وأشار إلى كم هائل من الأوراق موضوع أمامه وقال : كل هذه التهم وتقول إنك لا تعرف ما هى تهمتك ؟ قلت مرة أخرى بصدق شديد :

– أنا لا أعرف بالفعل ، قال : انتظر بالخارج . وخرجت ، ماذا أفعل ؟ ذهبت إلى النيل جلست إليه ، اشتريت السجائر

ودخنتها لأول مرة فى حياتى ، كانت أول مرة أمسك فيها سيجارة . لم أكن قلقا ، أشعر بفراغ داخلى ، قالوا إن التدخين يذهب القلق ، لهذا أردت أن أجرب . وسألت النيل - النيل نفسه الذى يصل إلى دارنا - ويلمس جدرانها ، ياه . . هل لو ألقيت بنفسى يأخذنى النيل إلى حضن أمى ، وكيف أقابلها وقد كانت تود أن ترانى فى أحسن حال ! أما الآن يا نيل فأنا لا أعرف ماذا يدور حولى ، . . تنبهت لمضى الوقت فعدت إلى (المحكمة) لم أجد أحدا . . كان هناك أناس كثيرون ، وباعة ومحامون وأناس يدخلون ويخرجون ، ولكن الآن لا شىء من هذا كله . لمحت رجلا يكنس الردهة ، قلت بلهفة : ألم تكن هنا محكمة منصوبة ؟ نظر نحوى فى دهشة ! لم أكن قد تخطيت عامى الأول بعد العشرين ، وكنت ضئيل الجسد أبدو مثل الفتيان ، قال : وهل لك أنت أيضا قضية ؟ قلت : نعم . قال : ولماذا خرجت ؟ قلت : قالوا لى اخرج وانتظر . . أخذنى الرجل وهبطنا إلى (البدروم) أشار إلى رجل جالس يكتب ، تذكرت تمثال الكاتب المصرى . تقدمت منه وأخبرته باسمى نظر نحوى فى دهشة وقال فى ترحاب شديد اجلس ، هل تشرب شيئا ؟ قلت : شكرا لم يكن فى جيبى سوى خمسة وعشرين قرشا . أحضر لى زجاجة مثلجة ، كانت مبرقشة بقطع صغيرة من الثلج ، راح وهو يشرح لى ما حدث . . يعد صورة من الحكم

لكى أحملها إلى عملى وأحصل على راتبى الموقوف ، وكان يعمل وهو يتكلم عن الظلم والبراءة وعن كيفية الانتقام ، ثم أخذ الورقة التى أعدها وكورها مثل قرطاس وقال فى ثورة :

- اذهب وضع هذا القرار فى أعين من ظلموك هكذا .

ودفع إلىّ بالقرطاس حتى كاد أن يذهب بعينى ، فتراجعت بسرعة ، ولكنه جمع صورا عدة من هذا (القرطاس) أقصد هذا القرار وهو يدفعنى لكى أذهب فى الحال إلى مقر عملى ولا أتركه فقد أعادتنى المحكمة إلى عملى السابق ، وأعادت إلىّ راتبى الموقوف والأهم . . أعادت إلىّ ثقتى بنفسى وبرأتنى بما اتهمنى به الآخرون ومنهم الأقارب والأصدقاء ، ورآنى متلكئا حرجا ، قال يا بنى : أعرف حالتك . اذهب بسرعة ولا تفكر إلاّ فى استرداد حقوقك ، وذهبت ، وقبضت مالا كثيرا . . ولكن عندما وضعت المال فى جيبى أحسست بأنه يزيد عن راتبى ، وأسرعت إلى عامل الخزينة ، يا رجل افتح الشباك لكى أراجع معك ما صرفته ولكنه بدلا من أن يفتح (شباك الصرف) راح يسبنى ، فالعيد بعد غد ويريد هو أن ينصرف سريعا . . أرجوك دعنى أراجع معك ما صرفت ، ولكنه راح يسبنى وهو يجمع أوراقه ويعد عدته لتسليم عهدته ، وبعد توسل ورجاء وتدخل بعض زملائه ، فتح (الشباك) وأحضر استمارة الصرف وقال: ها هو رقمك وها هو توقيعك ، وأنت تسلمت منى النقود تامة

ولا نقصان فيها فلا تعبث معى ، قلت : هاك النقود أعد عدها ، وانكمش الرجل فى نفسه ، ثم امتدت يداه إلى النقود وهو يقذفنى بكل أنواع السباب ويتهمنى بالتلاعب والخداع والغش ، ولكنه ما إن انتهى من العد ونظر إلى الرقم المدون بالاستمارة ، حتى جلس وقد انتثرت حبات العرق على وجهه ! أخذ يعد النقود مرة ثانية فى اهتمام شديد ، ثم أعطانى المبلغ كما هو مدون بالاستمارة ، واستبقى الباقى . نظرت إليه وقلت :

– هل تسمح لى أن أرد إليك سبابك ! هز رأسه فى أسى . . قلت :

– هل تسمح لى بأن أرد إليك إهانتك الشديدة لى وأنا أبحث عن الحق أرده إليك حتى لا يدخلوك السجن يوم العيد .

تواكب زملاء الرجل يعاتبونه ويتوددون لى ، كنت قد سئمت ما حدث ، بل كرهت تلك النقود التى شعرت بأننى ما بذلت جهدا لكى أحصل عليها ، هى راتبى عن عامين ، ولكن فى العامين رزقنى الله خيرا كثيرا ، وعدت إلى بيتى لأخبرهم ، ولم أعد إلى عملى بعد ذلك ، وكانت الأمور قد بدأت تدخل فى متاهات السوفييت ، ولم يعد أحد قادرا على فهمها إلا من كان يسعى لمنصب أو للمال أو للشهرة وهكذا عرفت الشيوعية طريقها الملتوى ، حاملة كل الشعارات الصالحة لكل العصور وحتى الآن . . وأنا أرى منهم من يجلس على

مقاعد السلطة ، نقلونى إلى عمل آخر لا يتصل بخبرتى ، وعرفت أنه عقاب بعد أن خرجت من الاعتقال ومن المحكمة ومن كل التهم التى حاولوا إلصاقها بى ، ودفعوا بى إلى مجال عمل لم أكن أتصور أننى سوف أعمل فيه وهو الإسكان الشعبى الذى كانت الحكومة تدفع إليه بمن لا خير فيهم من موظفيها ، وذهبت ، وعملت ، وتركت خلفى إنجازا نجحت فى تحقيقه خلال عام واحد ، ويبدو أن هذا أيضا لم يكن فى بالهم ، فقرروا نقلى مرة أخرى ، ولكن بعد أن وعيت الدرس وحفظته ، وعرفت أنه ألعاب فى ملهى ليلى أو سيرك .

هكذا يا ابنتى لم يكن لى خيار إلا ما أراده الله لى وكان ما أراده خيرا كل الخير ، عندما أحدثك به هنا فى مستشفى لندن ليس معناه أننى ربطت بين (خلفة الإناث) وإيقافى عن العمل وعقابى على هذا النحو ، إنما أقصد أن أتعلم ، أن أعى ما مَرَّ بى ، ها نحن فى جزيرة نائية عن بلدنا وعن أهلنا ، فى حجرة بمستشفى قديمة متهالكة تشكو قلة الميزانية ، وضنك الحال ، وعمالها وأطباؤها من كل بلد ومن كل قطر ، بل من كل جنس ولون ، ومع هذا نشعر بأننا أحسن حالا ، من حالتنا عندما كنا بالمستشفى الكبيرة التابعة لجامعة شهيرة .. كنا تعساء ؛ حيث كانت كل الإمكانيات متاحة ، ونحن هنا سعداء حيث

لا شيء . . . فقط أنت بجوارى ، وكأن الأسرة لم تفارقنا ، نحن هنا نتشاجر ، ونختلف ، ونتحاور . . . نضحك ونتألم ، ولانعرف ما سوف يحدث لنا ، هل سنعود معا ، أم تعودين وحدك ، إن كل ما يصنعه الله بنا هو خير ، هكذا يقول شقيقك الصغير فى بساطة وعفوية ، ابنتى . . لقد أحببتك منذ أخبرنى الطبيب بمولدك ، ليس هذا هو شعورى الآن فقط ، إنما هو شعورى الدائم ، اغفرى لى ضعفى عندما أبكى ، اغفرى لى هفواتى عندما أضيق بفراشى . . . التليفون يدق ، تكلمى وقولى : إننا بإذن الله بخير .

بدأ البرد يشتد ، وتذكرت زوجتى (ماجدة) ، وراح سيل الذكريات يفيض غصبا عنى ، أحببتها وأنا أحكى لابنتى عنها أحببتها وهى تقف خارج غرفتى وحيدة حزينة ، وعندما يسمحون لها بدخول (الإنعاش) أراها تبتسم وهى تسقينى عصير العنب أوعصير البرتقال ، ترتعد ولكنها تبتسم ، أعرف أنها وحيدة خائفة ، ومع هذا تتماسك ، فى الجراحة الأولى فعلت هذا ، وسافرت وتركتها ، ثم عدت لأجدها ، حاولت أن أرفه عنها ، ولكننى ما لبثت أن وعدت إلى المستشفى وجاءت هى خلفى تحمل طفلها وقلقها ولهفتها وخوفها وظلت ما يقرب من شهر وهى تحاول أن تساعدنى ، وكان

المنظر الذى لم أستطع نسيانه و أنا أركب سيارة الإسعاف و هى واقفة و معها أطفالها الثلاثة ينظرون نحوى . . . هل أعود إليهم أم لا ؟ العلم عند الله ، أشعر بالخوف ، و ينتابنى القلق كلما تذكرتها بأطفالها ، وحيدة ، و لا أحد بجوارها ، يهتز قلبى، و لكن سرعان ما أعود إلى إيمانى المطلق بالله ، هو رب الناس جميعا ، يرعاهم أيتاما كانوا أم ذوى أهل ، الله وحده الكفيل بهم ، و نعم الكفيل هو الله ، و نعم الوكيل ، هو الرحمن الرحيم الرزاق الواهب المنان أسبح بحمده و أستغفره ، أسال الله أن يثبت قلب زوجتى على الإيمان ، و أن . . . يجنبها وسوسة الشيطان ، و يحفظها من المكاره و المعاصى و الذنوب ، هى ابنتى و صديقتى و صاحبتى و زوجتى ، و أم أولادى ، وكان وجودها بجوارى استجابة من الله لدعائى ، فكانت بشرى من الله ، و علامة طيبة ، بها سكنت نفسى و إليها سكن قلبى و استراح فؤادى . . .

زملاء الدكتور (بانديا) يدهشون لكثرة جلوسه فى ساعات راحته بجوارى، إنهم جميعا أصبحوا أصدقاء لى ، و تصادقت أيضا مع الممرضات و العاملات و الموظفات . كانوا يتضاحكون معى ، و يقصون علىّ ما حدث لهم ، و يسألون: لماذا أنا أسجل كلمات على هذا المسجل ؟ و ينصحنى بعضهم

بالابتعاد عن هذه العادة التى تجهدنى ، أردد بينى و بين نفسى و هل أتخاصم مع القلم ، عشرة نصف قرن ، هل هذا أمر سهل على رجل عاش عمره يحلم بالكتابة . . عاشقا لها متجنبا كل المناصب التى تبعده عنها . . هل هذا سهل ؟ لا أظن . .

و تدور فى عقلى الذكريات و لا أدرى كيف تتبلور صورة ما حدث فى الماضى دون غيرها لقد استدعتنى النيابة عدة مرات ، و لكن هذه المرة ، (النيابة تطلبك صباحا ، لا تتأخر حتى لا تضطر للقبض عليك ، هذه الأوامر الميرى التى لدينا) ، ارتجفت رعبا ، ماذا فعلت ؟! و على الرغم من أننى تعودت على جلسات المحاكم التأديبية ، و مجلس الدولة ، وتحقيق النيابات بتهم مختلفة بداية من تهمة الشيوعية التى لم يكن لى شرف الانتساب إليها إلى تهمة تخريب العقول الشابة ، إلى تهمة التحريض على الاهتمام بالدين و الشروع فى بناء مسجد ، بل اتهمت بأننى أقوم بالإمامة لصلاة الجمعة أحيانا ، و لكن هذه المرة واجهنى وكيل النائب العام بتهمة الاختلاس سبعة قروش و نصف و ضحكت دون إرادة منى للضحك و عقَّب السيد وكيل النائب العام . . و الغريب أننى تعاملت مع العديد من وكلاء النيابة ، بل تعاملت مع النائب العام نفسه ، و لاحظت أنهم شخصية واحدة . زارنى اليوم وكيل نيابة من المنصورة أدخلوه فى مصر غرفة العمليات لإجراء جراحة القلب ، و بعد أن شقوا

صدره ، اكتشفوا خطأ فى تركيب الشرايين ، فأغلق الجراح الصدر و جاء به إلى هنا ، و قال لى إنه على وشك الموت و أراد الله له العيش ، قلت له ضاحكا قلوبكم ليست كقلوبنا . . ابتسم ، و كنت قد سألت رئيس نيابة بأحد أحياء القاهرة عن عدم ابتسام وكلاء النيابة ، قال ماذا نفعل و عملنا يقتضى الجدية ؟ و كتبت مسلسل (يوميات نائب فى الأرياف) و أوردت فيه صورة النيابة حتى أن (توفيق الحكيم) أبدى دهشته من دقة تصويرى لتصرفات وكيل النيابة ، و الغريب أن توفيق الحكيم عمل وكيلا للنيابة فترة من عمره ، و كان دوما يحكى لى عن ذكرياته التى لم يكتبها عن تلك الفترة . سألنى وكيل النيابة فى جدية و تجهم : أنت متهم باختلاس أموال حكومية (ميرى) فما قولك ؟ قلت معاتبا : و هل القروش السبعة تسمى أموالا حكومية تستحق الاختلاس ؟ قال : عملى هنا أن أحقق فى صحة الاتهام و أقيم الدليل على صحته من عدمه ، و القروش عندى مثل الملايين ومن يختلس قرشا يختلس مضاعفاته . قلت : و لكنكم تصرفون وقتا فى لا شىء ، ربما يفلت منكم من اختلس الملايين بالفعل ، و تذكرت مهندس الكهرباء و هو يعترف لى بصراحة بأنه باع أسلاك الكهرباء كلها مرة واحدة وأنه مستعد للفصل من العمل ، فما أخذه يكفيه ، لم أشأ أن أخبره بما قاله المهندس ، سمعته يردد على مسامعى تحريات المباحث و رجال الضبط

حول تهمتى التى تثبت تقديمى لمستند شراء لمبة كهرباء لمكتبى بسبعة قروش و نصف و عندما حاولوا التيقن من صحة المستند المالى لم يستطيعوا الاهتداء إلى البيانات المدونة على المستند المالى ، فلا يوجد محل و لا صاحب للمحل بهذا الاسم . فسألته بسرعة : و هل يمكن الاطلاع على المستند ؟ قدمه لى و قرأت اسم (عزت محمد على) هو البائع ، و رجال الشرطة لم يستدلوا على هذا الاسم مطلقا ، و سال العرق البارد ، ماذا أفعل ؟ عرضت عليه أن أدفع أضعاف المبلغ . قال فى تبرم : عملى هو إثبات التهمة أو نفيها ، فماذا أنت فاعل ؟ قلت : أمهلنى للغد ، قال : لك هذا على مسئوليتى لأنه مخالف ، و لكننى مشفق عليك ، خاصة أن التقارير المرفقة كلها ضدك ! خرجت و لا أدرى كيف أتصرف فى هذه الورطة .

هبطت من السيارة ، سمعت صوتا ينادى ، إذا بالصوت يقترب ، وسعدت به فقد كان أحد تلاميذى عندما كنت برعاية الشباب ، مشى بجوارى وهو يحكى لى عن أحواله و أنه الآن يعمل بوزارة الزراعة بعد أن ترك محله الخاص لبيع الأدوات الكهربائية بعد وفاة زوجته ، سألته فى تردد ما اسمك يا (عزت) ؟ ضحك بشدة و قال : يا بابا بعد كل هذه العشرة تسألنى ، قلت فى نفاد صبر : أريد اسمك الكامل ، قال : (عزت محمد على) ، أمسكت به ، كنا نطلق عليك هريدى ،

صحبته إلى وكيل النيابة الذى تحقق من صحة المستند ، وأخلى سبيلى و هو يبتسم .

قلت لعزت : هل تتصور أننى لم أكن أعرفك حق المعرفة فلم أكن أعرف أنك متزوج ، و أنك أب لخمسة أطفال ، و أن كل هذا يحدث لك و أنت لا تقابلنى إلا مبتسما ضاحكا حتى أننى كنت أظنك أسعد رجل عرفته ، غادرت مبنى سراى النيابة كما يقولون عن هذه الحجرة الكئيبة التى يجلس بها وكيل النيابة و لا يوجد بها إلا مقعد واحد و على المتهمين الوقوف أمامه و هو يصرخ طالبا كوبا من الماء البارد له ، أما هذه الصورة التى نراها فى الأفلام و التليفزيون فلا وجود لها ، حتى عندما دخلت محكمة (باب الخلق) ، ورأيت الزحام حول (القاضى) و هو يردد تواريخ التأجيل للقضايا التى أمامه ، ضحكت و أنا خارج (من سراى النيابة) أليست هذه تمثيلية هزلية ، هل أعضاء النيابة هم المعذبون فى الأرض أم أمثالى من معتادى التردد على هذه الغرف ؟ . . . ثم ماذا بعد ؟ يا عالم ، لم أكن قد أتممت عامى الخامس و العشرين بعد ؟! و أنا أذهب وأروح بين المعتقل و سراى النيابة و غرفة المحكمة ! حقا تعلمت أشياء عديدة .

كنت عائدا من بنى سويف ، من ندوة عقدوها فى قاعة كبيرة تابعة لجامعة الأزهر ، وكان الجو جميلا و صوت الشيخ (عبد الباسط عبد الصمد) يصدح بالقرآن و حملنى صوته

و طريقة ترتيله فى تيار العشق ، اختلطت فى رأسى صور العشق أحببت مولاى و خالقى . . . أحببت الله . . . ورحت أردد اسم الجلالة فى شجن جميل ، وتذكرتها ، لا أدرى لماذا تعلقت بالوجه الأسمر ، أحببتها وأحببت بناتى بوجههن الأبيض كالأقمار الساطعة ، وأحببت الزرع الأخضر : كان عقلى مشغولا بدارسة حول رسول الله « ﷺ » كنت أدرس فى اجتهاد تدرج المعرفة العقلية عند رسولنا الكريم .

وفى القاهرة عرفت أنهم أعادونى إلى عملى الأول فى رعاية الشباب ولكن كانت الرغبة فى العمل قد ذهبت . . العلاج هنا حبله ممدود ، و طريقه مملوءة بالأمل و الرجاء و الألم و الدم ، ومرضت ابنتى التى طال عليها الانتظار ، وأثقلت الغربة مرضها ، و صارت شاحبة اللون ، وبدأت أنا أحاول مواساتها وأنا أمهد لرغبتى فى أن تسافر و تتركنى لعل الله يدركنى برحمته أو يشفينى ، وعاوننى الدكتور بانديا فى علاجها ولكنه أيدنى بوجوب عودتها إلى الوطن ، يا ابنتى ، إنه حمل ثقيل حملته على كاهلك ، فأب مريض قعيد يحتاج إلى معاونة دائمة و رعاية تعجز عنها أحيانا الممرضات المحترفات. . ورفضت السفر .
لهذا فكرت فى أن تنتقل من مسكنها بجوار المستشفى إلى مسكن آخر على أن يكون بيتا مستقلا بحديقة صغيرة ، بيتا تتحرك فيه فتشعر أنه بيتها لا مجرد غرفة فى فندق ، وهمست لها : إننى

يمكننى أن أقيم فيه معك ثم نأتى للمستشفى للعلاج ، وقلت لها : دائما أحلم بأن أسكن فى (ڤيلا) بيت مستقل له باب حديد وسور مرتفع ، ثم حديقة تحيطه نجلس فيها ونرى الأشجار والشجيرات ونشرب الشاى ، ثم المبنى وهو صغير ، به غرف معدودة ، والمقاعد الوثيرة متناثرة فى أناقة ، ... وتذكرت بعد أن عدت للعمل فى رعاية الشباب أننى ذهبت مع زوجتى السمراء إلى ساحل العجمى ، كان مهجورا وغير معروف إلا لعدد محدود من أهل الإسكندرية الذين يهربون إليه عندما يصطدمون بزحام مدينتهم ، وقصدنا فندقا أقمنا فيه عدة أيام .. كانت الغرفة صغيرة جميلة ، وكنا فى عمر لا يفكر فى المكان إنما يكفيه ما هو نابع منه من سعادة ، ولكن عرض علينا أحد الخفراء أن يؤجر لنا مسكنا مستقلا ، كانت (ڤيلا) صغيرة بيضاء ذات طابقين وحولها حديقة واسعة وذات سور عال وباب حديدى يطل على الشارع ، وكانت ترصد البحر من بعد معقول ، ولما كانت (فلوسنا) قليلة .... قابلنا عرضه بفتور وعرف هو كيف يغرينا على دفع نقودنا القليلة فى إيجار (الڤيلا) واكتفينا بطعام قليل ، ولكن سعدنا (بالبيت) ، نروى الحديقة كل يوم ، نجلس بها لنشرب الشاى ، نتناول عشاء من الفاكهة التى كنا نجنيها من أشجارها ، ونعيد ترتيب المقاعد والغرف ، ونزيل الأتربة والأوساخ ، حتى أحلناها إلى قصر فخم جميل ،

ولكن اكتشفنا أننا لم نذهب إلى البحر كما تعودنا ، ولم نسبح فى الماء كما نحب، وضاعت الإجازة فى (خدمة الڤيلا) التى ظلت فى بالى حلما جميلا أود أن يتحقق ، ولكنه لم يتحقق ، هذه مشيئة الله وحده ولا راد لقضائه ومشيئته ، لهذا اقترحت على منى أن نستأجر بيتا صغيرا وحوله حديقة ... ولكنها رفضت ، وعندما وافقت ، رفض الطبيب بشدة ، فقد ساءت حالتى ولا أدرى إلى متى سأظل هنا حبيس تلك (الزنزانة) ... وكان الذين أرادوا سجنى لم يفلحوا إلا هذه الأيام ، بعد ثلاثين سنة تقريبا ، والله وحده أعلم بحكمته ، ونحن له طائعون ، خاشعون ، راضون ، نأمل فى رحمته ومغفرته وعفوه ...

وجاء الرجل إلى غرفتى فزعا ، ولم أملك إلا أن أنسى ألمى لكى أسانده وأدفعه لكى يتحمل ويتجمل بالصبر ، وأدخل مرة أخرى مع حكايات المرضى التى لو كتبناها فى أعمالنا لسخر منا النقاد والقراء ...

ويسألنى الدكتور (بانديا) :

- ماذا تفعل لهؤلاء ؟

أقول وأنا أنظر إلى وجهه الداكن وملامحه الهندية :

- الله وحده هو المعين .

* * *

الفصل التاسع

ويفيض الماء تاركا الأرض مغطاة بالذهب ، نجرى نحن الصغار على الذهب ، والذهب يبرق تحت أشعة الشمس الخريفية ، نتصايح ونلعب (عريس وعروس) ، ينهرنا خالى فقد آن أوان زراعة (اللمعة) ويزرعون الفجل عقب زوال فيضان النيل ، تأكله كأنك تأكل سكر ، بعد الفجل الذى ينمو فى أسبوع واحد ، يزرع أخوالى البطيخ الذى يصبح جاهزا للتسويق فى أول الصيف ، بطيخ مستدير داكن اللون لا يسقى بماء إنما يكتفون بالأرض الذهبية التى تركها النيل ورقد فى مجراه . أحب النيل ، أراه كل يوم ، أجلس بجواره وأحلم ، أقود مركبا صغيرا وأتردد بين شاطئيه لجمع السمك ونذهب به إلى جدتى ، نأكل من خيره .. الفجل ثم الخيار والقثاء والأهم البطيخ (الشلن) ، نأكله فى الصباح والمساء بالطبع مع الجبن كغذاء ..ثم جاء (عبدالناصر) وأمر بعدم بيعه وأصبحنا نرسله إلى روسيا ، وكان أهلى يحتالون على أكله من وراء ظهر الجند الذين ترسلهم (الحكومة) لكى تستلم البطيخ للريس ، يتعمد الفلاحون إسقاط بعض ما يحملونه (على الأرض فيتكسر) ثم يجمعونه لكى نأكله ، أمى تجمع البذور وتأخذ رأينا لنعطى لها درجة للحلاوة

فتضع البذور فى إناء وتحتفظ به ، وفى نهاية الموسم تقدم لأخوالى أحلى هذه البذور لزراعتها فى الموسم التالى ، ولكن بعد أن استولى عبد الناصر على (بطيخ الفالوجا) وهو اسم الأرض التى كان البطيخ يزرع فيها ، لم يعد أخوالى يهتمون لأننا لم نعد نأكل أحلى ما نزرعه ، وصار الجنود يأتون كل عام لإحصاء البطيخ وجمعه فى قوارب لكى يرسل إلى روسيا ، أصبحنا نتندر على هذه (الهواية البطيخية) التى كانت لنا بمثابة طعام فحرمنا منه ، وإن كانت قد أخذت فى طريقها شرا ، كنا نشكو منه ، هكذا سمعت من أهلى فلم أكن أعرف كل الحقيقة . . . فعندما يأتى موسم البطيخ تقام مدينة ملاهى صغيرة على الجزيرة المقابلة لبلدتنا ، وبالليل يذهب الرجال والشباب للسهر فى هذه الملاهى بقصد أكل البطيخ والفرجة على (الغوازى) ، وكانت هذه الملاهى تعد (فسقا) وفجورا ، ندعو الله أن يجنبنا إياه ، وكان خالى فوده إمام المسجد يدعو الله ، والناس تؤمن على دعوته، بأن . . . يهدم الله هذه الملاهى وأن يميت (الغوازى) ويبعد شبابنا عنها ويتوب عليهم ، وأسأل أبى ماذا يحدث فى هذه الملاهى ؟ يقول إنها ليست ملاهى إنها (غرز) يذهب الشباب إليها لكى يدخنوا الحشيش ، ويتفرجوا على الغوازى . . والظاهر أنهم يذهبون لأكل البطيخ ، فأراحنا الله من (غرز البطيخ) بعد أن استولت

الحكومة على البطيخ لصالح الروس ولم يعد أحد يستخدم كلمة (الفالوجا) على الجزيرة بعد أن كانوا حريصين على إطلاقه عليها وخاصة بعد أن سمعوا عن بطولات شبابنا من الجنود الذين حاربوا فى (معركة الفالوجا) وقاوموا الحصار اليهودى، فأطلق الأهالى على هذه الجزيرة التى كانت تحاصرها المياه من كل جانب ويغمرها فيضان النيل كل عام ولا ينحسر عنها الماء إلا فى الخريف، فيزرعون البطيخ على أرضها الذهبية، وكما جاءت الفالوجا مع عبد الناصر فقد ذهبت معه، ولم يعد لدينا بطيخ خاص نتباهى به، ونقيم الملاهى (والغرز) من أجله، ولم يعد لدينا إلا دودة القطن، ودودة البرسيم، وطعم (الخيار البطيخى) بعد أن فقد البطيخ طعمه الخاص، وأيضا الخيار!

استطاعت لولى الممرضة أن تغلق الحزام الحديدى حول صدرى، الألم ازدادت حدته .... آسف.

جاءت أسرة مصرية لزيارتنا هذا الصباح، وقد أحضرت السيدة (بطيخا) أوهكذا قالت، واشتقت إلى أكل البطيخ وخاصة أن درجة الحرارة هنا فى لندن عالية بشكل ملحوظ، وقد تذوقته وتذكرت طعم الفراولة بعد أن كبرت ثمارها وانتفخت بفضل الزراعة المغطاة، ماسخة الطعم، ولم أستطع ابتلاع قطعة صغيرة. وأخذت أحلم بنيلى وماء نيلى والغوص فى الماء البارد والشرب حتى الارتواء، كم أشتاق إليك

يا بلدى ، يا مدينتى ، يا قريتى ، يا جزيرتى ، يا أهلى ، أنا هنا أعانى الوحدة و الطعم المر ، و الحياة المريرة ، أستعيذ بالله ، أفتح المسجل لأستمع . . . ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ والبيان هو القرآن و القرآن خلق قبل خلق آدم ، إنه كلام الله و صوته و حديثه يا الله ، الشفاء من عندك ، و الرجاء منك و إليك ، اغفر ذنبى ، اللهم إنك منان ، حنان ، فتاح ، عليم ، اللهم إنى ألجأ إليك كما يلجأ الرضيع إلى أمه ، أفزع إليك خوفا منك ورهبة راجيا رحمتك ، اللهم أكرمنى بحمايتك ، و حبب إلى قلبى الإيمان المطلق بك ، اللهم إن كان هذا الامتحان قدرا قدَّرته فلامناص و لا خلاص إلا بهداك ، أسألك اللهم المغفرة ، اللهم إنى قد أذنبت فاغفر لى ، و تجاوزت حدى فاعفُ عنى ، تجرأت و تطاولت على حقك ، فاعفُ عن حماقتى ، أنت غفار الذنوب ، اللهم يا ذا الجلال و الإكرام ، يا الله . . . اللهم إنى أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أعلمته لعبادك أو أخفيته عنهم ، أن توفقنى فى عبور هذا الاختبار ، كما وفقتنى بنعمة منك فى كثير من مواقف حياتى وجنبتنى العثرات من الغواية و الإسراف فى حب الذات ، اللهم إنى عبدك وابن عبدك . اللهم استجب و الليل يحيط بى ، و الألم كامن فى صدرى ، اللهم إنى أسألك أن تشفينى شفاء لاسقم بعده . . . الساعة الثالثة صباحا و يدى تؤلمنى ، لم

أستطع النوم ، أفكر و أتذكر ، أحاول أن أتشاغل عن الألم ، أبتعد عنه ، . . أرى الهرم و قد وقفت بجواره ، و حولى أطفال دار التربية (الإصلاحية) كما يطلقون الناس عليهم ، أبدو سعيدا و أنا أصطحب معى هؤلاء الأطفال ، الجميع ينادوننى : أبى ، نعم كنت سعيدا طوال عملى فى (الإصلاحية) لم أهتم بما تفعله المديرة أو المعاون أو بعض الزملاء ، و رغم قسوتى أحيانا إلا أنهم كانوا - الأطفال و الفتيان - يسعدون بوجودى ويأتمرون بأمرى - و ما خالفونى يوما - كم اشتقت إليهم ، . . . ذات يوم كنت أتناول طعامى فى أحد محلات الفول أنا وزوجتى فإذا (بالجرسون) يبدى سعادة غير عادية لوجودى و يقدم لنا أفضل الطعام و أكلنا و عندما انتهينا سألته عن الحساب فإذا به يغضب و يقول :

- ألم تعرفنى يا بابا ؟

نظرت إليه ، حاولت أن أتذكره ، فى رعاية الأحداث كانوا يقولون (بابا) ، وعندما عملت فى رعاية الشباب ظل اللقب كما هو ، و اعتدت على أن ينادونى بنفس اللقب (بابا) ، نظرت إليه و قد هزتنى الكلمة و تألمت لأنه شعر بخيبة أمل عندما لاحظ أننى لا أعرفه فقال :

- أنا (طه) ، تلميذك و ابنك فى رعاية الأحداث .

و تذكرته ، طه . . . عاقبته فى يومه الأول عقابا شديدا ،

و استقام بعد ذلك ، وأصبح مقربا منى . . كان نشطا و صريحا و صادقا و أمينا ، دفعته للعمل خارج المؤسسة و نجح و أخذ يشق طريقه فى العمل حتى أصبح من أصحاب الخبرة فى إدارة المطاعم ، و تزوج و أنجب أيضا . . . أليس هذا أمرا مفرحا ؟ وأنا جالس هنا أو راقد - لا أستطيع أن أتحرك أو أحرك يدى و رأسى ، تدور الصورة فى ذهنى ، لست نادما لأننى قضيت شطرا من عمرى أعمل فى ميدان رعاية الأحداث ، و شطرا آخر فى رعاية الشباب ، ثم تنقلت بعدها فى عدة أعمال ، و لكن - والحق يقال - لقد تعلمت فى هذين المجالين أشياء عديدة ، سواء من الأحداث أنفسهم أم من الشباب؛ لأننى عشت القصص الحقيقة لكل منهم و لمست ظروفهم و حاولت الأخذ بيدهم ، و منهم من استجاب و منهم من خيب ظنى ، و فى الحالتين تعلمت العديد من الأشياء لم أكن لأتعلمها أبدا من الكتب ، و كذلك فى رعاية الشباب ، حيث كانت الرغبة تدفعنى لعمل شىء فريد . . سألنى زوج ابنتى : هل كنت مدفوعا من رغبة فى منصب أو شهرة أو مال ؟ ، قلت : لم أكن أفكر فى شىء من ذلك ، بل لو أننى فكرت لحظة واحدة فى هذه الأمور ، لما شغلت نفسى بالمكوث فى هذا المجال ، و خاصة أن أحلامى كلها كانت الرغبة فى أن أصبح كاتبا ، فلا معنى عندى لمنصب أو لمال ، كنت أتصور أن ما يمر بى ما هو إلا تجارب

يجب أن أعيها وأن أستفيد منها ، هذا ما قصدته من عمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأذكر أنه قبل عام ١٩٦١ - وكنت صاحب شركة سياحية ناجحة - عرض أحد الأجانب أن يبيعنى شركته بعرباتها الفخمة ومشتملات مكاتبها وما يتبعها من منشآت مع العقود المبرمة أيضا ، على أن أدفع ثمن كل ذلك مقسطا على عدة سنوات ، فقط علىَّ أن أدفع له المال فى سويسرا حيث كان ينوى الرحيل ، خصما من مستحقات الشركة لأفواج سياحية من البلد نفسه ، وسوف يرسل لى هو الأفواج ومبلغا يكفى لمصاريفهم ثم يخصم هو الباقى فى جنيف حتى يتم حصوله على الثمن المحدد بيننا ، فرح (ناجى) محاسب شركتنا وهلل (هنداوى) المدير العام ، وذهبا بالفعل إلى المحامى لإعداد عقد البيع الذى يوقع عليه صاحب الشركة معى أنه استلم كافة مستحقاته وأن الشركة أصبحت ملكا لى ، كما ذهبا إلى البنك لإعداد (قرض) يمكن منه تسديد التزامات الشركة الجديدة وأيضا ندفع للرجل السويسرى المبلغ الذى وافق على قبوله قبل سفره وهو لا يمثل إلا نسبة صغيرة من ثمن شركة كانت تقدر بحوالى نصف المليون ، .. وشعرت بالخوف ، ماذا أفعل ؟ إنها عملية سرقة لأموال بلدى ، سيحول الرجل ثمن شركته إلى الخارج من وراء القانون ورفضت .. بكى (ناجى) الذى كان قد أنهى الإجراءات تقريبا وخاصة

قرض البنك ، واعتصم (هنداوى) بمكتبه يأسا من إصلاح حالى ، و لما تم رفض الصفقة نهائيا ، استقال ناجى بعد أن كتب يقول : إنه ثبت عدم صلاحيتى - يقصدنى - للأعمال الاقتصادية وإنه يجب الاكتفاء بدورى كمصلح اجتماعى - و سافر ناجى إلى الكويت واشتغل هنداوى فى الخارجية وبعدها سافر إلى باكستان ، وبعدها جرى تأميم الشركة ، واليوم أنا فى المستشفى فى لندن قرأت و أنا أبكى خبر وفاة (هنداوى) سفيرنا فى الكويت ، سبحان الله ، هنداوى الذى كان بمثابة أخ أصغر لى و كان يعمل كل جهده لكى يرضينى ، تركنى واشتغل بالعمل الدبلوماسى الذى ظل فيه حتى رحل عن عالمنا ، وبشر الصابرين ، وتذكرت زوجته وبناته وبكيت كنت أحبه وأتابعه وأسعد كلما ارتقى السلم الدبلوماسى .

دخلت كبيرة الممرضات (چيسى) و هى تبتسم لأنها علمت بذهاب ابنتى للتسوق ، و قالت : إن هذا فأل حسن ، و قالت : إنها تدعو لى الرب فى صلاتها فقلت : و هل تذهبين إلى الكنيسة يا چيسى ؟ ، قالت فى حماس : كل أحد . قلت : الحمد لله لأن الجميع هنا لا يحبون الكنيسة و لا يحترمون التدين ، قالت : أنا تعودت على الذهاب إلى الكنيسة وأحرص على الذهاب أيام الآحاد، ثم راحت تحدثنى عن زواج المرأة من المرأة و زواج الرجل من الرجل و الذى يتم فى الكنيسة ، و أنه

قانونى و معترف به . ولما أبديت اشمئزازى ونفورى من هذا الأمر ، اتهمتنى بالرجعية و التخلف و لا أدرى لماذا يتم زواج المرأة بالمرأة و يتم التسجيل لهذا الزواج بل يتم (تدشينه) فى دار العبادة ؟! أى تحول هذا عن المقدسات و الشرعية ، و لكن كيف أتعجب من هذا الأمر و معظم الممرضات يعشن مع رجال ليسوا بأزواجهن ، و لا يبدين حرجا ، بل يتحدثن عن ذلك على أنه أمر عادى لا خبث فيه و لا فسوق ، ثم هذا العدد الهائل من الأولاد غير الشرعيين ، يعرض التليفزيون مشاكلهم كل مساء ، حتى هؤلاء الأطفال الذين يجدونهم فى مواسير الصرف الصحى و فى أماكن تجميع الزبالة ، لقد شاهدت (مذيعة) استطاعت أن تركب عربة قمامة من الداخل ، و أن (تندلق) مع القمامة لكى ترى بعين رأسها آلاف الأطفال وقد تجمعوا فى (مقالب القمامة) ينظرون إليها فى بلاهة ودهشة وكأنهم قادمون من عوالم أخرى ، و ليسوا من لندن عاصمة المملكة المتحدة و التى تدعى أنها رائدة التحضر الغربى المعاصر . . ، تركتنى (چيسى) تعيسا و لم تفلح محاولاتها فى إعادة الهدوء إلى نفسى ، و رفعت إلى الله يدى عله يرحمنى و لا يميتنى فى هذه الأرض الخراب ، و أن يعيدنى إلى ديارى المسلمة و إلى أهلى ، هناك نعرف العيب ونعرف حقوق الله وحده فلا نتعداها و سبحان الله .

تحلق الممرضات حولى لكى يعيدها إلى الهدوء . . ولكن الألم يصد النفس .

عندما وصلت الباخرة إلى نابولى ، كنت قد حزمت حقائبى بعد أن حذرنا قبطان الباخرة (سوريا) من البلطجية فى ميناء نابولى ، فما كدت أحمل حقائبى لكى أغادر الباخرة حتى رأيت رجلا مثل المارد وقد بدت عضلاته والقطع الجلدية التى وضعها حول رسغه ، شعرت بالخوف الشديد ، وهذا المارد يقترب منى ويقول كلمة واحدة (سجاير) (سجريت) ورأيتنى وقد تحولت إلى كلب مسعور يدافع عن حياته أمام أسد ، ولا أدرى كيف زأرت بكل هذه القوة، المهم أن المارد اختفى كما جاء . . جلست على حقيبتى أحاول أن أتمالك نفسى وأردد: هل هذه إيطاليا فقد جئت إليها لكى أتعلم ، أتعلم ماذا ؟ تمالكت نفسى وخرجت . . وجدتنى ورفيق آخر نسير فى شوارع نابولى نسأل عن الطريق إلى روما ، واقترح زميلى ، عندما لاحظ كثرة السيدات الجميلات اللائى يحاولن إغراءنا أن نبيت الليلة فى نابولى ثم نركب القطار إلى روما فى الصباح ، وخاصة ونحن لم نتأكد بعد من كيفية الوصول ، وافقته وذهبنا إلى الفندق . . ما كدنا نضع حقائبنا حتى رأيت زميلى وهو يندفع من الغرفة مسرعا نحو إحدى السيدات وراح يتفاهم معها بلغة الإشارة ، لأننا لم نكن نعرف الإيطالية، جاء بعدها لكى يجرنى

إلى الصالة و هو يشرح لى أنه اتفق معها على أن يمارس معها الحب و يدفع لها مبلغا زهيدا و يريد أن أجلس فى انتظاره و معى محفظته و جواز سفره . . و لم يترك لى مهلة التفكير فقد رمى لى بالمحفظة و الأوراق و أيضا بعض ملابسه . . و سحبته الأنثى الإيطالية إلى حجرتها التى لم تكن بعيدة ، و جلست أنا و قلبى يدق بشدة فلم تكن لى بهذا العالم دراية خاصة و أنا لم أتجاوز عامى الواحد بعد العشرين و هذه أول رحلة لى إلى أوربا ، و صدمتنى سيدة عجوز تحمل المناشف . . ما كدت أعتدل حتى واجهتنى سيدة وهى تتعرى و قد أمسكت بجندى أسود تجره خلفها ، و شعرت بأن معدتى تفور ، غثيان ، و جسدى ينتفض ، فجريت نحو الشارع والقيء يسبقنى .

و قضيت ليلة كاملة و أنا أحاول أن أطرد هذه الصورة عن ذهنى و لكنها . . . تشبثت أمام عينيى ، و لم تتركنى قط و ظلت معى حتى اليوم كلما جئت إلى أوربا ، و لا أدرى أنها كانت من رحمة الله لأنها أبعدتنى عن عالم النساء و الخبائث و خاصة هنا فى أوروبا ، و أحبتنى فتاة من روما كانت تأخذنى فى الآحاد إلى بيت أسرتها حتى كدت أكون واحدا منهم ، و لكنها فى النهاية لم تطق معاملتى لها و التى تتسم وفق تقاليدنا بالكياسة و الأدب و الحشمة ، فانفجرت ذات مرة و هاجمتنى لأننى لست رجلا ، و لم أستطع أن أثبت رجولتى ، و فضلت أن أفارقها و أنا حزين

لصداقة جعلتنى أحب روما و أقضى يوما كل أسبوع و كأننى مع أسرتى ، و خاصة وأن ما معى من النقود لم يكن كافيا ، فعدت لقضاء أيام الآحاد ، أيام عطلات الدراسة متسكعا فى شوارع روما ، جالسا فى إحدى الحدائق ، لأتغذى (رنجة مملحة) فهى أرخص طعام ممكن أكله ، لكن لم أندم ، و تكرر هذا فى ألمانيا ، و خاب أمل زميلتى التى أرادتنى حبيبا و لكن هربت منها ، ثم تكرر هذا فى موسكو ، و فى برشلونة ، و فى لندن و فى كل مرة لا تفهم الفتاة الأوربية ما نقوله نحن عن الحرام و الحلال ، و ضرورة الزواج قبل المعاشرة . . . والأهم ، هذا الذى يحدث لى عندما أرحل إلى بلد أوروبى ، إنه . . أشبه بالرفض الداخلى لكل سيدات وفتيات أوروبا . . . و لكن حدث أيضا هناك فى بلادى ، حدث كثيرا جدا و فى كل مرة أمر بهذه التجربة الأليمة أعيش لحظات أرانى فيها مهزوما من الداخل ، و لا أستعيد نفسى إلا بعد أن أرقد فى فراشى ، و أغمض عينى و أتحول إلى اثنين ، أحدهما راقد بلا حراك و الآخر يذهب بعيدا طائرا ، أرى الأشياء تصغر ، الجبال ، المدن ، القرى ، و الطرق تلتوى أتجه أحيانا إلى حيث أريد . . أحيانا أذهب إلى الكعبة و هذا ما يحدث غالبا . . أهبط ، أطوف ، أصلى ، أرحل و أعود ، أصير واحدا ، أشعر بالإرهاق الشديد ، أحيانا يكون

بجوارى أحد من أفراد أسرتى لا يعرف ما حدث ، ولكنه حدث ، وأعود إلى حياتى ، مرة أخرى أحكى عن الحب كما شعرت به وكما عايشته ، إنما ذلك الذى صرت كما سبق وأن أشرت إليه كان شيئا آخر غير الحب ، إنها رغبة جامحة ينفر منها عقلى ويفر منها جسدى ، ويحدث لى ما رويت .

تدخل (چيسى) كبيرة الممرضات تقول إن البروفيسير يريد أن يراك ، يتجمع عدد من الممرضات والطبيب المقيم ، يدخل (يعقوب) مبتسما : كيف حالك ؟

أبتسم ولا أقول شيئا ، ينظر إلى الجرح ثم يفحص القدمين يهمس إليه الطبيب المقيم ببعض الكلمات ، ويضع يعقوب الواقى على فمه ثم يأخذ فى فحص الجرح جيدا ، يتحدث خلال الفحص عن الأخبار التى سمعها ، . . . . كانوا قد اغتالوا (بريز) ، يعتدل ويملى بعض التعليمات على من حوله ، بنظر نحوى ، ولا يخبرنى بشىء عن المرض إنما يواصل حديثه عن مقتل (بريز) وعن دور جماعات التطرف اليهودية وينصرف باسما كما جاء . . يهرع خلفه كل من جاء معه . . أنام وحدى الآن ، أفكر فى حكاية الإرهاب اليهودى ، يعقوب يرى أن كل الأديان بها متطرفون وأن هؤلاء هم أعدى أعداء الإنسانية والدين ، هناك جوانب مضيئة كثيرة فى هذا الجراح الشهير والذى يصفه المرضى بأنه لا يبتسم أبدا ، ومع هذا أراه دائما

مبتسما ، وربما لأنى رأيته كثيرا وفى أوقات مختلفة من النهار والليل .

أحلق فى الفضاء وأرى البلاد من فوق ، وأرانى وقد تحولت إلى شخصين ، كما يحدث لى فى كل مرة ، أقوم بالرحلة ... لكى أراها ، وتبتسم وتدس فى يدى قطعة من ورق ، فأعود وأرى جسدى ممددا وأرى الذين جلسوا بجوارى وهم لا يشعرون ، ثم أهبط ، وأعود ، وينتفض جسدى ، وأشعر بالعرق يغمرنى ... ، والإرهاق يهدنى ، وأفتح عينيى لأرى يدى وقد أمسكت بالورقة أحيانا تكون مجرد ورقة بيضاء ، وأحيانا أرى عليها كتابة ، وتدلنى الكتابة على ما يجب عمله ، ولا أخبر أحدا بما حدث وخاصة أنه لم يستغرق زمنا ، بل لم يستغرق إلا دقائق ربما تصل إلى ثلاث .

أحاطونى ، قالوا : لن نعطيك مخدرا ، قلت : الألم أنواع وأشكال وألوان ، تلك عذابات الدنيا من ألم الجسد ، غير ألم الظلم ، غير ألم الخيانة ، غير ألم الهجر والفراق ، غير ألم الحاجة ، غير ألم لا تعرف له سببا يسمونه الإحباط ، وقد عشت الآن شهورا كثيرة شهدت فيها عشرات من أنواع الآلام ، أحيانا أشعر بها متفرقة كل ألم يأتى أياما ، وأحيانا تتجمع كلها فى لحظة واحدة ، فارقت الأهل والأحباب والأصدقاء والعمل ، فارقت الهدوء ... فارقت مصر ..إحساس بالظلم

والضنى والوحدة .. والظمأ ، ما أعظم الألم عندما يحاصرك الظمأ حتى تتقلب على جمره والماء أمامك ولا أستطيع رى هذا الظمأ ، ولا أستطيع أن أذهب إلى الحمام إذا أردت ، ترى ماحولك يتحرك ، يتكلم ، يضحك ، يشكو ، يحكى عن المحلات والشوارع والمترو ، وعن أشياء عادية ، لكن كل هذا يعد عملا سحريا لا تقدر عليه ... يهدك المرض ، ويشلك الخذلان والضعف ، وتبتلع الحبوب فإذا أنت قد تخلصت من ألم الجسد لترى نفسك فريسة ألم آخر من نوع آخر - هلوسة - لا تعرف أين أنت وماذا تفعل ؟ لجأت للصلاة ، تقول ابنتى : أراك تصلى حتى وأنت نائم ، تبدى دهشتها لأننى لا أصدق ذلك ، ولكن إذا كان هذا يحدث فإنه فضل من الله ونعمة .

(باندیا) عاش بداية حياته فى الهند حتى تخرج فى كلية الطب ثم جاء إلى إنجلترا ليستكمل دراسته ، أصبح صديقا لى ، يجلس معى كثيرا ونتحدث عن نهرو وناصر وكيف عاونا فى استقلال العديد من الممالك والدول .. تحررت الآن وأصبحت دولا ذات سطوة فى السياسة الدولية ، نتحدث عن (الإنجليز) ، نكاد نتفق على رأى واحد ، فقد ولديه فى حادث سيارة ، لم يبق له إلا ابنة واحدة تدرس الطب هنا فى لندن ، جاءت مناسبة الحديث عن أكسفورد ، كانوا يتباهون بأنهم تخرجوا فى أكسفورد .. تمنيت أن أذهب إلى أكسفورد ، وذهبت وخرجت

محمولا على الأكتاف هاربا من سوء المعاملة وعدم كفاءة (البروفيسير) الذى أجرى لى الجراحة ، بانديا يطالبنى بعدم تذكر أيام أكسفورد، والنظر إلى المستقبل ، وتحدث عن نهرو ، تحدثت عن ناصر ، كنت مصاحبا لكريمتيه وهما طالبتان بالمدرسة الثانوية ، وكانتا تذهبان معى فى رحلات إلى أسوان والأقصر ، وقفت ذات يوم ومنعت عبد الناصر الزعيم من الدخول إلى مهرجان الشباب ، وقتها لم يغضب لأننى كنت أنفذ تعليمات (كمال الدين حسين) ربما ينسى الكبار هذه الأشياء الصغيرة ولكنها تظل فى ذاكرة أمثالنا من (الصغار) ، ورويت لبانديا ، كيف كنت أحب عبد ناصر ، وكيف حاربت فى ١٩٥٦م مع قوات الفدائيين وكيف حاربت فى ١٩٦٧م وشعرت بالقهر وأنا أرى الجنود وهى تفر هاربة من شرق القناة إلى غربها ، رأيت الجنود فى الطرق الموصلة إلى القاهرة والدلتا وهم شبه عرايا كأنهم متسولون ، وكيف خرجت جماهير (بنها) إلى محطة القطار بعد إشاعة انطلقت بأن القطار محمل بالأسرى من اليهود ، وخرج الناس فى غضب جامح لكى يقتلوا اليهود وضربوا القطار الذى أسرع قائده بالفرار من المحطة ، فقد كان يحمل جنودا من الجيش المصرى وليس من أسرى اليهود ، ومع ذلك كم من جندى أصيب بقذائف الطوب التى صوبها إلى القطار رجال غاضبون ، ورويت لبانديا ، كيف جاء

أمر الانسحاب و الانتشار وكنت فى الإسماعيلية و رأيت جحافل جيشنا وهى تفر فى فوضى و لا أحد يعرف شيئا حتى نحن قادة المعسكرات جرينا إلى قاهرتنا وبكيت و أنا أقبل كوبرى قصر النيل و كوبرى الجلاء و أعلن أسفى و ندمى على إهمالى فى الدفاع عن كرامتهما و كرامة مدينتى .

وأعلن ناصر التنحى ، و بكيت ، و ظللت أبكى لأننى فقدت هدف الكتابة ، و كيف أكتب عن بلدى بعد اليوم ؟ كيف أكتب عن السد العالى وعن المقاومة فى بور سعيد و المنزلة ؟ و بكيت بعد أن عرفت الحقيقة ، و أن الجيش لم يحارب و أن الزعيم كان يعرف مقدما وقت الحرب و تاريخه وزمنه ، و مع ذلك لم يفعل شيئا .. أو ربما دفع بجيشه لكى يموت .. و عرفت كم من الجنود قتلوا و هم أسرى ، كانوا لا يهتمون بأسر الجنود ، (فكة) لا لزوم لها ، كانوا يقتلونهم و يبقون على الضباط فقط ، و مات كثيرون و لكن الأهم يا صديقى بانديا .. مات الحلم فى قلب الإنسان المصرى الذى ظل يحلم ، واكتوى بالنار كل مصرى ، حتى هؤلاء الذين كانوا يتمنون زوال (عصر البكباشية) نسبة لرتب ضباط الثورة ، عشت أنا هذا الزمن المحزن المؤسف الضنين بالحلم و الأمل ، و جاء البروفيسير يعقوب و لابد من الصبر ، تقول ابنتى إن زيارته تحمل لها المزيد من اليأس و الحزن ، و لكن بانديا له رأى آخر ، إنه يقول لقد

حاربت ٧٣ وانتصرت لنفسك وانتقمت لهزيمة ١٩٦٧م ، أقول فى أسى : آه . .

وتذكرت (سامى) وكيف أكلنا الفول المدمس بالزيت الحار ثم سافرنا إلى السويس حيث تمركز قواتنا الخاصة ، ولكننا لم نصل ، كان اليهود قد دخلوا السويس أو بمعنى أدق احتلوا منطقة الزيتية وانفجرت سيارتنا ، وواصلنا السير حتى توغلنا فى منطقة اليهود لم يعرفنا أحد ، ورأيناهم قد حبسوا المدنيين فى أحد عنابر شركة البترول ، تسللنا لكى نخبر القيادة ، كتبت عن ذلك فى رواية العام الأول للميلاد .

سألنى كثيرون أن أكتب مذكراتى ، وأنا لا أحمل ذكريات ، أحمل فقط هموما جبلية ، سافرت إلى أسوان ، ودخلت منطقة السد ورأيت (الكراكات) وهى تحمل أطنان الصخر وعربات نقل الصخور ، كانت الآلات تشبه الديناصورات أمريكية الصنع وإنجليزية ، و(عثمان) اشتراها من إنجلترا وأمريكا وألمانيا وعندما حضر (ناصر وخروشوف) همس أحدهم فى أذن (عثمان) : إنهم سوف يرون (ماركة چونسون) على آلات الحفر والرفع ، ونحن نقول إن السوفييت هم الذين يساعدوننا ، وجدنا أنه من الأفضل دهان الآلات والعربات باللونين الأصفر والأسود على أن الأسود فى الوسط حتى يغطى الماركات الإنجليزية والأمريكية على الآلات ، ووقف الزعيمان

(ناصر و خرشوف) فى افتتاح المرحلة الثانية وصفق العمال وهللوا وذبح عثمان الذبائح وأكل أكثر من مائة ألف عامل صعيدى ، بينما أكل الروس البصل والكرنب واشتهت النساء الروس رجال أسوان والنوبة ، وعندما رزقت إحدى الطبيبات الروس بمولود أسود لم يفعلوا شيئا سوى إعادتها إلى موسكو ، وزادوا فى توزيع حبوب منع الحمل ، لم أكن أعمل فى السد العالى كنت فقط أحد عشاقه ، لا أغيب عنه إلا للضرورة . تصادقت مع المهندس عثمان ومهندس آخر لم أعد أذكر اسمه كان مسئولا عن إنقاذ معابد (فيلة) ، كان يقول لى : تخرجت فى كلية الهندسة لكى أعمل فى عملين فقط ، ميناء الإسكندرية البحرى الجديد ، وإنقاذ هذه المعابد ، وعندما أتمهما أتقاعد ، وعجبت لهذا الرجل الذى تولى أمر مشروعين اثنين فقط ، كان يجلس أمام الصخور المرقمة ويحكى لى ذكرياته عن تجديد ميناء إسكندرية البحرى ، ويقص حكاياته ويضحك . تأثرت به فقد كان نموذجا فريدا ، وكان يذكرنى بأحد أقارب الملكة فريدة الذى كان يعمل معنا بعد الثورة .. طبعا مجرد رئيس عمال ، ولكنه كان يتولى هذا العمل بحماس شديد وكأنه يقود معركة حربية مهمة .. وعندما أحس بأن عماله لا يتحمسون استقال لكى يفتتح مطعما من نوع فريد أداره مثل القائد نابليون باهتمام شديد ، وكانت زوجته تعامله - كما كانت زوجة (نابليون)

تعامله - بجفاء شديد ، وصديقى الأمير السابق هذا كان يصر على إقامة احتفال كبير بعيد ميلادى ، وكان على استعداد لأن يخالف زوجته وكل عشيقاته لكى أوافق على السهر معه فى هذا الاحتفال الذى كان يخلو بالطبع من الخمر والنساء وهو ما لا يطيقه أميرنا السابق ، وأسرع بانديا بتغيير موضع (الحقن الآلى) وقال :

- يجب أن نزور معا السد العالى .

رأيت الجبال شامخات والماء يتدفق بجوارها خائفا مترقبا ، ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ حفروا الجبال الشاهقات ، ودكوها . أحالوا جسدها ترابا يذوب فى الماء ويجرى معه ، تتلقفه آلات الشفط لكى تعيده جبلا مرة أخرى ولكن فى الناحية الغربية وأصرخ فى ظلمة النفق . . . الله . . الله هو الذى خلق ، هو الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، علمه الأسماء كلها ، علمه القرآن ، ثم قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، سألهم فلم يجيبوا وسأله فأجاب ، أكرمه بالعلم، ولكن الإنسان لا يعلم إلا إذا أذن الله له بالعلم ، هكذا علم الله مئات ألوف من الصعايدة بناء السد العالى ، بينما علم الروس أكل البصل والثوم والكرنب ، وبنى الفلاحون الفقراء السد العالى لأنهم آمنوا بالله وبملائكته ورسله وكتبه ، آمنوا فعلمهم الله ، وأوصى لهم بما

يجب أن يفعلوه بعقولهم ، فالعقل هبة من الله و من أراد أن يحبه الله يجعل ذكر الله فى عقله لا على لسانه فقط .

لا إله إلا الله . . أتصور أن كل من يتحركون حولى كأنهم سحرة ، وأنهم يحققون معجزة ؛ لأنهم يمشون و يتحركون و يتكلمون و يأكلون و يشربون ، و أسال كيف يفعلون هذا ؟ إنهم يتحركون بكل سهولة و أيضا يتجرعون الماء والشاى و يمضغون الطعام و يتحدثون عن المترو والشارع و عن أشياء عجيبة تحدث فى الشارع وعن مظاهرات (الزنوج) و أعياد الزنوج ، و عن الرجل الذى أغلق المسجد الذى بناه لأنه يريد أن يبيعه فمن أراد أن يصلى فعليه أولا شراء المسجد ، و أعلنت الصحف الخبر ، و تعجب زوارى من هذا الأمر الذى وقع بالقرب من المستشفى و فى المساء قالوا : إن الناس دفعوا لصاحب المسجد و تركوا أبوابه مفتوحة و لم يعلن أحد عن اسم الذى دفع أو أسماء الذين ساهموا فى شراء المسجد ، و ضحك الإنجليز على هؤلاء السذج الذين يشترون (مسجدا) ثم يتركونه للآخرين ، فعلا نحن أمة من الأغبياء لأننا تركناكم تفعلون بنا هذا .

خانونى و زجوا بى فى متاهات الظلم و شهدوا ضدى و أقسموا ، لم أصدق أنهم فعلوا ذلك ، كل هؤلاء قالوا ها هو كتابك (اقرأ ما فيه ، اقرأ ، أنا إنسان يا ريس ، لست

معصوما من الخطأ ولكننى لم أفعل هذا . . يقول المحقق : إن هذا ما أجمع عليه الشهود ، ولكنهم يا سيدى ليسوا شهودا إنهم أصدقاء وإخوة وزملاء ، يردد فى أسى : هكذا قالوا وأنت الآن مدان . . أحاول أن أبتعد ، لماذا تصر تلك الأحداث على أن تلاحقنى ؟ خرجت بريئا من كل ذنب ، واعترف العدو والصديق بأنى كنت مظلومًا ، ياه . . . كلمة العدو هذه تبدو منفرة ، لا أحب أن أكتبها أو أذكرها ، الناس كلهم أصدقائى لقد نفعنى الله بهم ، كانوا وسيلة لكى أرتفع عن الصغائر وأتقوى على الشدائد . . وعندما قابلت (محافظ القاهرة) الذى كان يتباهى بأنه لا يخاف من أحد وأنه أقوى من الناس ، ويضرب من يشاء ويعاقب من يخالفه ، قلت له : أنت تراب، مجرد تراب حتى ولو كنت فى عبقرية (نابليون) وقوة (رمسيس) وعندك مال (قارون) وحكمة (أفلاطون) ، فأنت هالك لا محالة وميت وصائر إلى تراب، زمجر ، ولكنى واصلت هجومى فرأيته وقد تحول إلى فأر صغير ، وتضاءل هذا الرجل الذى وصف (ناصر) ذات مرة بأنه نبى بل أفضل من ذلك ! أستغفر الله ، ذهب ناصر وذهب ذلك المحافظ المنافق ، وظل الحق ، وظلت مصر ، لأن الله واحد وحكمه نافذ ، وأنا متعب لا أعى ما أقول فقد تشابكت الأحداث واختلطت الأمور ، ومع هذا فأنا راض بحكم الله ، إذا أرادوا أن يدفعوا بى إلى السجن

فإن هذا من فضل الله ، و إذا لم يفلحوا فهو أيضا فضل من الله ، لقد هرب الصديق و هرب الأهل و لم يبق إلا وجه الله وأنا به متشبث ، أقف فى حلقة الذكر أردد الله . . الله . أتوق إلى احتساء (القرفة) ، و سماع المنشد ، يا من له سجد الملوك و تقدست أسماؤه ، يا من بيده ملكوت كل شىء و هو على كل شىء قدير ، امدد إلىَّ يدا ترفعنى من وهدة الظلم و الإظلام و الوهن ، ألوذ بالبيت ، أطوف به ، أشهد إنك أنت الله الأحد ، قالت (چيسى) كبيرة الممرضات : تحمّل . . والألم الحاد يكاد يعصف بى ، كانت تقوم بغيار الضمادات الأمر الذى يتطلب منها الكثير من الصبر وتطالبنى هى بتحمل الألم . . الشريط طوله متر ونصف ، يجب أن يدخل إلى الجرح الغائر فى صدرى ، كل لحظة تقول : إنها آسفة ، أحاول أن أتشاغل ، الليل يغطى المكان ، شجرتى لا تبدو فى الظلمة ، إنما يظهر شبح امرأة تقف خارج النافذة تنظر نحوى ، تتأملنى و أتأملها ، لا أدرى كيف جاءت إلى هنا . . . كيف دخلت حديقة المستشفى ، ربما إحدى الممرضات ، و لكن وجهها يبدو مألوفا . قلت لچيسى : كم مرة وقعت فى الحب ؟

قالت ضاحكة :

– ألم أقل لك ، لا تستعمل كلمة الحب لأن لها معنى مختلف عن قصدك .

قلت فى إصرار و أنا أحاول إبعاد فكرى عن الألم .

- فلتسمه ما شئت ، فكم مرة حدث هذا .

قالت فى أسى:

- مرة واحدة فقط .

كانت مشغولة بإدخال الشريط فى صدرى ، و شعرت بأنها لا تود البوح .

قلت مشاكسا و أنا أكتم ألمى :

- سمعتك ذات مرة تتكلمين عنه .

رفعت رأسها و نظرت نحوى فى هلع :

- لابد من أن ما يقولونه عنك حقيقة

قلت بصوت واهن :

- و ما هو ؟

قالت وهى لا تزال تنظر فى وجهى:

- إنك تعلم أشياء لا يعلمها غيرك .

قلت فى حزن و قد غمرنى الأسى :

- أنا لا شيء يا چيسى ، أنا نصف ميت و نصف مجنون و نصف رجل .

قالت و قد عادت إلى عملها بإتقان أشد :

- لا تتحرك حتى أنتهى .

و ذهبت ، قلت فى نفسى كم مرة وقعت أنا فى الحب ؟ .

وجدت صعوبة فى الإجابة لأننى إذا قلت لم يحدث أن وقعت فى الحب ، كنت صادقا ، و إذا قلت عشرات المرات ، كنت أيضا صادقا . . لأننى لم أعرف ما إذا كنت أعشق حقا فى كل مرة أم أننى أتخيل ذلك .

و أخيرا أحببت ذلك الحب الذى يتغنى به الشعراء ، كنت قد تخطيت مرحلة الطفولة و عرفت ما كان يعرفه رفاق المدرسة و يحكون حكاياته ، لا أدرى كيف وقعت فى غرامها ، كانت أقرب إلى الطفلة منها إلى الفتاة ، بيضاء بحمرة فى الوجنتين ، دقيقة الملامح ، رقيقة المظهر ، تجلس مع أمها على عتبة دارهم فى أول شارعنا . لم أخاطبها و لم أكلمها ، تكفينى منها نظرة بعينيها ، مجرد أن أرى الوجه الملائكى ثم أمضى وقد تعثرت بخجلى و ارتبكت خطواتى ، و شعرت بأن كل الناس يعرفون بحبى لها ، كانت دارهم واطئة عن مستوى الشارع ، وكانت دائما تجلس قابعة بجوار أمها على عتبة الدار ، وكان يحلو لى أن أعبر شارعنا عدة مرات فى اليوم . أتذكر هذا الآن وأبتسم رغم الألم ، أحاول أن أستحلب ذاكرتى ، أن أستعيد ذلك ، ذلك الحب الذى ملأ . . . قلبى و عقلى ودفع بى إلى متاهات . . . و أتذكر ذلك كما أتذكر بيتها . . كان يغطس فى بحر شارعنا و هى مزروعة هناك أعلى العتبة ترمقنى، وعندما تزوجت ، كانت الطامة الكبرى ، فقد كفت الطيورعن التغريد ، وسكنت

الريح ، وعصف بقلبى زلزال أحمق ، وحاولت البكاء ولكنى لم أستطع ، كنت كلما رأيتها أرتعد وأرتعش ولا أدرى ماذا أفعل ، أذهب إلى صديقى (رفعت) فيحدثنى فى القومية العربية وأصول الحكم ونظرية (أنشتين) ، وينظر نحوى فى دهشة فأنا على غير عادتى لا أعارضه ولا أناقشه لتعديل حلمنا المشترك نحو عالم أفضل ، أين أنت يا رفعت الآن وهل تعلم بمكانى ؟!

هل كان حبا ؟ عشقا ؟ لم نتقابل ، لم نتلامس ، لم أقل لها أحبك ، وهل كنت أحبها فعلا ، ذهبت إلى خالها (جابر) وحكيت له . كان مجرد (صعلوك) صغير يكبرنى فى السن ، عاطلا يوزع خدماته على أهل قريتى ، قادنى إلى عراف لكى يكتب لى دواء الحب ، وعرفت طوال عام كامل أسرار السحرة أومن يدعون ذلك ، وتعلمت كيف يكتبون وماذا يقولون ، وشربت عدة مرات من دواء الحب ولكننى لم أتقدم نحوها خطوة ، حتى تزوجت ، ونسيتها ، وضاعت منى ، كما ضاع العام مع هذا الرجل المشعوذ الذى أنهيت خداعه للفلاحين بإبلاغ (نقطة البوليس) عنه ، فاقتادوه إلى السجن ، كنت أذهب إليه ليلا ، داره فى عنق الحارات فى أول الدار غابة من الأحذية المغطاة . . . بالوحل ، تتخطاها فإذا أنت فى بهو سيئ الإضاءة والتهوية وعشرات من الرجال والنساء جلوس فى انتظار مقابلة (سيدنا) الشيخ ، فإذا دلفت إلى محرابه - وهكذا فعلت

بمعاونة (جابر) خال حبيبتي - إلى غرفته الخاصة ، لن ترى إلا نارا موقدة وسط الحجرة السوداء ، ورجل يجلس القرفصاء . تحدث معه (جابر) فأشار عليه بالخروج ثم التفت إلىّ ، كنت أعرف أنه ، بالتأكيد يعرف من أنا ، بل لابد من أنه يعرف كل شيء عني وعن عائلتي لمكانة عائلتي في بلدتنا الصغيرة ؛ لهذا لم أتوقع أن يدخل معي في محاورة ، مد يده بورقة صغيرة وقال خذ هذه واجعلها في ماء حتى تذوب ثم اشرب منه كل صباح ، وفعلت وظللت أداوم على شرب هذا المنقوع ، الماسخ ، ولكن الأهم . . أن هذه التجربة استهوتني ، وأردت أن أعرف عنها المزيد فكنت أتردد عليه كل ليلة أعاونه في كتابة الأحجبة وأقابل بعض أصحاب الحاجات بدلا منه عندما يكون مشغولا بعمل طقوس خاصة لجماعة من رجال ونساء كانوا يحضرون مرة كل أسبوع ، ولم يشركني في هذه الاجتماعات المغلقة إلا بعد فترة طويلة ، وعرفت الكثير ، قال لي إنني فأل سعد عليه ، عرفت كيف تختفي البهائم حتى تظهر على يد (سيدنا) ، وكيف تلد العاقر بعد أن تزور سيدنا ، وكيف (تنفك) العقد وتخرج الشياطين .

كنت أذهب إلى(رفعت) صديقي الوحيد في تلك الفترة ، ولا أخبره بما أفعل ليلا ، كنا نقرأ كتبا كثيرة ، وكنت شغوفا بالقراءة عن كل شيء وكان هو كذلك ، وكان والده - رحمه

الله – معلما عظيم الفائدة لنا و نحن فى هذه السن المبكرة ، وتحاورنا حول الجن و العفاريت و الشياطين ، و أخذنا نتذكر كل ما سمعناه عن الجنيات و النداهات و الساحرات اللائى يملأن حارات قريتنا ويجلسن بجوار النهر بالليل متخذات أشكال الحسان الجميلات أو متخذات أشكال الأرانب و الحمير ، فإذا اقترب أحدهم منها أمسكت به و دفعته إلى عالمها السفلى حيث لا عودة !

وقررنا أن نقوم بالتجربة ، طفلان مندفعان يحاولان معرفة حقيقة (الجنيات) و ذهبنا إلى النهر و مكثنا ليلة كاملة ، ظلماء لا ضوء لقمر أو لمعة لنجم فى السماء ، و لم نقابل شيئا ، مشى كل منا فى اتجاه ، ولكنه – ولعدة ليال – لم نلمح ولم نر شيئا ، ذهبنا فى ليال تالية إلى الأماكن التى كانت مسرحا لحواديت كثيرة عن الجن ، ذهبنا إلى (شجرة أبى كريم) أسفلها ظلمة داكنة وتمرح فيها أشقى الجنيات ، ولكن لم نر حمارا ولا حصانا ولا أرنبا ! هذا فضلا عن عدم ظهور الحسناوات ، .... ضحكنا لأننا فعلنا هذا، وعدنا ولم أخبره بما أفعله مع سيدنا ، ولم أخبر أحدا قط ، كما لم أخبره بما يحدث لى كل فترة، وهو أمر لم أتحدث عنه إلا هذه الأيام وبعد سقوطى فى وهدة المعاناة هذه ، وقد ترددت – حتى الآن- فى ذكره ، ها قد صرحت به بعد أن دفعنى بانديا إلى الاعتراف وتحدثت عن

الحالات التى تتسابق.. فأرى ما لا يمكن رؤيته فى حياتى العادية ، وأعرف تلك الأشياء التى كانوا يسألوننى عنها فأجيب وأنا لا أدرى كيف عرفت ما عرفت ، بل كنت أرى نتائج امتحاناتى وأنا لا أدرى حتى الآن تفسيرا لهذه الظاهرة، ولكننى لم أخبر أحدا بعد أن حذرتنى جدتى التى كانت هى الأخرى تسألنى عن أشياء مفقودة فأدلها، حتى أخبرتها ذات يوم بموعد وفاة جدى ، بل أخبرت جدى ، عرضا ، وأنا ذاهب إلى المدرسة بأنه سيموت بعد صلاة الظهر ويجب أن يستعد ، فذهب إلى حجرته ، وبعدها عرفت أنه مات وأنا خارج من المدرسة فهربت إلى بيت صديقى (رفعت) ، وحاولت أن أغلق فمى فلا أتحدث إلى أحد ، ولا أخبر أحدا بشىء .. وفشلت فى أن أقول لها أحبك ، وتزوجت ، وعرفت أن (سيدنا) دجال فأبلغت عنه الشرطة .

قبلها سمح لى سيدنا بأن أحضر الاحتفال ، ورأيت الرجال والنساء سكارى يشربون من شراب أحله سيدنا لهم ، واختلط حابلهم بنابلهم واختلطت النساء بالرجال ورأيت ما هزَّ وجدانى سنوات ، فقد كانوا شبه عرايا يشربون ويتبارون فى إباحية جاهلة و(سيدنا) ينشد فى نشوة !

جاء (رفعت) وأخبرنى بما فعله ضابط النقطة فى (سيدنا) وكان سعيدا لأنهم ، أخيرا ، أمسكوا به ، وقال: أنا أغار عليك

من كل شيء لمسك ، فقلت : فى دهشة لقد مسك شيطان كيف تقول هذا ، قال - فى صدق -: أنا فعلا أحبك ولا أريد لصداقتنا أن تزول .

قلت : ولكن الغيرة هذه للسيدات ، للعاشقات وليست لنا نحن الأصدقاء ! قال : ومن قال إنها حكر على العشق والعاشقين ، إن الصديق يشعر بأشد أنواع الغيرة عندما يرى صديقه ينصرف عنه ، قلت ولكننا لا نكاد نفترق ، قال : وماذا يحدث لك فى الصباح ؟ إنك تختفى عنى بعيدا ، وأبحث عنك فلا أجدك .

ياه . . لقد حاصرنى (رفعت) بغيرته فعلاً ، كنت أعشق الهواء الذى يأتى معها فى عربتها الحنطور ، أقف مشدوها فاغر الفم ، ناظرا إليها ، تهبط من عربة الحنطور أمامى مباشرة ، الملاك الذى قرأت عنه فى الكتب ، ينقصها الجناحان ، يمكن أن أصنع لها أنا الأجنحة . . تبتسم ، فقط تبتسم ، أحس كأن الدنيا تمطرنا بالياسمين ورائحة الجنة ، تقبض حقيبتها على صدرها وضفيرة من الشعر الأصفر المتوهج تحت شمس الصباح تتراقص على ظهرها ، والنور ينبثق من وجنتيها ، ولفيف بنات كالغزلان يحطن بها ، ترنو نحوى ، تتوقف لحظة ، ثم تدلف إلى باب المدرسة ، أظل أحملق حيث كانت ، ينهرنى سائق عربة الحنطور . . أذوب خجلا ، أظل أحلم برؤيتها فى اليوم

التالى ، تهبط على مهل على سلم عربة الحنطور ، أكاد أتلقفها بين أحضانى ، أكاد ألمس وجهها ، أكاد أتحسس ضفيرتها ، ولكننى فقط أحملق ويدور فى عقلى طواحين الفعل .. أحتضنها ، أقبلها أهمس لها بحبى ، أسمع هسيس أنفاسها المهتدلة ، ترنو نحوى ، لا أفعل شيئا .. تختلط الرغبة بالحلم ، تتماوج أحاسيس الحب والأمانى والخوف.. هل أحبها ؟ لا تكفى الكلمة ولكننى أعشقها.

- هل عرفت ؟

قال فى غضب : ماذا ؟

قلت :

- سوف أتخصص فى علم الكيمياء .

قال : وهل عرفت ؟

قلت متظاهرا بالرغبة فى المعرفة ؛ لأن عقلى كان معها هناك أمام باب مدرستها : ماذا ؟

- لقد قرر مدرس الكيمياء حرمانك وحرمانى من حضور حصته .. قلت منزعجا : وماذا نفعل ؟

ضحك وقال : ألن تخبرنى بسر غيابك عنى فى الصباح ؟

أصبح صديقى رفعت أستاذا ورئيسا لقسم الكيمياء بالجامعة !

الليل فى أكسفورد ، ألم وحزن وكابوس ، أعيش ليلا

مرعبا ، ونهارا مزعجا ، تداخل الأشياء والأفكار والكلمات ، يدور حولى الأطباء ، ولكننى أحس أن حالتى تسوء . .

أنتظرها فى نفس المكان بالقرب من باب مدرسة (فريال الثانوية للبنات) ، تتوقف عربة الحنطور ، يرمقنى سائق العربة ، فأحاول أن أدارى وجهى ولكنها تسطع كشمس الشتاء ، جميلة الجميلات ، شعرها الأصفر يتطاير وهى تهبط سلالم الحنطور ، قلبى يخفق بشدة ، ترنو نحوى ، تتوقف ، تحتضن حقيبتها وكأنها تقبلها ، أتمنى أن أهمس لها بكلمة واحدة :

- أحبك .

وحكيت لصديقى (حسين) ، ابن البندر عن حبى ، أضفت من عندى أننا نتبادل الحب ، وقلت كل ما تمنيت أن أقوله لها كأنه حدث فعلا ، أحببت حسينا لأنه دائما ملهوف لسماعى وأنا أتحدث عنها ، فى المساء أحكى له . . وبالليل أحلم بها تأتينى ، ونجرى ، ونذوب شوقا وفى الصباح أقف مشدودا مشدوها لأرقبها ، أنتظر لحظات هبوطها من الحنطور ومرورها أمامى ودخولها المدرسة ، ثم أظل يومى أعيش فى تلك اللحظات ياه . . كان حبا جميلا عشته كأنه حياة كاملة . . وجاء الامتحان وجاءت الإجازة ولم أعد أراها ، هل لازالت كما هى وردة فى ضياء القمر !

- أستاذ .

- نعم .

- أنت دائما تتحدث مع نفسك وتمسك بهذا المسجل الصغير ، ماذا تفعل ؟

- لا شيء . . مجرد حديث مع النفس ، مجرد كلمات.

قالت :

- أخشى أن يرهقك ما تقوم به .

- لم أعد أخشى شيئا . . ماذا أفعل ، هل أظل أحملق فى سقف الحجرة ؟ أموت . . قالت فى تلعثم :

لا . . ولكن . .

ضحكت وقلت لها :

- إن كل أسرة المستشفى يسألون نفس سؤالك ، ومع هذا سوف أخبرك بسر .

- اقتربت فى فضول وقالت :

- هل هو سر يخصك ؟

قلت : نعم . . فقط أخبرينى عن سر جمالك وأناقتك، انطلق الزهو مشرقا على وجهها وقالت فى دلال :

- أنت تجيد الغزل .

قلت : وأنت جميلة بشكل ملفت للنظر.

قالت فى دلال .

- ألا تخبرنى عن السر ؟

قلت لها : وأنا أتذكر إحدى الفتيات اللائى وقعت فى حبهن وكانت نادرة الجمال .

- أحببتها حبا لم يحبه أحد ، وعندما طلبت منى مصارحتها بمشاعرى لم أستطع العثور على كلمات تعبر عن هذا الحب .. كلمات لم يسبق لى أن قلتها لأحد أو كتبتها على لسان أبطالى .. لم أجد الكلمات .. فهربت منى لأننى لم أقل لها أحبك .

حاولت مواساتى وقالت

- وهل وجدت كلمة جديدة ؟

قلت يائسا :

- لا .

- وأين هى الآن ؟

- لا أدرى .

ذهبت ، ضاعت ، وأنا مازلت أبحث عن الكلمة الجديدة ، كيف أقول لها أحبك دون أن أقول لها أحبك .. كيف ؟

دق الباب ودخل فاروق يحمل طعاما ، لم أعد راغبا فى الطعام لم أعد راغبا فى شىء ، جاء طبيب شاب وراح يفحصنى باهتمام.. تناسيته ، .. لم أفق إلا بعد انتصاف الليل .

* * *

الفصل العاشر

المكان مجهول ، والزمان مجهول ، أرقب السماء ، الصخور ملونة ، . .و(الترولى) كأنه ترام يسير من القلعة إلى شبرا ، يدفعه رجل طويل ، أسمع ضحكات الممرضات ، السقف وحده هو الذى أرى ، أشعر بالحذر من الحركة الدائمة (للترولى) ، يدخلوننى حجرة واسعة ، تسطع الأضواء الشمس حارقة ، أدخل من باب المسجد الحرام ، أعرى كتفى ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك أهبط السلالم أدور مع الطائفين ، الرخام بارد ، تلسعنى برودة محببة فى قدمى ، أتوقف أمام حائط الملتزم ، ألصق جسدى بالحائط أتشبث بأستار الكعبة ، دمعى يسبق دعائى ، اللهم أعطنى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، اللهم اغفر ذنبى وأقل عثرتى وجنبنى الشقاء فى الدنيا والآخرة ، قلبى يخفق ، أتذكر أهلى ، أدعو لهم ، أتذكر رفاقى أدعو لهم ، ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ، هاهو الحجر الأسعد أقبله ، رأيته مرة أحمر ، وأخرى أزرق ، وثالثة أبيض ، لماذا سمى بالحجر الأسود ؟! لم أره أسود قط . الله أكبر ، هذا هو شوطى الثانى أتذكر أناس لم يخطروا على ذهنى من قبل ، الله أكبر أدعو لأمى

ثم لأبى ، أنهيت الطواف والصلاة ، زمزم عشقى ، أتوضأ ، أشرب أدعو ، زمزم لما شرب له ، نؤدى الصلاة ، الله أكبر ، صليت العشاء ثم جلست أمام الكعبة ، يحلو لى أن أنام فى الحرم وفى الطابق الثالث .. ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .. أصلى ، أتلو القرآن لا أود ترك الكعبة ، أعشقها ، أحبها تغلغلت داخلى ، ..الناس من حولى يتدافعون ، يهرولون ، أفقد اتزانى ، تسقط نظارتى ، قالوا لا تنحن ؛ الانحناء معناه الموت تحت الأقدام ، أحس بأن أقدامى تدهس أشياء لزجة ولينة ، تدفعنى الكتلة البشرية ، أرمى بالجمرات الله أكبر يلكزنى أحدهم ويقول لا تكبر عليه - يصر عقلى على التكبير ، هذه الواحدة ، فالثانية ، لا وقت ، تنتهى الجمرات ، يقول لى إنها (ست) فقط أصيح فزعا بل (سبع جمرات) .. أكرر ، الظلام من حولى ، لم أعد أرى ، هل أبحث عن نظارتى ؟ أين رفاقى ؟ معى اثنان من سوريا .. قواد حرب ، رجال من الصاعقة ، أمسكا بى أين أنت ؟ قلت فى لهفة :

- بل أين أنتم ، وأين بقية الرفاق ، نظارتى سقطت .

قال رفيقى السورى ، قائد الصاعقة ، إنها عالقة بملابس إحرامك . أعيد وضعها على وجهى ، رأيت النهار ، حكيت لهم أنه موجود بالفعل لا الرمز ، ابتسموا أعطانى طفل زجاجة

مياه ، شعرت بأنه تأنف عندما شربت ، وأعدتها ، قذف ما بها فى قرف، شعرت ببعض الحزن ، قلت لرفيقى (طارق) أود أن أحج حجة لا يشوبها نقص ، تذكرت هذا فابتسمت للطفل ، رأيت شيخا يخرج من الحرم ليشرب الدخان ، قلت فى نفسى ، أغمض عينيك ، شعرت بالإرهاق ولكنى ألزمت نفسى بالصبر والصمت والصلاة ، كان الشيخ يفتى بما يخالف (السنة المتبعة) ، وأشفق على نفسى ، أضغط على يد رفيقى (طارق) حتى لا ينفعل ، يزمجر فأسحبه إلى مكان الصلاة ، أدعو الله أن يجعلها حجة بيضاء لا تشوبها شائبة ، قالوا الجسر سقط وسقط مئات من الحجيج ومات كثيرون ، وقالوا إن مطار القاهرة احترق ، وإن فندقا كبيرا بالقاهرة قد احترق أيضا ، وقالوا إن الحجاج الذين ماتوا من مصر ، سجدت لله بكيت اللهم احفظ بلدى ، قالت ابنتى :

- حاول يا أبى .

قلت فى ضراعة :

- اطلبى لى طبيبا نفسيا ، لقد جن أبوك ! تدافعت الأيدى أكملت طوافى ، كدت أسقط ، وزعت المياه الغازية على ركاب السيارة كنت ملهوفا على رد شربة الماء التى شربتها من الطفل السعودى ، اشتريت الكثير من علب المياه الغازية ، شربوا . . كانوا من المغرب والجزائر ومن اليمن ومن ألمانيا . . شربوا

وشكروا ، حمدت الله ، قلت لأخى يجب أن تترك ماء زمزم على وجهى ، قال إن الجراحة انتهت . كم مرة حتى الآن سمعت هذه الكلمة . . انتهت الجراحة ، هذه المرة لا أشعر بشىء ، دعونى هنا فى الحرم المكى . . جذبونى ، قالوا لابنتى إننى كسول ومهمل ولهذا لا يمكن أن أشفى ، سقطت ، أعادونى إلى غرفة الجراحة ، تختلط الصور ، كم مرة جئت إلى هنا ، وفى كل مرة أشتاق إليها أكثر . . لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك ، أرفع صوتى ، يطالبنى الشيخ بالكف عن التلبية ، لم أسكت انطلقت ملبيا يشاركنى رفيقاى (عمارة وطارق) ، تصرخ أعماقى ، الرغبة فى التوحد تدفعنى إلى القرب ، يا الله . . يا حبيبى ، أمدد يدك إلىّ ، سمحوا لى بالتجول فى طرقات المستشفى ، بالليل . . أسير وأرفع صوتى بالدعاء ، أود أن أتوحد مع الدعاء ، أن أصبح أنا والدعاء واحد ، ندعو لرب واحد ، لن يسمعنى أحد إلا هو ، أرفع صوتى . . يا رب .

يأتى الصبح ، وتأتى جدتى لتضع فى حقيبتى طعاما ، أسرع لألحق بالقطار الذاهب إلى مدرستى ، ويأتى الصبح فى أكسفورد لأجدنى قابعا فى خوف على أحد المقاعد ، وهنا فى (الأولدكورت) تعاوننى الممرضات لكى أجلس ، يتحدثن معى ، الطعام لا تشتهيه النفس .

الليل فى أكسفورد معناه الألم والموت والرعب ، أموت رعبا ، أتسلل من الرفاق وأختلى وحدى ، أشار (حسن) ناحية الكعبة ، أحسست أننى قريب منها ، وجدتنى أعترف بأننى مذنب ، فعلت الكثير من السيئات وجريت وراء نزوات نفسى واعتقدت أن الشباب باق ، مرقت من الباب ، جريت نحو الكعبة لا أدرى إذا كان حجا أو عمرة ، اختلطت الصور ، وضعوا صينية الإفطار ، الطعام لا معنى له ولا رغبة لى ، جاءت ابنتى ابتسمت وقلت لها : إننى أحسن حالا ، وضعت اللقمة فى فمى لا أستطيع بلعها ، حاولت . . رفعت يدى حتى تكف عن إطعامى جاء مرضى آخرون ، فى حجرتى يجلس المرضى الجدد يسألون . . . نضحك ، نحاول أن نقنعهم بأن حالتى ليست القاعدة ، وأن الجراح الإنجليزى هو السبب ، وأن المستشفى الآخر هو الذى فعل بى هذا ، يبتسمون ويذهب كل مريض إلى حجرته ، تذهب ابنتى فى جولتها اليومية ، محاسن تحتاج إلى رعاية ، شقيقها تركها وذهب إلى لندن ، والفتاة السعودية تشعر بالوحدة ، وسيادة اللواء يشعر بالخوف الشديد ، وبانديا تأخر اليوم ، تقوم ابنتى بالترجمة بين الممرضة ورجل من قطر ، عدت من الحج سعيدا ، كنت قد اشتريت تفاحا ، تحلق أولادى حولى ، كنت قد استأجرت بيتا صغيرا وجميلا وبدأت أعيش حياة شبه مستقرة ، ولكن الذين دفعوا بى إلى العمل ، أحزنهم

نجاحى فحاولوا إيقافى ، لم أكن أعرف ماذا أفعل ، ناصر ناصر يحيا ناصر ، كنت أرددها فى معسكر روما ، وفى موسكو ، ورددتها فى حدائق المانجو فى الإسماعيلية عندما حاصرتنا القوات الإسرائيلية ، دفعت برفاقى وقررنا الموت ، كانت الطلقات تنهمر علينا مثل حبات المطر ، طلقات من كل حجم ، المدافع تقصف والطائرات تحاول اختراق حائط الدفاع الصاروخى ، رأينا الدبابات تئز بإصرار ، دفع (سامى) بمدفعه إلى الأمام ، ارتفعت الدبابة الأولى عن الأرض ثم سقطت ميتة ، ارتبكت الدبابات الأخرى ، تشجع الرفاق وراحوا يصطادونها ، تساقطت الدبابات مثل الفيلة السوداء الضخمة ، تعوى من الألم ، ازداد ضرب المدفعية وازداد انهمار مطر الطلقات . . . عوى إبراهيم مثل الذئب رأيناه ممسكا برأس ضابط إسرائيلى ، اندفعنا نحو الترعة وتخلصنا من عشرات تساقطوا من الدبابات ، ثم كفت المدفعية وهدأت الجبهة ، شعرت بالخوف من الصمت أدرت رأسى وأشرت لرفيقى (عزيز) ، تقدم (عزيز) مجموعة، بعد لحظات عاد القصف أكثر قسوة وضراوة ، الليل طويل والقصف لا يكف ، تشبثنا بمواقعنا لم نفكر فى الحرب الماضية ، أخيرا جاء الصبح ورأيت أن الرمال والطين لم يكونا إلا تلالاً من الطلقات التى لم تنفجر وسقطت علينا كما هى . . قالت ابنتى :

- يجب أن تأكل .

وقال بانديا :

- جئت لرؤيتك والجلوس معك.

قلت فى ضراعة :

- الألم يعصف بى والوهن يشلنى .

قال مبتسما :

- حارب .

حاربت ، حاربت كل حروب مصر ، وكل حروب جيلى الذى مات قبل أن يولد ، حاربت القهر ، والظلم والغلاء وقلة الحيلة ، حاربت مع عبد الناصر حتى انخلع قلبى ، وحاربنى عبد الناصر فى لقمة عيشى وحاصرنى حتى كدت أفقد حياتى ، وجريت إليه . . إلى الله . . كان بيتنا يطل على ضريح سيدى يوسف ، وكل مساء يوم الاثنين يأتى الرجال ويقيمون حلقات الذكر ، أواظب على حلقات الذكر ، أردد مع المنشد الله . . الله يعلو صوت المنشد جميلا رقراقا مثل صوت الكروان ، تقول جدتى إنه يقول لا إله إلا الله ، الله . . تنتشى روحى وأنا أشترك فى حلقة الذاكرين ، طفلا صغيرا كنت محشورا بين الرجال فى حلقة الذكر ، أنفصل عن عالمى ، أتحول إلى شخصين ، كل منهما يرى الآخر ، أطير أرتفع ، أرى ، أعود . . والآخر

يرقبنى ، يحدث هذا أحيانا عدة مرات فى اليوم وأحيانا أخرى تمر الأيام ولاشىء يحدث .

وأنفصل عن ذاتى لكى أفكر فى أشياء عديدة ، تدور فى رأسى الأفكار ، أصبح ذكيا للغاية عندما أكون وحدى . . جاءت اليوم إلينا سيدة تقوم بواجب الزيارة نيابة عن الجالية المصرية ، سيدة سمراء لطيفة المعشر ، أسعد أحيانا بالزوار ، حادثتنى سيدة من الخليج ، . . أحيانا أشك فى وجودى كله . . وأحيانا أتصور أننى مجرد أكذوبة ، ولماذا لا أشعر بأهميتى ؟ . . تحيرنى هذه المسألة كثيرًا.

أتوق إلى عناق أبى ، إلى حديثه ، صديقى ومعلمى وكل حياتى ، قويا شجاعا ، مهابا ، تخافه نساء حارتنا ويهابه الرجال ، له وجه جميل ، وحديثه أجمل فى جلسات صفائه يرتل القرآن لنفسه ، أستمع أشعر بالخشوع ، ثم أجده وقد تحول إلى عاصفة جامحة لا تبقى أمامها شيئا ، لا يخاف أحدا ، ولا يخشى إلا الله ، يحنو علىّ ويعلمنى ويجلس ليقص علىّ كل ذكرياته وما حدث له . . جدى يقرأ (المصرى) بعناية ويشرح لى سياسة الوفد ، جدتى تحكى لى (حواديت) ألف ليلة وليلة ، أمى تقص علىّ قصصا ولا تكملها أبدًا .

قالت ابنتى :

– إنهم قادمون لإجراء جراحة صغيرة فى صدرك .

أم كلثوم تغنى (رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا ، علمونى أندم على الماضى وجراحه ، اللى شوفته قبل ما تشوفك عينيا عمر ضايع يحسبوه إزاى عليا) اللى شوفته ، ماذا رأيت ، ماذا رأيت والرؤية هنا . . الرؤى والأحلام وما أكثرها ، الرؤية ضاعت ، طفولة حبيسة ، عمل متواصل وقراءة ، وشباب ضاع منى ، وكهولة محفوفة بالمرض ، الله . . لا أحصى ثناء عليك ، أنت الله ، قال ابنى عمرو : إن الله لا يصنع إلا خيرا ، صدقت ياعمرو ، تذكرت أولادى ، يقولون فى بلدتى إننى رجل (مزواج) ، وتزوجت بثلاث نساء ، قالوا تزوج مثل كل الشباب ، من فتاة من أسرة عالية المقام ، وفرحوا وأكلوا الوز والبط والحمام ، ثم قالوا تزوج ، تزوج بأخرى وأيضا من أسرة ثرية عالية المقام ، قلنا كيف يتزوج هذا (الولد) باثنتين معا ، لم يحدث هذا فى عائلاتنا ، إنه عاق ، ولكنهم بعد فترة نسوا أو تناسوا . . فقد ألهتهم الثانية بالهدايا بينما ترفعت الأولى عن مخاطبتهم ، سعدوا وفرحوا ، ثم قالوا لقد جاء بالثالثة لا ندرى لها أصلا ولا فصلا ، هذه هى الطامة الكبرى ، وقامت قيامة الزوجة الثانية ولم تهدأ ، واشتعل الجو نارا من حولى ، لماذا فعلت هذا ؟ هل المطلوب أن أبرر ، أن أجلس أمام محكمة لكى أفسر وأفند ما ارتكبت من الأخطاء ؟ لماذا ؟ حتى هنا فى تلك الحجرة النائية فى مستشفى بارد مظلم لا أنيس لى إلا أنابيب

الحقن والدم والجلوكوز ، وتليفزيون يعرض على شاشته رقصات من أوبرا ألمانية حديثة ، تشنجات راقصة لا أفهمها ولا أعيها ، لماذا أفسر كل شيء ؟ هل من أجل تسلية القراء ؟ ولماذا أسعدهم وهم لم يقدموا لى شيئا ؟ الناشرون يأخذون الكتاب بثمن بخس لا يفى بثمن القهوة ، والقارئ يتسلى و يعرض عنك النقاد ، إذًا لماذا أشرح وأفسر ؟ نعم أنا تزوجت بثلاث نساء ، من يعترض ؟ المعترض عليه مقاضاتى . . سوف يقولون عنده دوافعه وأسبابه ، وإن لم يكن عندى شيء من ذلك ، هل أعتذر وأذهب إلى السجن ، هذا ما حدث ولا تبرير عندى .

عندى منزل جميل ، وخادمة تطهو لى الطعام وتعتنى بى ، ولى راتب جيد ، وأشق حياتى ناجحا ، قالوا إننا نعدك لكى تصبح وزيرا للشباب ، . . واندفعت ألهث وراء العمل لا أتوقف فى كل يوم (مناورة) جديدة من عجائز النادى ، ما رأيك لو تزوجت من هذه ، أسرتها تملك ووالدها رجل مهم ، وأحاول أن أتملص ولكننى أقع فى مؤامرة أخرى ، ومن فتاة إلى أخرى وعجائز النادى لا يتوقفن : لماذا لا تتزوج؟ ولماذا أتزوج الآن ، لم أذهب إلى الجندية بعد ، وأمامى الوقت على اتساع ، وأمامى مستقبلى ، ولكن ماذا تفعل فيما يسمونه النصيب ؟ كانت حولى عدة فتيات يحاولن جذب انتباهى لكننى أراوغ ، أحاول

الابتعاد عن النساء بكل السبل ، لا أتواجد منفردا مع فتاة أو سيدة مهما كانت الظروف ، رحلات الحب التى عاشها قلبى لم تكن إلا رحلات غير ناجحة ، حتى تلك الفتاة التى زاملتنى فى الجامعة لم أتزوجها ، ظلت علاقتى بها جيدة ، وظن الزملاء أننا متحابان وسوف نتزوج . . لم أقل لها كلمة حب ، ولم تقل لى شيئا من ذلك ، ولكنها ظلت تحافظ على مكان لى بجوارها فى المحاضرات ، لم يحاول أحد من زملائى أن يغامر بالجلوس بجوارها ، جميعهم على علم بما بيننا ، لم يكن سرا ، ولم يسمح وقتى الموزع بين العمل والدراسة بممارسة ألعاب الشباب أو هواياتهم ، ومنها التنزه مع الفتيات ، ولكن كنت جادا فى رغبتى بالزواج بها ، وكان أصدقائى يحترمون هذه الرغبة ، ولكن بعد امتحان الليسانس ذهب كل منا إلى حال سبيله ولم نعد نتقابل أو حتى كأن شيئا لم يكن بيننا . . ذهبت وذهب الحب كأنه لم يكن !

الله لا أحصى ثناء عليك ، حاولت أن أتذكر أسماء الله الحسنى ، عالم خالق خلاق عزيز متكبر متجبر رازق حليم شهيد مجيد رحمن رحيم وهو الأول وهو الآخر وهو الملك وهو المعين ، وهو الشافى وهو الله وهو البارى الخالق المصور الواحد الأحد الفرد الصمد ، الله لا أقدر على مزيد شكره وحميد صنعه هو البارئ هو المصور له الأسماء الحسنى ما نعلمه

وما نجهله يا الله يا شافى أخاف ، ألجأ إليك ، أسهد أتمتم باسمك ، يحيط بى الأطباء ، أمسك بيدى لا أريد أن أتألم ، أقول الله ، صدقت يا عمرو إن الله خير ولا يصنع إلا الخير لخلقه ، ولكنا بشر نتألم ونسعد ونشعر بالحر والبرد ، نشعر بالساخن والبارد وهذه عظمة الخالق وإلا ما خلقنا بشرا سويا ، نتلذذ دائما عندما نشرب كوب الماء البارد ، ونستمتع حينما نشرب كوب الشاى الساخن. الصيف لنا ملاه وملاعب ، ونقول إن الدنيا حر ، كيف عرفنا أنها . . حر إلا إذا كنا قد جربنا البرد نحن نشعر فنحن خلق ، ونحن خلق لأننا نشعر !

أقص عليكم من باب التسلية ، تسلية نفسى ، أولا بصفتى أنانى فأنا الجالس الآن ، أحملق فى التليفزيون البريطانى ، حيث يقدم عرضا لباليه حديث ، وجدت نفسى والطنين يملأ رأسى أبحث عن شيء يسلينى ، عن تذكار جميل فى حياتى مثلا ، أو أن أحصى أسماء الله الحسنى أو أن أستمع إلى القرآن الكريم ، أو أن أكتب قصة طريفة ، أنا إنسان ، المسرح الذى يعرض علينا البرنامج الثانى فى التليفزيون البريطانى يصبح مربعات بيضاء وسوداء ورجال ونساء يلعبن ، يبدو التصوير جميلا والحياة جميلة ، هذا التليفزيون الملعون يجعلك كمريض تشعر بأن هناك حياة أخرى غير تلك التى تحياها مع ممرضاتك ، ودكاترتك ، بين الأدوية والضوء الساطع مسافة طويلة ، و أنا الآن فى بداية

أعوامى العشرين ، شاب فى وظيفة لها كيان ، تقود وتكسب وتغامر وتعيش فى بحبوحة ، الكل هنا معجب بى ، جميل الطلعة كما يقولون ، أسكن مع أحد أقاربى الذى يشرف على طعامى الذى أجده بعد عودتى معدا إعدادا منزليا جميلا ، سفرياتى لا تنقطع ، ما أكسبه يزيد عن حاجتى ، وفرة فى المال ووفرة فى الملابس ووفرة فى السكن ووفرة فى الطعام ووفرة فى السلطة والمركز ، أعمل من التاسعة إلى التاسعة وأحيانا يمتد عملى إلى الثانية صباحا ، عملى يحلو لى ، كل ما يخطر بذهنى أوكل ما أحلم به من مشروعات أنفذها توا ، أقصد فى الحال ، أنا الذى أخطط وأنا الذى أبدأ المشروع وأنا الذى أنفذ ، عندى فى مركز الشباب ثمانية عشر ألفا من الأعضاء بين رجال ونساء وفتيات وأطفال ، فإذا أردنا أن نحسب عدد الفتيات فإنهن يقتربن من ثلاثة آلاف فتاة فى عمر الزهور ، ومثلهن فى عمر القرشانات والويل كل الويل من القرشانات [القرشانة هى تلك التى تجاوزت أنوثة عمرها الافتراضى] والسؤال المطروح على ألسنتهن ليلا ونهارا ، صباحا ومساء : لماذا لا تتزوج ؟ تأخذنى (قرشانة) لتسأل ما هى شروطك فى العروس . . أردد بلا وعى ولا أهمية ، أن أحبها ، تقول ماذا لو رشحت لك واحدة هى الأفضل ؟ ، أقول : حسنا لكن دعى هذا الأمر الآن ثم أنادى على أحد من الناس حتى لا تنفرد بى هذه (القرشانة) ويبدو أنها

تنشد شيئا من الأهمية لتكسب نوعا من الخصوصية أو على الأقل توحى للناس أن هناك ما يربطنى بها ، وقد تعلمت هذا الدرس بفطرتى ، فلا أقرب أحدهم منى حتى يبدو وكأنه مصدر سلطة ، فإذا حدثنى أحدهم أو حدثتنى فتاة - وخاصة الفتيات - فإننى أنصرف فورا أو أنادى على أحد يكون شاهدا على حديثى معها ، وكثيرا ما قطعت هذا الحديث باندفاعى السريع إلى مكان آخر فيه تجمع أنضم إليه ، وهكذا إلى حد ما نجحت ، أنطلق ساعيا إلى مكان آخر ، ولكن ما أكاد أفعل حتى تسألنى قرشانة أخرى نفس السؤال ، وتقترح نفس الاقتراح ، وبطبيعتى وهذه نقطة ضعفى فأنا خجول جدا ، خجلى هذا يبدو واضحا على وجهى ويستغله الآخرون حتى أن السعاة فى مكتبى يسرقون أقلامى ثم فى اليوم التالى يبيعونها لى ، وقد قلت مرة لأحدهم ، يا أخى ارحمنى ولا تسرقه وخذ ما شئت من مال ، لم يبتسم ولم يعتذر ، ظل يسرق القلم وظللت أشتريه منه خجلا من أن أقول له لا ، سرقة الأقلام تكررت فى قصص الزواج ، حتى جاءت أول قصة تحولت إلى حياة .

فى إحدى الرحلات وكنا ذاهبين إلى أسوان ، وكنت دوما فى رحلاتى التى أنظمها بمهارة شديدة كنت أستعد للرحلة قبلها بزمن طويل فتجرى الاتفاقيات وتجرى الترتيبات قبل تمام الرحلة ، وعندما تتم الرحلة ألهو معهم وكأننى غير مسئول

ولا يبدو الأمر لأى غريب أننى القائد فتتم المواعيد كما ينبغى دون تقديم أو تأخير ، وأكون أنا أول من يجلس إلى الطعام ويشكو منه وأكون أول من يجلس فى السيارة ويغنى ، وأول من يدخل المعابد ويشرح ، وأول من يقف فى حلقة السمر لكى يلقى النكات ، فالترتيبات قد تمت وكل من استأجرت أو اتفقت معه يعرف طبيعتى ، فأنا عندما أقول سنرحل فى السابعة تكون السابعة .

بهذا المنهج نجحت وأنا أقولها متباهيا ، ولا يضيرنى الآن بعد مضى أكثر من عشرين عاما على تلك الأحداث . أنا أقول : إن منهجى هذا الذى طبقته ، والذى درسته بالجامعة ، وكتبت عنه العديد من الدراسات والأبحاث وقدمته فى كتبى ، هو المنهج المثالى للقائد : لابد من أن نبذل الجهد الجهيد فى الإعداد الجيد ، مثل الحرب ، ونحن ذاهبون نحو (معبد الكرنك) وقد كنت أقيم لهذا المعبد احتفالا كبيرا ، نركب الحناطير ، ونغنى ، ونتسابق ، وأضع الجوائز لمن يغنى أفضل ، ولمن يسرع قبل الآخر ، وهكذا يتحول مهرجان الذهاب من الفندق إلى معابد الكرنك إلى لون من ألوان الترفيه سواء لنا نحن أم لأهل الأقصر ، و تصور معى أكثر من ثلاثمائة عضو من أعضاء الرحلة معا بملابسهم الجميلة الأنيقة الأوروبية ، وهم يسيرون جريا أو يتسابقون مع غيرهم ، أو يغنون فى الشارع

فى مظاهرة مرحة أنيقة نحو معبد الكرنك ، ثم إذا وصلنا إلى المدخل يكون السكوت قد عم والصخب قد انصرف بعد أن أخذت شحنة الانفعال التى من الممكن أن تعكر علينا صفو معرفتنا بهذه التحف التاريخية والمعابد الأثرية الخالدة التى يأتى إليها الناس من أطراف الدنيا ، وكنت دارسًا للتاريخ الفرعونى القديم بفنونه وطبه وبالتالى معابده وأسرار لغته ، فندخل المعبد بانتظام كامل لا يكاد يسمع لنا صوت ، وندلف من البوابة الرئيسية ثم نقف فى بهو الأعمدة لكى أقدم لهم شرحا وافيا لتلك المعابد مقدما تفسيرا سهلا ميسورا للغة الهيروغليفية سواء بكل مستوياتها وتطورها ومعنى الرسم المحفور ، يتحرك الجمع المكون من مجموعات صغيرة كل مجموعة لها مسئول هو عضو منهم أما مسئوليات المال والإنفاق وما إلى ذلك ، فيتحملها كبار السن وذوو الخبرة ، حتى لا أحمل نقودا ، بل هم الذين يحملون مصروفات الرحلة ويتولونها ، هم فى العادة يجيدون عد النقود ودراسة المستندات المالية ، ولا يكون لى إلا جمعها فى نهاية الرحلة ، لكى أقدمها إلى المحاسب العام الذى يبدى دهشته من سرعة التسوية ويدهش لأننى أعيد إليه مالاً بينما جرى العرف ألا تعيد للحكومة مالا وقد صرف لك ، بينما أسير مع طاقم الغناء بين مكان للفسحة وآخر للفرجة ، اقتربت (منى) وقالت : هل يمكن لى أن أسألك سؤالا ؟ قلت : نعم ، ونظرت

حولى فلم أجد أحدا ، وأسرعت الخطى حتى أكون بجوار مجموعة من المجموعات فقالت : فقط استمع لى فأنا أخجل من السؤال ولا أريد أن يسمعنى أحد . قلت : إذا كان السؤال يجعلك تخجلين فلا تسأليه ، لأننى لا أكتم أسرارا ، قالت هو سؤال بسيط ، قلت اسأليه إذن ، قالت ما عملك ؟ وضحكت ، السؤال غريب . . الجميع هنا يعرفون عملى ، عشرون ألفًا من الأعضاء يعرفون بالضبط من أنا ، وماذا أعمل ، ضحكت . . نظرت إلى الكتيب الذى فى يدها به مواعيد الرحلة بالتفصيل فى كل ثانية ماذا سنفعل ، عليه اسمى ومنصبى . . الإعلانات الضخمة عن مهرجانات كنت أنظمها مثل (عيد الأسرة) الذى سبقت فيه كل مؤسسات الدولة ، وكنت أحتفل فى السادس والعشرين من يناير كل عام بهذا العيد ، عيد الأسرة وليس عيد الأم أو الأب أو الطفل وكنت أقيم فى هذا اليوم مهرجانا ضخما كبيرا على مساحة المائة والخمسين فدانا بحيث يشمل كل ألوان الترفيه والتسلية ، وندوات ومحاضرات ومسابقات ومعارض الكتب والمسارح ، وكل ألوان الحياة بدءًا بكرة القدم ونهاية بمسابقات القراءة والاطلاع وما إلى ذلك حيث يشترك هؤلاء الثمانية عشر ألفا فى تلك الأنشطة فى يوم واحد ، يوم جميل يطلق عليه عيد الأسرة وبالتأكيد كنت أعد لهذا العيد قبلها بثلاثة أشهر كنت مؤمنا بأن المصرى يجب أن يحظى برعاية

أفضل يُخرج فيها كل مهاراته التى استطاع بها أن يبنى الهرم الأكبر ، أجدادكم صنعوا الهرم الأكبر وأجدادكم صانوا الإسلام وتعلموه وكانت مصر دائما ودوما من الموحدين بالله منذ فجر التاريخ وحتى الآن ، فالإيمان بالله هو الدافع الأساسى لكى نبذل الجهد فى لعبة أو مسابقة سواء أكانت رياضية أم ثقافية أم علمية ، أعتقد أن الآلاف من هؤلاء الشباب الذين تخرجوا فى هذه الجامعة – وأقول الجامعة لا مركز الشباب – لم تكن لهم فرصة الحصول على تلك المراكز إلا عندما استجابوا لندائى فى نهاية الخمسينيات عندما بدأت الإشراف على هذا المكان ، عندما أتحرك أسمع كلمة بابا وأفاجأ بأن الذى قالها سفير أو وزير أو عميد فى إحدى الكليات أو ممثل كبير يشار إليه ويعرفه الناس فأنتبه وأنظر إليه فيقول نسيتنى يا بابا ، ولكنى لا أنساك أبدا ، فتدمع عيناى وأنا أنظر إليه وأسعد لأننى استطعت أن أعطيه الفرصة ، فقط مجرد فرصة وهو يمرق كالبرق لأنه استفاد بهذه الفرصة ، دار هذا كله بذهنى عندما سألتنى ما هو عملك ؟ بعدها احمر وجهها خجلا ، وكادت تذوب فى ذلك الخجل ، وتباطأت خطواتها حتى ابتعدنا ، وبعد يومين رأيتها فى المركب الشراعى الذى يحملنا إلى مقابر الأغاخان منكمشة على نفسها قابعة داخل قاع المركب وكأنها لا تريد أن ترى الماء وكان المنظر خلابا فوق سطح النيل ، عريضًا ممتدًا إلى مساحات شاسعة ،

مراكب شراعية ترفرف مثل حمامات بيضاء على سطح النيل الجميل فى أسوان ، ثم صخور نائتة وكأنها تماثيل فرعونية تقف فى مباهاة وسط النيل وندور حولها حتى التل فى البر الغربى مرتفعة شامخة تعلوها قبة المقبرة للأغاخان ، نحن نطوف بآثار مصر ، ربما نكتشف أسرار الحياة عند الفراعنة . من المقابر والمعابد عرفت كيف كانوا يحاربون ؟ كيف كانوا يعاملون أسراهم . يكون موقع الملك أو القائد فى أول صف ، يحارب فى مقدمة جيشه ومن حوله القواد والأمراء ثم يأتى بعد ذلك الجند ، كما يكون القائد حريصا على أن يتأكد قبل الحرب من أن كل جندى يحمل من الزاد ومن الماء ما يكفيه ، هذا هو القائد أو الضابط المصرى خريج جامعة الكرنك أقدم جامعات العالم قاطبة فى التاريخ ، وكان يتخرج منها الأطباء والضباط والصيادلة وأيضا الحانوتية ، كان الحانوتى متخرجا من جامعة الكرنك ، كل ما فى الأمر أنه رسب فى الامتحان النهائى لكلية الطب جامعة الكرنك ، لهذا يتحول إلى حانوتى متخصص فى تحنيط الموتى على الطريقة المصرية القديمة ، ها هو المصرى يقف أمام مقبرة زوجته ليحصى على نفسه أخطاءه وذنوبه ونجاحاته ، متباهيا أحيانا ، متذللا أحيانا ، وكأن الزوجة لم تمت بعد ، هذا هو الزوج المصرى الذى لم يعرف الزنا طريقا إلى نفسه ، وبالتالى لم يعرف أمراض هذا العصر ، لقد كان من المعتقد أن

المرأة التى تخون زوجها تتحول فورا إلى تمساح فى النيل أو فى البحيرة المقدسة ، وكانت الفتيات يتزوجن فى الثانية عشرة من عمرهن وتبدأ حياة الفتاة شاقة لتشق لزوجها طريقا للنجاح ، وكان هو أيضا فى الثامنة عشر من عمره يبدأ حياة زوجية جميلة ، لقد قرأنا آلاف القصص من الحب والود والمودة ما بين الزوجين بل إن تعاليم فلاسفة وعلماء ذلك العصر القديم تشبه إلى حد ما أحاديث رسول الله (ﷺ) ، من احترام الزوجة وملكية أموالها والحرص عليها والتعامل بالمودة والود والتراحم والألفة .

أخذتها إلى فوق وحاولت أن أشجعها على التحاور ولفت نظرها إلى جمال ما حولها . . . انظرى هذا المركب سوف يلحق بنا ، ألا ترين أن شراعه . . ، ابتسمت وسعدت ونظرت إلى أعلى وسألتنى ما هذا ؟ قلت لها : مقبرة الأغاخان ، صاحب طائفة من الطوائف الشيعية تسمى طائفة الإسماعيلية وكان يوزن بالذهب كل عام وتضخمت ثروته وذهب إلى أوربا لكى يستمتع فمات ، وكانت زوجته من نجوم السينما الشهيرات ، فأثرت على نفسها أن تبنى له مقبرة فى أجمل بقاع العالم ، وبحثت فوجدت أن هذه المنطقة أجملها وأكثرها ملاءمة للصحة ، كنا قد اقتربنا من مسكن حرم الأغاخان . . تأتى فى الشتاء تقضى أربعة أشهر من كل عام بجوار زوجها ، وكأنها تذكرنا بالزوجة المصرية القديمة التى كانت تذهب إلى مقابر زوجها وتتحدث

معه فى شئون الأسرة وتأخذ رأيه على الرغم من أنه لا يسمعها ، ولكنها تتصور أنه يسمعها لأنه حى يرزق ، وسوف يحاسب يوم القيامة وقالت : هل كان القدماء يعرفون يوم القيامة؟ قلت : نعم ، ألم نتحدث عن ذلك فى المعابد حيث كانوا يرسمون لنا كيف يحاسب الإنسان يوم القيامة ، وكيف يصل إلى العدم عندما يكون مخطئا ، وكيف يصل إلى الجنة إذا كان قد فعل بدنياه الحسن ؟ ابتسمت وقد زال عنها توترها ، وصعدنا الجبل وأنا أضحك وأبتسم ولا أدرى سر سعادتى بعد أن تحدثت معها ، ومرت الأيام ، بعد عدة أشهر كنت أعد رحلات إلى سوريا وقد كلفت أن أكون المسئول عن برنامج التبادل الثقافى بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة ، و بدأنا بأن يذهب ألف شاب من مصر إلى سوريا ، يقيمون فيها فترة ما ، يشاهدون معالمها ويندمجون مع شعبها ويعودون بذكرى جميلة وطيبة ، وأيضا يحدث لون من ألوان الشراء والتبادل الاقتصادى فتموج الحركة الاقتصادية والسياحية بالإضافة إلى الحركة الإنسانية التبادلية ، وتوالت الرحلات وذات يوم وجدتها أمامى ، اقتربت من مكتبى فى خجل ، وسألتنى : هل اسمى فى رحلة سوريا ؟ قلت : نعم . قالت : ما هو المبلغ المطلوب تغييره إلى العملة السورية ؟ وكان من المفروض أن يغير كل عضو عشرين جنيها ، هل من المعقول أن يقضى شاب أكثر من عشرة أيام فى بلد ما وليس معه سوى عشرين جنيها ؟ وكان علىّ أن أجمع من كل منهم مبلغه ثم

أضعه فى البنك المركزى لكى يعطونى شيكا أحوله إلى عملة سورية فى دمشق ثم يجمع المبلغ عندى ، قالوا : إنك المسئول والصراف لهذا البرنامج ، تعجبت كيف ؟ أنا لا أجيد حمل النقود علاوة على أننى لا أجيد حصرها ، ودائما أكلف الآخرين فى رحلاتى لكى يفعلوا هذا بدلا عنى ، جمعت المبلغ ومضيت ، طول الليل أحصى فيه وأعده ، وأجعله رزما ، هكذا طوال الليل أمى كانت فى زيارتى ، تنظر إلى هذا المال وتقول : يا ولدى من أين لك هذا المال ؟! صارحنى ، ولم تنم ليلتها لأنها اعتقدت أننى أمتلكه دون علمها ، أقول لها ضاحكًا يا أمى لا تخافى ، هذه أموال الأعضاء ، تقول : وهل تعمل صرافا بعد كل هذا العلام ؟! هى لم تسمع عن سوريا هذه ، (مصر هى مصر ، على آخر الزمن تغيروا اسمها ، اسمها اللى نزل فى القرآن ، طب إيه رأيكو اسمها الجديد ده مش حيقعد) ، أخذنا نضحك من أمى التى لا تؤمن بالقومية العربية تقول لنا : (وحياتكم يا أولادى هى مصر ح تكون مصر وإلا ماذكرها القرآن صريحة واضحة بالاسم فى القرآن الكريم الذى لا يتغير أبدًا) ، ونامت وظللت قلقا حقا ، لا يجرؤ إنسان ما على تغيير اسم جاء فى القرآن ، كيف يقدم زعيم بلد على تغيير اسم بلده لمجرد السعى إلى الوحدة ؟ وكان الصباح قد لاح . . فكلفت أخى أن يشرف على إفطار أمى و لا يتركها تمضى حتى أرجع من البنك ، ذهبت مسرعا و لم أكن قد حملت بعد حقيبة للأوراق ،

كنت أذهب إلى الجامعة وأنا أحمل كتبى بيدى وأحيانا كنت أذهب إليها وقتما أشاء ، فوضعت النقود فى جريدة ، ركبت أتوبيسا ونزلت ومشيت من ميدان التحرير إلى أبعد من ميدان سليمان باشا وأنا أحمل الجريدة وبها نصف مليون من الجنيهات ، وصلت إلى المبنى المكتوب عليه إدارة النقد الأجنبى وصعدت سلمتين وما كدت أصعد الثالثة حتى انفجرت الجريدة التى أحملها وتبعثر كل هذا المال من حولى ، توقفت ، ولقد أخذتنى المفاجأة وتجمع الناس ، فطن ذهنى بسرعة شديدة إلى أننى يجب ألا أنحنى وأن أفتح جزءا من الجريدة التى لم تتمزق لكى يجمع الآخرون المال وأنا أنظر إليهم ، أناس لا أعرفهم يجمعون الأوراق النقدية ذات العشرة جنيهات حتى تأكدت أنه لا توجد أوراق مالية باقية على الأرض، ذهبت إلى البنك وأنا أحمل اللفافة وبها الأوراق غير منتظمة فصرخ الصراف وقال : اذهب وأحصها أنا لن آأخذها منك هكذا ، كان التوتر والغضب . . والحزن من ضياع المال قد تملكنى ، والسهر طول الليل فى عدها ، فصرخت فيه ، فجاء على صراخى مدير الإدارة وقف هو أيضا أمامى مذهولا وقد تبعثرت الأوراق واتسخت وبدا أننى فى حالة رعب كامل، أدخلنى إلى حجرته فى رفق ، وأتى بمجموعة من الصرافين الذين أخذوا يحولون هذه الكومة المهروسة إلى مبالغ مرصوصة ومعدودة بانتظام ، وتأكدوا أن المبلغ لم ينقص سوى أربعين جنيها فحمدت الله أن معى فى

جيبى الخاص تلك الأربعين من الجنيهات فدفعت بها إلى الصراف ، كنت أظن أن الخسائر ستكون أكبر لأن الذين جمعوا المال كانوا كثيرين ، فقلت ربما أنا الذى أخطأت فى العد فلم يأخذ أحد أمامى شيئا ، ولا أظن فى الشعب المصرى الكريم الذى ساعدنى دون كلمة شكر واحدة و تعاون على جمع المال فى مدة وجيزة أن يفعل أحدهم بى سوءا ، وعندما عدت إلى مكتبى اكتشفت أننى لا أملك شيئا وأمى تنتظر فى شقتى لكى أصحبها إلى السيدة عائشة والهرم وغير ذلك من معالم القاهرة هذه أول مرة تزورنى ، أول مرة تخرج من بيت أبى إلى القاهرة ، إنها فى مصر فكيف لا تتفرج على مصر ؟ ضربت أخماسا فى أسداس ، أنا فى حاجة إلى الجنيهات الأربعين ، ورفعت السماعة بتلقائية ولم أشعر إلا بأننى أطلبها ، فأجابنى صوتها نعم ، قلت : أنا فلان ، فشعرت بسعادة غامرة فى صوتها ، فقلت : هل تحضرين الآن إلى مكتبى ومعك أربعون جنيها ؟ قالت : نعم . وما كدت أضع السماعة حتى رأيتها واقفة أمامى صارمة الوجه ، وهى كذلك فى كثير من الأحيان تتعامل مع الحياة وكأنها جندى محارب يوشك على دخول معركة ما ، ليس لديها اللون الرمادى ، إنما الحياة عندها أبيض أو أسود ، لا مجاملة .

توقفت عن الكتابة ثلاثة أيام ، فجأة ارتفعت درجة حرارتى وجاء القيء ، والارتعاش والحمى ، وبدأ العلاج مكثفا ،

ومؤلما أيضا ، فالقىء يؤلم صدرى ويجعل الجرح فى صدرى لا يلتئم ، و التحليل لا يبشر بخير ، ولقد انزعج الدكتور يعقوب ومساعدوه وبدءوا يحاولون محاصرة المرض الجديد أو النكسة الجديدة التى جاءت ، وبدلا من أننى كنت أسير بضع خطوات إلى مدخل المستشفى فى خلال اليوم أو أذهب بمفردى إلى الحمام ، لم أعد أستطيع ذلك من كثرة الأسلاك التى تحيط بى وكأننى أصبحت حبيس تلك الأسلاك الممدودة والزجاجات الموضوعة ، والحقن المتتالية ولهذا لم أستطع الكتابة ، ولكننى اليوم تحاملت على نفسى ، فأنا لا أكتب هذه الرواية لكى تنشر أو لا تنشر ، إنما أكتبها لأشعر بأننى مازلت قادرا على الحياة ، ومازلت قادرا على مزاولة هوايتى المحببة وهى كتابة الروايات ، وإن كنت أظن أن هذه الرواية ليست كما تعودت الكتابة بعقل ورؤية ، فأنا أكتب ما يعن لعقلى وما تأتى به ذاكرتى ، فالمريض يكاد يذوب فى ذاته تماما فآلامه تذكره دوما بنفسه وأعتقد - إن لم تكن خانتنى ذاكرتى - بأننى تحدثت فى الصفحات الماضية عن الزوجة الأولى وليس عندى مبرر كامل أسوقه للناس دفاعا عن نفسى ، لم أهجر زوجتى الأولى وظللت طوال حياتى معها حريصًا كل الحرص على أن تشعر بالأمن و الأمان بجوارى وأيضا بالحب . .

ولكننى أعترف - رغم حرصى الشديد على إظهار الحب لها والمودة والاحترام والتى أحرص عليها - أننى لم أحقق معها نجاحا يسعدنى ويبعدنى عن التفكير فى الزواج من أخرى ، وظلت هذه القرحة فى قلبى تؤلمنى ، فقد كنت أتمنى أن ينجح زواجى ولا أتزوج بأخرى .. ولكن هكذا شاءت مشيئة الله سبحانه وتعالى !

يجب أن أكون مقاتلا ، أقاتل المرض ؟ منذ أن جئت إلى هنا وأنا أقاتل ، أتجلد ، أتخيل أشياء عجيبة أصرف ذهنى عن الألم أحاول أن أتذكر وأحاول أن أبتسم كل من يجىء إلى غرفتى أبتسم له ، وأتضاحك ، يدى ترتعش وأعصابى تخمد وقواى تخور ، ولكن رحمة الله واسعة ، وأشهد أنها لكذلك ، وأنه غفار الذنوب ، وأنه رحيم رحمن . ذلك هو الجو الذى أكتب فيه . لقد وجدنا ميكروبا فى البول ، يجب أن نزيد كمية المضاد ، وجدنا أنه يجب أن نضعك بهذا القفص ؛ اكتشفنا أن عظامك لم تلتئم .. أقول نعم .. يبتسمون ، ويقولون إنك من.. المرضى المثاليين . أبتسم بينى وبين نفسى .. والله لو تعلمون كم أنا خائف ، وكم أنا أكاد أن أجن من الخوف عندما تقترب الممرضة وفى يدها حقنة ، أغمض عينيى لكى لا أشعر بالألم ، أحس بغرزة الإبرة تنغرز فى لحمى أستنجد بأسماء الله ، ياعظيم يا شافى اللهم اشفنى شفاء لا سقم فيه بعده

وأصلى ، وأستغفر ، أبتهل ، حتى تمضى عملية تغيير الجرح وهى عملية مؤلمة لم يستطع من يراها أن يشاهدها إلى النهاية ولكنى أحاول أن أبتعد بذهنى عنها أتخيل الكعبة ، أصلى أتخيل مسجد الرسول ، أتخيل جلستى فى النادى ، يقولون : نحن آسفون . أقول : لا لم أشعر بشىء .. يبتسمون ، والله لو تعلمون كم أنا أرتعد من الآلام ! وكم أنا أرتعد من الخوف ! وأقسم بأننى أشد المرضى خوفا ، وأشدهم هلعا وفزعا ! ولكننى أتحمل وأتجلد وأبتسم فى وجه ابنتى التى بكت أمس بكاء مرا لأنها مرضت وضعفت ووهنت ، وظهر هذا جليا عليها . قلت لها : ابكى يا ابنتى لأنك لست فى حاجة إلى التظاهر أمامى ، ابكى ما شئت وما شاء لك البكاء ، طفلة دفعوا بها لكى ترافق رجلا مريضا لا تتحسن حالته ، هنا مرضى يقيمون أسبوعا أو أكثر ثم يمضون ، جاءوا لا يستطيعون المشى ، مشوا وذهبوا إلى الأسواق وزارونا ، وهم يحملون الأشياء التى اشتروها . أتوسل إليها أن تذهب لتشترى ، فلا ينقصها المال هذه المرة . ولكنها تمضى وتشترى لأخواتها ، لدىَّ خمسة أطفال ، اثنتان كبيرتان ، يظنان أننى سوف أكتفى برعاية الثلاثة الصغار ، ولا يدرون أنهم جميعا فى محبة واحدة ، معزة واحدة ، فالأب واحد والعطف واحد والحنان والرعاية واحدة ، تزوجت فى ليلة جميلة وفى فرح ساده جو الشباب ، وبالفعل

كان مهرجانا وليس فرحا ، وسعد الناس ، ولكن أبى لم يسعد ، فقد كان معارضا لزواجى ، فى البداية رفض ولا يملك شيئًا غير الغضب ، فهذه هى المرة الثانية التى يشعر فيها بأننى أخذله ، فى المرة الأولى عندما أصررت على استكمال تعليمى وكان يرغب فى أن أعود إلى بلدتنا وأعمل معه فى التجارة . . وظل هذا يراوده طوال حياته ، وأذكر أنه منذ سنوات قال ، وقد جمعنا لأمر مهم أنا لا أحمل هما لأولادى إلا همك أنت ، وكأن خيبتى ثقيلة ووضعى الراهن لا يسر عدوًا ولا حبيبًا ، فأنا مجرد موظف ، وفى ذلك اليوم بلغ غيظى مبلغه ، وقمت حتى لا أقول كلمة تؤلمه ، وأنا أحبه حبا شديدا أكثر مما يحب الابن أباه فهو صديقى و أخى وابنى و أمى أيضا (يكح بصعوبة) ، وقد زاملته وصادقته وكنت عونا له أعواما كثيرة ، ولم أبخل عليه بجهد وهو لم يبخل علىَّ بالعطاء ، وكنا صديقين وكانت الصداقة بيننا متينة ، أعرف أسراره كلها وأعرف أنه حلو الحديث ، ذو شعر أصفر لامع ووجه مستدير أبيض وقوة فى الصوت وجمال فى اللفظ ، ماذا يريد الرجل أكثر من هذا بالإضافة إلى وضع اجتماعى مميز ؟ أحببته وأعتقد بأننى ظلمت أمى لأننى لم أعطها حنانا كافيا ، كنت أعمل طوال اليوم ، بجانب أبى ، ونذهب ونروح ونسافر ، ونتبادل الحديث ونتصارح ، أكثر مما أفعل مع أمى التى لا أراها إلا نادرا ، وعندما أذهب للنوم . .

و أصبحت موظفا ، هو غير راض كل الرضا ؛ لأنه يعتقد أن الموظف فقير إلى الأبد أما التاجر ففى الغالب يكون ثريا ، وقد جرب التجارة كما جرب فى أول حياته الوظيفة التى سرعان ما هجرها وذهب إلى ميدان التجارة والتى أفسحت له مجالا فى جميع الاتجاهات حتى كاد يعمل فى تجارة كل شىء ، وصار إلى حد معقول من أثرياء البلدة ، واستطاع أن يحل محل أبيه عندما مرض ، وأن يشق لنفسه طريقا للحياة ولإخوته أيضا ، أما أنا فقد توظفت ، ثم بعد ذلك أتزوج من موظفة لا تجيد عمل فنجان من القهوة ، موظفة تصحو من النوم قبلى وتذهب إلى العمل ، و أصحو فلا أجد طعاما للإفطار ، أذهب إلى عملى الذى كان يبدأ فى العادة فى وقت غير مبكر ، و أظل فيه إلى وقت متأخر ، وتأتى هى إلى البيت عصرا لتذهب بعد ذلك إلى بيت أمها حتى يحين موعد عودتى ليلا ، وفى الليل أكون أنا منكبا على القراءة وتكون هى نائمة ، منذ البداية لم أجد العلاقة الحميمة التى تربط الرجل بزوجته والتى كان من الممكن أن تزيل فوارق السن ، وتجعلنى أكثر حبا لها ، وسوف أكون صادقا . .
هى لم تقل لى « لا » ولم تضن بنفسها علىَّ ، إنها تتصور العلاقة بين الرجل وزوجته شيئا بغيضا ، ولولا الواجب ومعرفتها بالإسلام وما يجب على المرأة المسلمة لرفضتنى ، هذا الشعور جعلنى أبتعد عنها رويدا رويدا ، كانت هى جافة أو هكذا

تبدو صارمة ، كلماتها حادة ، تتحدث فى نبرة عالية جعلت إخوتى وأسرتى لا يأتون إلينا ظنا منهم أنها لا تحبهم ، وخاصة أن أبى قبل زواجنا كان يرفض فى البداية ولكنه حضر العرس وزارنا بعد الزفاف .

اليوم ، اليوم الخميس ، كنت أعمل فى مكتبى وجاء (فخرى) وجلس أمامى وشرب القهوة وبدأ حديثه بأنه كان ينبغى أن أستريح فى البيت استعدادا لهذه الليلة الكبرى ، ليلة الدخلة . فقلت : وهل يستعد الرجل لهذه الليلة ؟ قال : كان يجب أن تستشيرنى أو تستشير من هم أكبر منك سنا ، فضحكت ، وحاولت أن أدارى لخمتى بين مجموعة الأوراق التى قدمها لى ، لاعتمادها ، ومضى متحدثا عن أحد أصدقائه الذى غرر بفتاة وكانت بكرا ، انسال منها الدم ، ارتبك صديقه ارتباكا شديدا ، أخذها ووضعها فى حوض الاستحمام فى بيته . . الدم امتزج بالماء وأصبح الماء أحمر قانيا ، فكيف يتصرف ؟ لا أذكر بقية القصة كيف تصرف صديقه . . إنما كل ما أذكره هذه الدماء التى تفجرت من الفتاة البكر نتيجة اعتداء صديقه عليها ، وكيف راحت فى غيبوبة والدماء تسيل واللون الأحمر يعلو فى حجرتى ، وصل الآن إلى المكتب ثم غمرنى حتى وصل إلى ذقنى ، لا أذكر كيف انتهت هذه القصة التى يرويها فخرى . وجاءت السادسة ، وعدت إلى بيتى وكان أخى فى انتظارى

وارتديت ملابسى وذهبت أنا وأخى سمير فقط إلى منزل العروس ، كنت تقريبا مهندما من الداخل والخارج ، أثر الدماء الحمراء فى نفسى يفوق كل تصور ، والجهد الذى بذلته لكى أدارى خجلى أخذ جسدى بضعف شديد ، فى منزل الأسرة ، اقترح أخوها أن نذهب إلى مسرح ، وهناك أخذ الناس يتضاحكون ، ولكننى كنت فاقد الوعى ، الدماء الحمراء تسيطر على المسرح كله والتعب والإجهاد العقلى والجسدى جعلانى أغوص فى الظلمة ، حان الوقت للانصراف إلى بيتنا الجديد الذى أعددناه ، لم أستطع الكلام ، كان الفجر قد لاح فما إن رفعت عنى ردائى ودخلت فى (بيچامتى) حتى دق الباب ، وجاء أبى و أمى وإخوتى جميعا ثم أخوالى وأعمامى وأخوالها وأعمامها . وامتلأ البيت حتى حان موعد صلاة الجمعة ، فقلت : يجب أن نذهب لصلاة الجمعة ، ومضت الحياة . . وارتديت أنا قناع اللامبالاة ، هم لا يرون الإنسان من الداخل ، يرون مظهره وكنت فى أيام عملى برعاية الشباب أظل طوال اليوم من التاسعة إلى التاسعة أعمل ، وأحيانا إلى الثانية صباحا ثم أعود إلى البيت ، وإذا عدت أكون متعبا إلى درجة كنت آخذ عشائى نصف نائم أو أذهب إلى مكتبى لكى أضع خطة جديدة لموسم جديد .

كنت أدرس فى الجامعة وأعد الأبحاث فى هذا الميدان لكى

أنفذ ما استفدته من دراساتى ، وساعدنى فى ذلك رحلاتى إلى موسكو وروما للتعليم ، ثم عدت أقدم حماسى كشاب فى هذا الميدان ، الذى ظللت أخدمه ما يقرب من خمسة أعوام كاملة حتى جاءت الصدمة وأخطرونى بأننى شبه خائن - أو كما جاء فى تقريرهم الفاسد الأول لشباب مصر - والحقيقة أننى لم أقتنع بفكرة المنظمة . . نحن شعب متدين لا يمكن إلغاء الدين من حياتنا ، أما الرئيس فقد كان متشبثا كل التشبث بتنفيذ منظمة الشباب وفقا للتنظيم المعمول به فى موسكو ، وجاء إلينا خبراء من ألمانيا الشرقية ومن الصين ومن روسيا ، وزارنا كل وزراء الشباب فى الكتلة الاشتراكية وبالطبع كنت أول من يقابلهم ، ولكن تهمتى أننى :

كنت أقيم المساجد وأصلى الجمعة فى الملاعب الكبيرة ، ولا تقام أنشطة خلال صلاة الجمعة ، كان تشبثى بدينى هو نقطة الخلاف بيننا ، أقيمت منظمة الشباب وبداخلها التنظيم الطليعى ، الذى كان سرا ، كنت فى منظمة الشباب من القادة البارزين فى بداية إنشائها ، وكنت فى هذا الموقع مؤهلا لكى ألعب دورا مهما فى ذلك التنظيم ، ولكننى لم أحبه وخاصة عندما بدأ تطبيقه ، وكنت مديرًا لأول معسكر يأتى إليه الشباب أفواجا كل خمسة عشر يوما لكى يلقنهم الرواد دروسا فى الاشتراكية وكيفية الحوار وآدابه وكيفية السيطرة على الجماهير

وتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من القادة دون تأخير ، وأيضا محاورة . . أى إنهم يعلمونهم كيف يتحاورون ، ثم كيف ينفذون أوامر السلطات العليا فى التنظيم « دون محاورة » ، وكان من عادة هؤلاء الرواد السخرية من الدين والمهن المميزة . لم أدخل إلى المنظمة باعتبارى فيلسوفا أو رائدا أو محركا بل باعتبارى من رواد التنظيمات الشبابية وأديرها كموظف تؤهلنى ثقة مجلس قيادة الثورة ، فقد كانوا يشعرون بأننى أقدم إليهم مشاريع حقيقية جديرة بالتنفيذ ، وسهل لى الأمر أن أكون قريبا منهم وبالتالى أدخل فى التنظيم الذى كان يعد تنظيما خاصا لزعيم الثورة . لقد كان الهدف اختيار عناصر تؤمن بعبد الناصر شخصيا ، وهذه العناصر تحميه فى كل الأوقات من تقلبات المزاج الجماهيرى . وبحكم عملى أدخل إلى قاعة التجمعات التى تدار فيها المحاورة فأجد الرائد أو المحاضر - وهو ليس إلا عاملا بسيطا - ولا يعيب الإنسان أن يكون فراشا أو عاملا ، ولكن مايعيبه هو عدم الإلمام وقلة الثقافة بالإضافة إلى الإحساس بأنه فوق الجميع لمجرد أنه داخل تنظيم ثورى فأنت لست فى قرية كذا بل أنت ابن الثورة ويجب أن تحفظ قانون الثورة وأن تكون اشتراكيا وأن تأكل الدجاج ، كان فى مصر أزمة دجاج ، ومن يذهب إلى معسكرات المنظمة يأكل دجاجا ، ثلاث وجبات دسمة للسادة المشتركين ، ودخول المرحلة الأولى فى منظمة

الشباب سهل للغاية ، مجرد أن يوصى بك عضو فى الاتحاد الاشتراكى ، سهل جدا . . أقمت المعسكر الأول بحلوان ثم أقمت معسكرات بعدة محافظات واتسعت العملية و أصبحت وكأنها مظاهرة ، أو ظاهرة كاسحة ، ووجد الشباب طريقهم إلى أكل الدجاج والتغذية الحسنة لمدة خمسة عشر يوما ، و المباهاة فى أعمالهم أو فى وظائفهم أو فى جامعاتهم بأنهم أعضاء منتسبون إلى منظمة الشباب ، أما أنا فقد بدأ الاضطراب النفسى يعتصرنى . . وحدثت المواجهة ، فلم يجدوا بدا من أن يسيئوا إلى سمعتى ويقدموا الأدلة على أننى خائن . . لهذا كنت مصرًا على أن يحققوا معى لأننى كنت أعرف السبب أما أقربائى وأصهارى فلم يكونوا على دراية كافية بالحقيقة . أنا أروى هذا الحديث لا للتاريخ السياسى ولكن لتأريخ علاقاتى الأسرية .

خلال هذا لم تكن علاقتى بزوجتى علاقة حميمة أليفة ، حتى عندما أنجبنا ابنتنا الأولى التى ظلت فى بيت جدتها حتى بلغت من العمر ستة أعوام ، كان ميلادها فى الوقت العصيب الذى مررت به ، وجاءت الثانية فى نفس الوقت من العام التالى وفى الظروف العصيبة نفسها ، وكأن علامة الإنجاب عندى أن أكون فى محنة ، كان اختبارًا من الله ، ومع هذا كان رزقى واسعا . .

ضنوا علىَّ بالمرتب ، ولكن الله كريم أسعفنى بمبالغ تزيد عن مرتبى كثيرا من جهات متباينة ومن أعمال نبهتنى إلى أننى لم

أخلق إلا لكى أكون كاتبا وروائيا ، وأن تلك المحنة جاءت لتوقظنى ، وتوقظ مشاعرى ، وتجعلنى أحن مرة أخرى إلى القراءة والكتابة التى كدت أنصرف عنها إلى ذلك العمل الشاق المضنى فى رعاية الشباب ، فلما أفقت من ذلك وجدت نفسى فى محنة مثل محنتى الأولى فأخذت فى كتابة روايتى الأولى ثم الثانية ، كنت أذهب إلى المحقق فى الصباح فأقضى معه وقتا ربما ساعة أو بعض ساعة يسألنى و أجيب إجابات أجرب فيها حظى فى اللغة والحوار والفن القصصى ، و لا أبتغى أن أدافع عن نفسى بقدر ما أنا أحاول أن أجرب ، فأنا أعرف أنهم يريدون إدانتى بأى شكل من الأشكال فلماذا التعب ، كنت أغض العين عن مقالب زملائى الذين يتصورون غبائى ، إنهم قد استغلوا هذا الغباء فى الحصول على عشاء أو غداء على نفقتى ، وظن بى بعض زملائى هذا الغباء فأخذوا يستغلون هذا . . هذا الغباء كان ستارا منحنى القدرة الأفضل للمعرفة ، وكنت إذا أردت أن أسخر من أحدهم أكشف أمامه ما يظنه لا أعرفه يدهش هو ، كيف عرفت ؟! وأنفجر ضاحكا ، و أقول الغبى يفهم أكثر لأنه يعرف أنه غبى ، ألم يعلموك هذا فى الجامعة ؟ أعود إلى قصتى ، آسف ، لا أدرى إذا كنت أتحدث إليكم عن أكسفورد المستشفى أم أكسفورد الجامعة أم غرفة العمليات (التياترو) أو عن الدكتور (بانديا) الذى يأتينى ساعتين أو عن (شرم برم) الطبيب الذى

أسمته ابنتى هذا الاسم واسمه فى الحقيقة يشبه هذا ولكنه بالهندية ، حاولت أن أحفظ اسمه رغم تكرار نطقه على ألسنة الممرضات إلا أننى لم أستطع ، كنت أتحدث عن ابنتى ؟ هل تذكرون أنتم ؟ أنا لا أذكر ولو أننى أسجل هذا الحديث كله فى ليلة واحدة أروى لكم ذكرياتى و أتحدث عن هذه القدم اللعينة التى تؤلمنى ، أود أن أهرسها بقدمى الأخرى . مجموعة من الإبر تحيط بيدى تجعلنى لا أستطيع الحركة ، و يدى الأخرى نصف مشلولة ، وأمامى كوب ماء و لابد من أن أشرب كثيرا ، كل من يأتى إلى غرفتى من أطباء و ممرضات ينظرون إلىَّ فى أسى و يقولون لى اشرب . لا أستطيع البلع فأنا أشرب مثل طفل رضيع أشرب : كوب الماء فى نصف ساعة .. أدوية كثيرة و حقن وقطن فى رأسى و نغز فى جسدى كلما وضعوا مجموعة إبر لكي تظل فى كتفى أو عنقى ، يضطرون إلى تغيير الموضع ، وكلما حاصروا داء ، ظهر داء جديد و الحمد لله و لا يحمد على مكروه سواه فهو ابتلاء منه وامتحان بإذنه تعالى . أعود إلى ابنتى إن شاء الله هذا أمل أرجو أن يحققه الله ، توسلا إليه ، حفظكم الله ، وظلت علاقتى بزوجتى زمنا طويلا - ولا أتذكر- عاما على وجه التحديد ولا تسألنى اليوم عن تحديد تواريخ أو ذكرى ، فقط أحاول أن أتشبث بمهنتى الأساسية وبهوايتى الدائمة وهى الكتابة ، وأتصور أن هذه الرواية التى سميتها تراچيديا الحزن

والمسرة ، هل أظل على هذا العنوان وأحتفظ به أم أغيره أو يغيره غيرى ، هل تصل إليكم هذه الرواية ؟ أم لا تصل ؟ لا أدرى . من يفرغ الأشرطة ، من يكتبها ثانية ؟ من يعطيها للناشر ؟ ولأننى لا أدرى أقول كل كلامى صراحة ، فجأة ظهرت فى حياتى ، كنت ذات مرة قبل زواجى الأول ، قد اقترحت على زميلة لى الزواج ، كان مجرد اقتراح ، أعتقد والله أعلم أنها هى ذى التى اقترحت ، ومضت الأيام ، وعندما سألتنى ، قلت لها فعلا أنا الذى اقترحت ولم أكن قد اقترحت قط ، هأنذا تذكرت ، فقد كانت غير جميلة إلى الدرجة التى تهفو إليها نفسى ، وقد كنت قديما أتخيل زوجتى بيضاء ملفوفة القوام ذات شعر أصفر وعيون خضراء ، وعلى الأقل تكون جميلة ولطيفة وأحبها وتعشقنى وتتركنى أزاول مهنة الأدب أو هواية الأدب التى تأخذ من الكاتب كل وقته ، فلما رفضت ، قلت إذًا جاءت منها ولم تأت منى فأكون أنا بريئًا من هذا الأمر ، سواء أكنت قد اقترحت أم هى التى اقترحت ، وظل هذا الأمر يؤلمها . ولم تفعل شيئا إيجابيًا فى حياتها على الإطلاق وحتى عند طلاقنا لم تفعل سوى أن أمرها إخوتها بأن تطلب الطلاق ، كانت قد ظهرت فى حياتى ثانية ، أعتقد قبيل الحرب وكنت وقتها أعمل لمجلة وتصادقنا ، كانت هى محبطة من تجربة خطوبة كادت تتم ولكن الرجل فر فى آخر وقت ، تصادقنا وتحولت الصداقة إلى حب جارف من

جانبها وشعرت به شعورا حقيقيا ، كان الفارق بينها وبين زوجتى فارقا كبيرا فى تلك المعاملة وإن كانت تكبرنى أيضا ، ولكن العاطفة المشبوبة التى كانت هى محرومة منها والتى كانت تطمح إليها ، دفعت بها إلى أن تظهر من الحب مالا يوصف ، وأن تعاملنى كملك متوج على قلبها . تماديت أنا فى صداقتى وتمادت هى فى حبى ، وذهبنا معا إلى أماكن كثيرة ، واندمجت فى الكتابة وصارت لى أعمال معروفة و صرت كاتبا مسرحيا و تليفزيونيًا و أيضا كاتب أبحاث فى الجامعة ولم أكن مستعدا لإعادة مغامرتى فى رعاية الشباب ، بين حشرجة تصدر عنى الآن وبين صوت واضح النبرات ، قلت لم تعد الأشياء كما كانت أو أن الأشياء تبقى كما هى ولكننا نحن الذين نتغير ونتبدل . . . دنيا !

* * *

الفصل الحادى عشر

المساء هنا يحمل سمة الحزن ، وتبرق الأكواب تحت ضوء المصباح الكهربائى وكأنها تبكى ، الطعام يرقد على المائدة فى أسى وكأنه قد ذبح ، السرير يبدو منكمشا على نفسه يتقلص إلى الداخل بالعرض ، ويستطيل مثل دكة محاكم عابدين ، يشبه الدكك الخشبية التى يضعونها فى قاعات المآتم ، التى تبدو كأنها أحجار قديمة صلدة ، متسخة ، المقعد الخلفى الوحيد يبدو مكتئبا، أتلهف إلى سماع صوت أقدام فى الطرقة الخارجية ، يبدأ الأزيز الصامت من الأشجار التى تحيط بالمستشفى وكأنه أزيز طائرات الحرب العالمية الثانية ، أسمعها طفلاً و أخاف من صفارة الإنذار . أنتظر فى ترقب وصول الممرضات ، و أتذكر أشياء وتمور فى ذهنى أشياء ، تأتى جملة عربية سليمة وصحيحة فى رأسى فأفكر فى كتابة الشعر ، أرقب المطربة وهى تغنى أغنية عاطفية ، هى ومن معها يتلوون مثل الأفاعى ، صور متراكمة ومتداخلة وكأن المخرج يقصد بها أشياء لا نفهمها ولابد لكى ينجح من أن يجعلنا لا نفهم ، فإذا ما فهمنا لا نستسيغ ما نراه ، أدور فى دوامة تسحقنى تدفعنى إلى أسفل أنقبض يأسًا على حافة الدوامة حتى تأخذنى إلى القاع أنتوى أن

أقف ، وأن أتخلص من الدوامة ، ولكن النية الحسنة لا تفعل بى شيئا ، فلا أستطيع حراكا أتصور نفسى وقد وقفت ، وذهبت إلى دورة المياه ولكن لا أفعل ، ثم أتصور أننى أغلقت الستائر حتى لا أرى سماء لندن وسحبها السوداء القائمة ، فلا أفعل ، ولكنى أفعل كل ذلك فى خيالى ، أسألها فى هدوء لماذا فعلت كل هذا بنفسك يا زوجتى ؟ لقد تحاببنا سنوات بل لقد تحاببنا عمرا ، وكنت تقولين لى كلمات لم يقلها لى شخص آخر وتذكرين يوم أن ذهبنا معا إلى الحج ، وذهبنا معا نرتدى ملابس الإحرام وركبنا الطائرة ، ولم أكن أعلم عن مناسك الحج شيئا ، كنت فرحا عندما كبر الجميع فى الطائرة وكبرنا ، وكبرت أنا بحماس شديد فأنا الآن حاج إلى بيت الله الحرام ، ثم بدأت الطائرة تهبط فى مطار جدة ، وصلنا بسلامة الله ، الحجاج فرحون ، المصريون فى المطارات غير كل الناس لا يزحفون إنما ينقضون ويتزاحمون ثم يستسلمون لدوامة العنف مع الآخرين يصيبهم الإحباط ، لم أستطع أنا حراكا بملابس الإحرام فأنا أرتديها لأول مرة ، دفعوا بى دفعا نحو الباب ، حاولت أن أحملك معى حتى لا تسقطى على أرض الطائرة أو من السلم وهم يدفعوننى إلى الخارج ولم أتوقع أن أجد هذه الحرارة الشديدة وكأننى دخلت فرنًا ، لفحنى الحر لفحا حتى كاد أنفى وفمى أن ينغلقا ، ترددت فى الهبوط دفعنى الرجل الذى كان خلفى ، نسيت التكبير ونسى

الناس التكبير ، كل واحد منا انفرد بنفسه وأخذ يلطم الآخر ويدفعه كى يصل إلى الأتوبيس الذى يوصلنا إلى محطة المطار ، وكأننا فى سباق ، كانت حرارة الشمس تزيد من غضبى فأنكمش داخل نفسى خائفا و ممسكا بك و أنت مذعورة . نركب العربة التى توصلنا إلى منطقة الجوازات ، أخذت منا تلك المنطقة ساعات ، والزحام يشتد . نتلهف للدخول ، دخول المنطقة المكيفة الهواء ، وأخيرا دخلنا أمسك بيدك فى شدة أخاف عليك من أن ينزعك منى أحد ، الخوف يشل حركتك ، أتذكرين ؟ كنا قد تأهبنا لتلك الرحلة بحمل حقائب ثقيلة ، وملابس للسهرات وملابس للطواف وأخرى للسجود والصلاة وهكذا تصورنا أننا ذاهبان إلى چنيف أو إلى لندن أو على الأقل إلى الإسكندرية ، فأخذنا كل مستلزمات تلك السفريات ولهذا كانت حمولتنا ثقيلة ، وكأن الله أراد أن يحملنا ذنوبنا التى فعلناها ، وكم من ذنوب ارتكبناها أنا وأنت يا أختاه ، ألم نسهر معا ، ونرقص ؟ ألم نفعل فعل الشباب ومرحه ونعيش فى دنيا الحب ؟ وترددين دوما أنت زوجى وأخى وأبى ، أنت سعادتى وأنت الدنيا وما فيها ، الآن يسألك المأذون هل تريدين الطلاق ؟ فتوقعين قبل أن أوافق أنا ، وقبل أن أوقع أنا ، وأنا كاتب المأذون ومساعده ، وأنا أيضا أساعدك فى الحج نهرع إلى الصديق الذى أكرمنا بأن ساعدنا فى إجراءات الحج ، نصل إليه تسأله ثم ماذا

بعد ؟ فيقول نحن نفترق الآن أنا ذاهب إلى (جدة) لكى أزور أسرتى وأنتما ستذهبان إلى مكة مباشرة ، وها هو العنوان الذى يجب أن نتقابل فيه بعد بضعة أيام (التكية المصرية شارع المسفلة) ، حسنا يا أخى يرحمك الله فأنت السبب فى أن نأتى إلى هنا ، انضم إلينا ثالث ، انتظرنا لأننى أرسلت إلى ابن عمى لكى يقابلنى ، جلسنا حتى يأتى .

بعد طول انتظار جاء شقيق رفيقنا الثالث ولكنه أيضا لا يعرف عن مراسم الحج شيئا ، بل لا يعرف أين تقع مكة ، كل ما يعرفه أن هناك سيارات أجرة إلى كل المناطق بالسعودية ، وقد جاء من منطقة نائية بالشمال تبعد آلاف الكيلومترات عن جدة ، وإذا برجل يقترب منا ويصافحنا ، ويقول : أنا على استعداد لتوصيلكم إلى محطة الركاب بجدة وهناك تأخذون عربة إلى مكة وهذا أفضل ، كنا فى حاجة إلى التحرك لأن الشمس قد بدأت تزيد من لهيبها ، وقد بلغ بى الجوع والعطش مبلغا كبيرا ، وخاصة أننى غير متعود على الحر الشديد وقد جئت لتوى من مدن أوروبية كان بها الجو لطيفا باردا ، ركبنا سيارته الصغيرة وانحشرنا نحن الأربعة ولا أدرى من ذلك الشخص الذى عرض علينا التوصيلة ، ولكن حسنا كله بثوابه وبدأ الرجل يحكى عن أمجاد السعودية وكيف أنها فعلت وفعلت وأن مصر لا تفعل شيئا سوى خراب الديار ، فتأففت ثم كتمت غيظى ، وأقول أنا مسافر

إلى الله ولا يجب الاشتباك مع أحد ، ولكن ضاقت نفسى ، وأحسست بأننى أفقد ثوابى للحج المبارك فقلت له أرجوك توقف هنا ، وكنا وسط صحراء شاسعة ولا أدرى أين أنا بالتأكيد ، قال الرجل ولماذا الغضب ؟ قلت : أنت تكره بلدى وأنا صامت وأحترم نفسى فى ملابس الإحرام ولا أحب أن أرد عليك ، ويكفى هذا والله الغنى عن تلك التوصيلة التى ربما سحبتنا إلى جهنم ، فضحك الرجل وهو يرفع غطاء رأسه ويقول أنا مصرى يا أخى مثلك ، أنا من مدينة الفيوم ، فقلت : بالله عليك لماذا تسب وطنك يا أخى ؟ ، لا داعى لهذا ، فأنت قد هربت وجئت إلى هنا وفتح الله عليك ، هذا من فضل ربك فلا يجب أن تكون قاسيا على أمثالنا لأننا اكتفينا بأن نعيش على زاد قليل ، فتبسم الرجل واعتذر وقال : نحن أصدقاء وإلا ما دعوتكم لركوب سيارتى ، وبالفعل وصلنا إلى محطة الركاب وهناك تركنا وقال لا أستطيع أن أفعل غير ذلك وجدنا سيارة أجرة ركبناها ، السيارة مثل فرن ساخن انحشرنا فيها ، أذان الظهر يقترب ونحن يوم جمعة وبدأ السائق زحفه فى (طريق جدة - مكة) ، كان يزحف زحف السلحفاة ، ونار الشمس تدق فوق رؤوسنا دقًا ، والعرق يتصبب منا حتى كدنا نفقد الماء فى أجسادنا . . اليوم بلغت كمية المياه التى سقطت منى ما يقرب من لتر ونصف أفقدها يوميا ، أفقد مثلها بالليل لا أهتم كثيرا بما يقوله الأطباء ، فكأن جسدى

لم يعد جسدى ، وكأن ما بى من آلام أو جرح ، الألم يمنعنى من الاسترسال ، السعال مثل ألم الذبح ، أحاول أن أكمل ، توقف الرجل عند أحد الكبارى المرورية وقال لابد من أن أصلى الظهر ، فقلنا يا رجل ماذا لو أسرعنا قليلاً حتى نصلى الجمعة فى الحرم ، لم يمهلنا الرجل ولم يسمع بقية السؤال مضى دون إجابة ، لم نفهم إلى أين هو ذاهب ؟ ومكثنا نحن الأربعة نتشاكى ، وكان يجب أن نجلس ونقول : لو . . لو . . إلى آخر هذه الأشياء التى يهمس بها الشيطان للنفس ، قالت لى ابنتى منذ ساعات بأن الوسوسة تطن فى رأسها هذه الأيام ، قلت هى وسوسة نفسك وليست وسوسة الشيطان لأن الشيطان لا يوجد فى لندن فقد رحل منذ زمن طويل ولم يعد له عمل هنا أصبح وجوده غير ذى بال ، البطالة هنا فى إنجلترا تقصف برقاب الشباب وخريجى الجامعة بوجه خاص ، وهذا ما سمعته من الممرضات عن أولادهن ومستقبلهن الغامض والباحث عن وظيفة ، فالممرضة هنا تعمل فى عدة مستشفيات و هذا يرهقها إرهاقا شديدا ولكى تنفق على نفسها تحافظ على أسرتها ، والكثيرات منهن غير متزوجات ، ولأن كلمة الحب لا تعنى عندهم غير الاتصال الجسدى ، حتى أننى أخطأت ذات مرة وقلت لممرضة حبيبتى نظرت نحوى فى استنكار وبانت الدهشة فى عيون الأخريات فقلت هل أخطأت فى شىء إنها مثل ابنتى ،

قلن : لا تقل هذا اللفظ مطلقا لأحد ، قلت : ولكننا نقوله فى بلدنا لمن نحبهم ، قالت (لولا) : إن هذا اللفظ معناه العلاقة الجسدية ، فقلت : وهل كلهن لهن أصدقاء ؟ قالت نعم ، هذا أمر مألوف ، أصدقاء كثيرون يأتون إلينا ونتفاهم معهم بحيث نقضى علاقتنا معهم على شكل زوج وزوجة وينفض هذا بعد يومى الإجازة أو العطلة ، ثم نبحث عن أصدقاء جدد فى الأسبوع التالى ، قلت لابنتى : الشيطان لم يعد مسئولا عن تلك المنطقة الأوربية ، وقد شاهدت هذا بالطبع فى سويسرا وفى ألمانيا وفى العديد من البلدان التى كنت أزورها وأمكث فيها بعض الوقت ، فى أوروبا يتعاملون مع الجنس على أنه مجرد دعوة لشرب الشاى ، تعال معى لنشرب الشاى ونتجاذب أطراف الحديث ، هيا نفعل ثم يمضى كل منا لشأنه ، فماذا يفعل الشيطان ؟ ، هل يأتى ليقول لهم ألا يفعلوا ؟! سألتنى (چيسى) - وهى سيدة لطيفة مثقفة ، تعشق الأوبرا وتقوم بعملها هنا خير قيام ويحترمونها احتراما كبيرا - وتسألنى فى شك : ألا يوجد عندكم مسألة زواج رجل برجل ؟ فقلت لها : لا ، نظرت إلىَّ فى رعب وكأننا بشر غير البشر ، قلت : أعلم أن هذا مباح فى إنجلترا وفى أقطار عديدة أن يتزوج رجل برجل ، قالت : ماذا يفعل رجل أحب رجلا آخر ، ويريد أن يتزوجه ؟ قلت : هذا محرم فى الدين ، قالت لى : يجب أن تسكت ، حتى لا تتوتر

أكثر من هذا فأنت مريض ، ماذا يفعل الشيطان فى بلد أباحت كل أنواع الشذوذ ؟ . إذن ماذا يفعل الشيطان ؟، السرقة مباحة ، الرشوة مباحة ، الشذوذ مباح ، الجنس على قارعة الطريق ، ماذا يفعل الشيطان ؟ ويقولون أوربا متحضرة وإنهم مسلمون بغير إسلام ، يا أخى هنا قوة العمل ، أنت تعمل فإذن أنت تأخذ أجرك وإذا لم تعمل لا تأخذ أجرك ، يجب أن تؤديه فى الصباح ، شكوت إلى (چيسى) قلت لها أشعر بإهمال الممرضات ، وربما لطول بقائى وربما لمعاملتى الحسنة فإذا لم يتوقف هذا الإهمال سوف أشتكى لمدير المستشفى ثم أطلب من سفارتى أن تنقلنى إلى مستشفى أخرى ، وقد سبق أن فعلت ، فإذا بالجو العام قد تغير وأسرعت كل واحدة نحوى تسألنى هل أنا المقصودة بتلك الكلمات ؟ ألم أفعل لك كذا ؟ وأنا تحت إشارتك ورهن أمرك ، واعتذرن اعتذارا شديدا حتى أنهن عندما يقتربن من حجرتى لا يبتسمن فإذا ابتسمت ابتسمن ، يجب أن تعمل ، وإلا تعرضت للفصل ولا توجد لك أية حماية ، فإذا كذبت مثلا يكون كذبك هذا مدعاة للفصل ، وإذا أهملت فأنت لن تجد طعاما تتعشى به ، الدين هنا هو المنفعة ، إنهم هنا فى إنجلترا يشكون من البطالة ، من الأمراض الاجتماعية والنفسية والاقتصادية ، وقد رأت ابنتى فى شوارع وسط المدينة ما أذهلها ، وأشياء لم تكن تتخيل أن لندن بمجدها الذى سمعت به طوال حياتها بهذه البذاءة وهذا الاتساخ والوجه القذر . . .

جاء السائق وركب السيارة فى تأفف بعد أن أدى صلاة الظهر ، كنا ثلاثة رجال بملابس الإحرام وأنت يا زوجتى بملابسك البيضاء وقد جلست والعرق يتصبب من وجهك وتتألمين ، وأخيرًا وصلت بنا السيارة إلى مدخل المدينة المباركة التى ازدانت بحب الله سبحانه وتعالى ، ندعو الله دعاء دخول مكة فإذا برجل يقول اهبطوا ، فقلنا بالله عليك يا رجل ، اذهب بنا إلى ذلك العنوان ، قال: لا ، قلنا سنزيدك أجرا ، هذا يوم الجمعة ، ولا تسمح الشرطة بالدخول ، ماذا نفعل ؟ قلنا لا بأس فليحمل كل منا ما يستطيع حمله من حقائب ، وبدأنا السير ، بعد عدة أمتار شعرت بالتعب ، وبدأنا نسأل : أين التكية المصرية ؟ الجميع يقولون لنا لا نعرف أين شارع المسفلة ؟ لا أعرف . وكنا بالفعل داخل شارع المسفلة بعد أن ظللنا ثلاث ساعات وأشعة الشمس فى شهر يوليو تلهب رؤوسنا العارية ، وأجسادنا مبتلة بالعرق سألنا رجلا يبيع الحقائب : يا أخى أين المبرة المصرية ؟ أو سكن الحجاج المصريين ؟ قال: لا أعرف ، جلست مهدودا بعد اللف والدوران طوال خمس ساعات وإذا بى أرفع رأسى وأجد لافتة صغيرة كتبت بحروف دقيقة إدارة الأوقاف واختفت المصرية خلف حقيبة من حقائب الرجل الذى سألناه وقال لا أعرف ، دلفنا إلى مدخل العمارة وصعدنا إلى الدور الثانى ووجدنا رجلا طيبا أسمر الوجه ، فلما سألناه قال : نعم ،

لكم أماكن هنا فأسرعنا إلى وضع حقائبنا حيث أشار واستلم كل منا سريرا لكى ننام ولكنى قلت : إذا كان الله قد هدانا إلى هذا ، ومكنا من الوصول إلى المكان فلماذا لا نؤدى العمرة ليغفر الله بها ذنوبنا ؟ وتصايحوا جميعا فى فرحة شديدة ، واغتسلنا ثم ذهبنا إلى الحرم ولكن كيف تتم العمرة ؟ كيف تكون مناسكها ؟ لقد عدت منذ أيام من أوروبا ولم يكن لدى فى ذلك الوقت أية معلومات عن الحج أو العمرة أو حتى مناسك دخول الحرم الشريف ، فلم أره قبل هذا اليوم ، ولم أقرأ كتابا عن الحج ولا عن مناسكه ولا عن العمرة ولا مناسكها فسألت زميلى ، فقال لا أعرف ونظر الجميع نحوى باعتبارى أستاذا ! ماذا نفعل ؟ ادخل بنا ونحن معك ودخلت الحرم فهللت وكبرت وفعلوا مثلى ، ولكن هنا اكتشفنا أننا لا ندخل مسجد السيدة زينب أو مسجد الحسين أو مصلى على قارعة الطريق بل ندخل إلى الحرم الشريف . . ويدخل معنا آلاف ، ندخل الدوامة ، بعد لحظة واحدة تشتتنا وسط تيار من البشر يتدافعون من كل الأمم ، هذا أسود ، وذلك أحمر ، هذا يرتدى ملابس عادية وهذا يرتدى ملابس الإحرام ، يتدافعون ويدفعون الناس أمامهم ووجدت نفسى وحيدا فخفت أن أفتقدك فى تلك الدوامة السائرة نحو الكعبة ، وتلهفت عليك فى رعب شديد ، واتجهت إلى الله بدعائى أن أجدك أمامى والناس يدفعوننى يمينا تاره ويسارا أخرى

حتى وجدتك وأمرتك أن تتشبثى بى مهما حدث فإننا لم نكن نعرف أن المسجد الحرام به كل هذا العدد الهائل من الناس والحر شديد والمراوح الكهربائية تطن بهواء ساخن ولم أجد عقلى ، ولم أجد كل ما كنت أتصوره من هدوء وسكينة وراحة ، كنت أشعر بذلك كله عندما أدخل مسجد بلدتنا أو أدخل مسجدا فى القاهرة ، تدخل وتجلس حيث تشاء ، فى المكان الذى تشاء ، أما هنا فأنت مجبر يا أخى ، تزحف مع الزاحفين وهذا الحر الشديد القاسى وكم تمنيت ساعتها أن أفهم ، أن يتصل وجدانى بعقلى وأن يتصل عقلى بجسدى ولكن الوجدان وحده ، العقل وحده ، والمسجد وحده ، يجب أن أدور مع الدائرين وأطوف مع الطائفين . فلما فرغنا من الطواف وجدت صديقا أرشدنى إلى ما يجب فعله وصلينا ركعتين ، ثم نظرت حولى فلم أجد صديقى هذا ، ماذا أفعل ، ووجدنا لافتة كتب عليها زمزم ، بئر زمزم فقلت متلهفا ندخل زمزمَ ونتوضأ فقد يسعفنا الوضوء بما نفعله ، وأخذت أغتسل وأتوضأ ، أبلل ملابس الإحرام ، أضع الماء على رأسى ، على جسدى ، وأردد الله أكبر ولا إله إلا الله ، ثم صعدنا ، قلت تعالى نرى ماذا نفعل بعد هذا ، فإذا بصديقى هذا يظهر فجأة كما ظهر أول مرة ، وقال : اتبعانى ، وتبعناه بصعوبة شديدة فالناس يتخبطون ، كل منهم يطوف مع نفسه ويطوف مع الآخرين ، وكأنهم سحب متراكمة متلاطمة ،

وصلنا إلى بداية السعى فأشار بيده إلى الكعبة فأشرنا كما فعل وكبر فكبرنا ثم أسرع مهرولا فأسرعنا ، قال : يجب أن نفعل هذا سبعة أشواط ، وفى الشوط الثالث فقدناه . شعرت بإرهاق شديد، ووجدتك أنت وقد اصفر وجهك وبدا الألم واضحا ، فى نهاية السعى السابع وجدنا صديقنا للمرة الثالثة ، فقلت له يا أخى لقد سعينا سبعة أشواط ، قال مبروك حان وقت التحلل يجب أن تحلق وتقص لزوجتك بضع شعيرات ومضى ، ومضينا نحن إلى مسكننا وتعشينا ، وقررنا النوم لأن التعب قد أخذ منا كل ما أخذ وبالفعل نمت أنا نوما عميقا ثم صحوت قد أمسك بى العطش أتوق إلى نقطة ماء واحدة وأخذت أبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يسقينى ، لا مفر من ذلك فنحن فى صيام ويجب أن أصوم حتى أذان المغرب وكيف أفطر ، وأنا أسكن بجوار الكعبة ، لا يفصلنى عنها سوى عدة أمتار ؟ حاولت أن أتحمل وأن أصبر مستعينا بذكر الله تعالى ، أتقلب على فراشى وأنظر نحوك فإذا بك تنامين نوما هادئا ابتهلت إلى الله سبحانه وتعالى أن يسقينى. .بمعرفته كيف أشرب وقد أذن الفجر لا أدرى ؟ كل ما أدريه أننى ابتهلت إلى الله وبعد ساعة سمعت الباب يدق وصوت رجل ينادى يا حاج كيف تنام مبكرا هكذا ؟! قم يا رجل وخذ منى هذه (الدندرمة) . دندرمة ؟ ماذا تقول ؟ قال صنعتها بنفسى ولم أرد أن آكلها وحدى ، وهذه لك أنت وزوجتك فقم

وكلها ، قلت ولكن الفجر قد أذن ، فضحك الرجل وقال : هذا أذان السحور وليس أذان الفجر سيتلوه أذان آخر معناه الإمساك ، ثم أذان ثالث معناه أن صلاة الفجر قد حانت وقد بقى على صلاة الفجر ثلاث ساعات فقلت والله لقد سقانى الله وأخذت منه الدندرمة ووضعتها على مائدة بجوار فراشى ، وأيقظت زوجتى وقلت تهللى فقد سقانا الله وذهبت إلى الثلاجة ووجدت بها إناء ماء يشبه الصفيحة فرفعته إلى فمى وأخذت أشرب حتى ارتويت ،وحمدت الله وذهبت إلى الحمام واغتسلت وتوضأت ، إذا كان الله قد سقانى فيجب أن نذهب إلى الكعبة و نصلى ، وذهبنا إلى المسجد فإذا به قد اكتظ عن آخره ، ووجدت أن الحر قد ازداد ، وأن ضوء النيون قد حول ليل الكعبة إلى نهار وهذه المراوح فى السقف وفى الحوائط تزيد من حرارة الجو ، حاولت أن أجلس فى ركن هادئ و لكن وجدت نفسى مع الآخرين حتى انحشرنا فى مكان أراده الله لأصلى وأقرأ القرآن ، ومضت الليلة الأولى هكذا فى الكعبة ، وبعد عدة أيام قالوا سنذهب إلى المدينة للصلاة بالمسجد النبوى الشريف وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، حملنا حقائبنا إلى السيارات المكيفة التى سارت فى طريق ضيق وملتو وبه الكثير من الحوادث ، كنا نراها من نافذة السيارة سيارات سقطت على جانبى الطريق ، و عشنا فى رعب دائم حتى هلل القوم وقالوا ها نحن قد وصلنا إلى

المدينة .. طلع الفجر علينا وبدأت أبكى شوقا إلى رسول الله (ﷺ) وكأننى سوف ألاقيه بالفعل وأرى وجهه الشريف ، وألثم يده الكريمة ، وأجلس بجواره ، وأتحدث إليه ، وغمرنى الشعور بالسعادة والراحة والألفة عندما رأيت بيوت المدينة و ذهبنا إلى المساكن التى أعدت لنا ، وأخى (محمود) - رحمه الله - يسوقنا إليها دون سابق معرفة فلم نجد إجهادا فى ذلك رغم سفرنا المرهق . وقالوا لنا الإقامة تكون النساء فى جانب والرجال فى جانب . كانت بنايات العنابر قد بناها (محمد على باشا) ، والنوافذ الواسعة والحوائط يصل عرضها عدة أمتار ، والسقف يبدو كالقباء ، والأسرّة المفرودة ، تبدو مثل تلك التى فى مستشفى العجوزة الخيرى ، بيضاء متسخة وقذرة والذباب يطوف من حولك فى بلادة وتزحف على الحوائط حشرات لا أدرى نوعها ولكنها من كل لون ، وصنف ، ونوع ، ومع ذلك لم أشعر بالخوف ، وأقمت أنا وزميلى فى عنبر واحد ، وضعنا حقائبنا ، وتوضأنا ، وقلت لزميلى هيا بنا نذهب إلى المسجد النبوى الشريف لنسلم على سيد الخلق محمد (عليه الصلاة والسلام) وكانت المسافة طويلة والحر شديد ونحن نضع الماء على ملابسنا وكلما جفت وقفنا بجوار حنفية المياه المخصصة للشرب وأخذنا نبلل ملابسنا وعند منتصف الطريق ، قالوا ها هو المسجد النبوى الشريف ، جريت وأنا أمسك زيل

جلبابى مثل أطفال قريتنا ، حتى دخلت المسجد وقد أخذنى الرهبة و الجلال ، وذهبت إلى حيث يذهب القوم فى خشوع يسلمون على سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة و السلام ، وشعرت لأول مرة منذ أن جئت إلى الحجاز بالهدوء والسكينة والراحة ، شعرت بأننى أخيرا وجدت نفسى ، وظللنا بجوار رسول الله (ﷺ) ما يقرب من ثلاثة أسابيع وأنا لا أريد الرحيل ، وقد أحببت المدينة وأحببت كل ما يحيط بها وكل ما بداخلها من مساكن وشوارع ومتاجر ، وفى (الروضة الشريفة) كنت لا أصدق نفسى وأنا أجلس فيها و أحس بالسكينة تملأ على فؤادى ، أصلى الصلوات الخمس وأزيد عليها ما أستطيع ، ولا أفارق الحرم إلا سويعات ، أنا متواجد نفسيا وعقليا وروحانيا وجسديا ووجدانيا فى تلك البقعة المباركة الشريفة . . وعدنا بعد رحلة قدسية طاهرة أسعدتنا كثيرا، وظلت فى ذاكرتى حتى الآن ، ولم تطمسها تلك الرحلات المتتالية التى تلتها للحج أو العمرة ، وكان بعضها بدعوة من ملك السعودية ، وبها من الترف ما بها ، أتذكرها ، عندما رحلت بمفردى لأداء العمرة فى رمضان أبحث عن مكان أبيت فيه ليلة واحدة وأنا أحمل حقيبتى الثقيلة ولا أجد مكانا للإقامة ، ونمت فى الحرم وعلى السجاد حتى لفحتنى الشمس ، وقمت مذعورا وباحثا عن حقيبتى التى وضعتها فى بهو أحد الفنادق حتى قالوا : إنهم يبحثون عنك

لأنهم قد وجدوا لك حجرة ، فى تلك الرحلة المتفردة فى ذاتها وجدت حجرة بها أربعة أسرة وبها مكيفان وبها جهازان للتليفزيون وبها ثلاجتان و أقمت فى تلك الغرفة الواسعة خمس ليال وستة أيام ، ووجدت أن من المناسب أن أذهب إلى المدينة للسلام على رسول الله وأقضى بقية رمضان بجوار حبيبى رسول الله (ﷺ) ، وهناك اهتديت إلى الفندق بسهولة هذه المرة . ومن الطريف أن فى فندق مكة أصر مديره على أن يأخذ فقط مائتين وخمسين من الريالات ، وهذا سعر فراش واحد فى ليلة واحدة فى العشر الأواخر من رمضان ، وفعل مثله صاحب الفندق فى المدينة المنورة على الرغم من أن إقامتى امتدت أسبوعا بأكمله ولا أعرف لهذا سببا ، حاولت أن أدفع أكثر ولكنهما فى الفندقين رفضا بإصرار ، شكرت الله وحمدته وعدت إلى جدة ، ومنها ركبت الطائرة إلى القاهرة ، وكانت هذه أسعد رحلاتى .

زوجتى : هل تتذكرين الرجل الضرير يسألك : تريدين الطلاق ؟ أبعد كل هذا تريدين الطلاق ؟ ربما يكون معك حق فى أشياء لم أذكرها لأننى أدافع عن نفسى ، ومهما قلت فإن هذا يعد دفاعا عن النفس ويعد تجنيًا عليك ، لماذا إذن تحكى ؟ ألم أقل لكم إننى سوف أحكى حكايات ليست ذكريات ولامذكرات ، وليس لها مستندات ، وليس فيها بطولة ولا ثورة ولا تمجيد

لزعيم ، إن الأيام تمر وأنا لا أستطيع الحراك ، لا أستطيع الفكاك ، فإذا سألنى الطبيب لماذا أنت شجاع ؟ أقول له هل يمكن لى غير ذلك؟هل فى إمكانى أن أقول لك ارفع يدك يا أخى وكف عن إيلامى بمشرطك ، وأقول للممرضة أرجوك لا تعطينى كل تلك الحقن، وأقول لمن يدس الحقنة فى ذراعى الممدود أمامه ويعلم أنه نصف مشلول ثم يدور بإبرته فى تجويف اليد باحثا عن عرق يضع فيه حقنته هل أستطيع أن أقول لك كف يدك عنى ؟! إنهم يقولون نحن آسفون ، وماذا يفعل الأسف ؟ أيمنع الألم ، إننى أترك جسدى وأحملق فى الفضاء متذكرا الكعبة محاولا أن أصلى واقفا بجوار بئر زمزم أشرب ، أرتوى ، أقف بجوار رسول الله (ﷺ) وأصلى ، أذكر الله كثيرا فذكرى لله سبحانه وتعالى يثبت القلب ، أسأله الشفاء ، فهو الشافى وحده ولا شفاء إلا بإرادته ، ماذا أملك يا طبيبى العزيز ، ماذا أفعل لكى أكون شجاعا ؟ يبتسم الرجل ويقول والله إنك لرجل شجاع ، ما تراه أنت شجاعة فى الحقيقة هو انقسام فى شخصيتى فأنا أترك جسدى لكى تشقه نصفين وأحملق فى ذاتى الداخلية وأمر بها فى أماكن أخرى أحبها وأفضلها الكعبة ، حول الكعبة ، وبجوار الحوائط أجلس لأشعر ببرودة البلاط وأصلى ، أهرب إلى هناك ، وأدعو مبتهلا إلى الله أن يلهمنى الصبر فى المحنة وهو الرءوف الرحيم ، جلس طبيبى (بانديا) معى أمس ساعة

كاملة وهو يتحدث معى كصديق ، لقد أحببته حبا شديدا . جاء فى وقت راحتى وكان يجلس معى سعيدا ويسألنى كيف أكتب مسرحياتى ؟ ويسألنى عن الأدب والأدباء فأسعدنى الحديث وأخرجنى من وحدتى ، جراح يهتم بالأدب ، هندى مقيم فى إنجلترا يهتم بالأدب ، ويتحدث عن غاندى و نهرو وجمال عبد الناصر ، وقضية الشرق الأوسط ، وتدور بى روح الذكريات ؛ ذكريات عن الفول المدمس وسندوتشات الفول المدمس ، وأشعر بالحنين إلى زوجتى الثالثة ، وأشعر بالحنين إلى أطفالى عمرو ومحمد ومى ، حدثتنى ابنتى عنهم كثيرا إنها تحادثهم بالتليفون كلما ضاقت بها الأمور هنا ، أحدثهم أنا أحيانا لكن صوتى لا يكاد يصل إليهم فأستمع إليهم فقط ، الليلة استمعت إلى ابنى عمرو وهو يقول : كيف حالك يا أبى ؟ وابنتى العزيزة مى وهى تقول : سلامتك يا بابا ، وفى إحدى المرات سمعت محمدا يقول بابا ، يا الله ! ، لقد عشت حياتك بالطول والعرض ، كم مرة سبحت فى بحر مرسى مطروح ، مياه زرقاء وشباب يحمل أحيانا أحجارا لأن قوته لا تريد أن تنفد ، يظل مستيقظا طوال اليوم والليلة ، ذهبت عندما تزوجت زوجتى الثالثة إلى مرسى مطروح ، أحب الأماكن فى مصر إلى قلبى ، تختلط المياه الزرقاء فى بحر مصر بماء الكوب البارد وهو يتدفق فى فمى ، أغوص ، أستعذب الماء ، أطفو ، أعبر أخدود المنتزه

بالإسكندرية ، وأعبر نيل (الجربى) ، وأشرب من ماء النيل عند خزان أسوان ، وأركب مركبًا صغيرة تعبر بى بحيرة ناصر حتى معبد فيلة ، ساعات من التجديف ، والماء يحوطنى من كل مكان ، وأغمض عينى ، وتوقظنى الممرضة ، مؤنبة لأنى لا أشرب ما يكفى من الماء ، ماذا أفعل كى أشرب ؟ أمد يدى إلى الكوب ، لا تكاد شفتاى تلمسانه حتى أسعل ، وأشعر بصدرى يتمزق ، أترك الكوب ، وأعيش فى ارتواء خيالى وأنا أمسك بالماء فى يدى !

أعلم يا أخى أننى لا أتوخى توالى الأحداث ، ولا أميل إليها فى أعمالى الروائية ، فما بالك وأنا أكتب هذا تحت تأثير عشرات الأدوية وإعصار الألم الممض ، ودوامة العقل المشتت الذى لا أعرف كيف أدربه على الترتيب ، شاغلى رغم الألم أسرتى ، قد ذكرت لك ، أولم أذكر فأنا لا أدرى أننى تزوجت من ثلاث نساء ، واتهمنى الناس واتهمت نفسى كذلك بأننى مزواج ، ولا يهمنى الاتهام ، إن هذا ما حدث ، عقلى لا يدور مثل آلة الحقن المعلقة فوق رأسى ، وأرى المحلول يهبط منها نقطة ، نقطة ، أتابعه أحيانا وأشرد أحيانا أخرى ، أتذكر يوم ذهبت إلى (الحوض المرصود) وهو مكان بحى السيدة زينب ، وكنت منبوذا بعد خلافى مع منظمة الشباب، فأرادوا إبعادى عن الشباب ، وهكذا ذهبت إلى إدارة الإسكان وكان مكانها

(الحوض المرصود) فى أول يوم وجدتهم جميعا فى المقهى المجاور ، وفى اليوم التالى حضرت حفل الإفطار الجماعى ، جاء الساعى ومعه قرطاس كبير من (الطعمية) ، و(الحلة) ملأى بالفول المدمس ، وعلى ذراعه الأخرى (رصة) عيش طازج ، وقام شوقى بتوضيب المائدة التى تكونت من مجموعة دفاتر وسجلات الإسكان ، وكذلك المقاعد ، ثم وضع (حلة الفول) وراح يخرج من جيوبه زجاجات وأنابيب بها (لوازم الفول) زيت وليمون ودقة وغيرها ، ثم أشار إلينا أن نبدأ بالفعل ، تسابق الجميع ولم تمض لحظات حتى تلاشت كل أكوام العيش والطعمية ، والطماطم ، وخلت (الحلة) من الفول ، لم أكن متعودا على هذه الطريقة فى الطعام ، ولم أعد إليها بعد ذلك ، فقد اكتشفت أنها لا تناسبنى ، وقد سبق أن تعرضت لمثلها فى أول أيامى الجامعية ، . . جاء أحد الأطباء للفحص ثم قام بعمل جراحة فى الصدر ليتمكنوا من وضع (الكانة) وهى تمثل المبسم يظل فى العرق حتى يمكن استخدامه للحقن ، شعرت بإرهاق شديد بعد الجراحة ، تذكرت حكاية الأرقام التى كتبتها فى إحدى رواياتى عن البطل الذى قرر حرمان العالم من الأرقام ، فجمعها ووضعها فى بئر وأغلق البئر وجلس فوقه حتى لا تتسرب الأرقام ، واستراح البطل عندما فعل هذا ، أسعدنى كثيرا تذكرى لهذه الحكاية ، قالت الممرضة : إن

(الحقنة) الواحدة تساوى ما يقرب من نصف ألف من الجنيهات ، أخذت أفتش فى عقلى عن الأرقام ، منذ يوليو الماضى وأنا راقد هنا ما بين جراحة وعلاج - يا ترى كم سأدفع ، ماذا لو قالوا إن المركز الطبى لن يدفع وطالبونى بتسديد الفاتورة كاملة ، سألت ابنتى عن النقود التى نملكها ، قالت : لا تتعب نفسك بهذا الأمر ، كنت قد حولت ثمن سيارتى وسحبت كل مدخراتى عندما أرسلونى إلى هنا ، ولكن تكاليف إقامة ابنتى ومصروفاتى الأخرى غير العلاج أخذت ما جمعناه . . دخلت فتاة تحمل فاتورة التليفون ، قامت ابنتى بسدادها ، لابد من أن أسدد شهريا المكالمات التليفونية وندفع ثمن المشروبات ، وأيضا نسدد مقدما إيجار السكن الخاص بابنتى ، أرقام أرقام . . ابتسم زميلى فاروق وقال : لا يهمك قلت بصوت واهن : أنا شخصيا لا أهتم لأننى لا أدرى ما إذا كنت سأخرج من هنا على قدمى أم لا ، ولكن لو أمكن سرقة الأرقام وحرمان العالم منها ، قال الدكتور يعقوب : (أنا لا يهمنى النقود ، أنا مهتم بك أنت) ، ابتسمت ؛ رأيت الصدق فى وجهه . قالوا إنه يقوم بإجراء جراحات بدون أجر لبعض الناس ، فعلها عندما تكلمت معه بخصوص أحد المصريين ، وكان ودودا والممرض (سليمان) يتحدث بعنف ، أسود الوجه غليظ القلب ، ولكنه ماهر . عندما رزقنى الله بولدى عمرو رغبت

فى اصطحابه هو وزوجتى إلى الكعبة أردت أن أطهره وأطهرها بماء زمزم وحلقت الطائرة بنا ، وكبر الرجال ملبين ، وضحك ولدى عمرو فى سعادة وهو يستمع إلى التكبير ، وكانت عمرة موفقة حيث قضينا النصف الأخير من شهر رمضان المبارك ، وأيضا قضينا العيد ، وليلة العيد قضيناها فى رحاب الكعبة ، كنت أبكى من الفرح ، وأنا أرى البخور وهو يتصاعد من كل الأركان ورائحته الذكية تملأ المكان الحبيب إلى القلب ، وطعمت من الحلوى وشربت من شراب السكر ، كبرت مع المكبرين ، وصليت ثم أخذت ولدى لأطوف به ومعى زوجتى التى أكرمنى الله بها !.. ولا أدرى لماذا ترتسم صورة زوجتى وأبنائى الثلاثة وهم وقوف أمام المستشفى وسيارة الإسعاف تحملنى إلى المجهول الذى أعيش فيه الآن ؟! أهدانى صديق مجموعة من شرائط القرآن وبعض الأحاديث ، أسعد كثيرا عندما أنصت إليها ياه . . لقد فاتنى الكثير ، ولا أدرى كيف أحكى ، نهرو ، وماو ، وتيتو ، وعبد الناصر كنت غارقا فى حبهم ، متشيعا لهم ، سافرت إلى موسكو لكى أتعلم ، وعدت لكى أشترك فى بناء منظمة الشباب ، كان إحساسى أيامها أننى أشارك فى صنع التاريخ ، وعندما اصطف الشباب بطول الشارع لكى يصفقوا لزعيم روسيا (خروشوف) كنت سعيدا ، ولكن صدمنى الإحساس بالإحباط عندما طلبوا منى أن أوزع على كل شاب

نصف جنيه ، وتضاءلت المنظمة وتضاءل رجالها وانزوى شبابها وشعرت بالقهر ، وكان السؤال : أى تاريخ أساهم فى صنعه ؟! كل شىء لا أهمية له (المشير) وهو يجلس فى اتحاد الكرة لكى يدخن وحوله الحواريون يتراقصون ، هل هذا هو الذى يقود ؟ إنه يطالبنا بأن نضع خطة لإعادة الرشاقة إلى ضباط جيشه المترهلين الطامعين ، ونحن لا نجد رطلا من العسل الأسود ولا (وركا) من دجاجة ، وأيامها أكلنا كل الطعام الفاسد الذى صدرته أوربا واختلطت فى عقلى الصور ، (سكر) الفتاة التى تاجرت بشقق المساكين وبالمخدرات والذمم كيف واجهتها ودفعت بها إلى السجن ، لماذا فعلت هذا ؟ لماذا تعرضت للضرب وكدت أفقد حياتى فى دمشق ؟ وكيف رأيت معسكرى والنابلم الإسرائيلى يحرقه ؟ ماذا لو تأخرت فى إعطاء الأوامر بإخلائه ؟ لماذا يكذب المحافظ ؟ ويدَّعى الفيلسوف الاشتراكى العفة والفضيلة الاشتراكية وهو يتهادى فى ملابسه الحريرية ، وخواتم ذهبية تلمع فى أصابع يديه وسيارته وسائقه وبيته ، ثم وهو يدعونى لاحتساء الشاى معه فى شرفة القصر الخاص به ، ثم أذهب إلى بلدتى لأجد أن القرن الحادى عشر الميلادى لا يزال قابعا ، والنساء متربات متسخات ، والرجال يتحدثون عن (العيش القمح) الذى يحضرونه من البندر ، وأرسلت أمى إلى كل الجيران من أجل الحصول على طبق الجبن القريش الذى

أفضله ، ودفعت ثمنا مرتفعا حتى حصلت عليه و لم أذقه وعدت مكلوما إلى مدينتى ، لا أدرى : هل أصدق الزعيم أم أصدق (عم أحمد) البقال الذى يرفع لافتة (لا يوجد) عندما نسأله عن شيء ؟! وفصلت من عملى وجلست فى البيت ، لا أدرى كم مرة أجد نفسى مفصولا ، فى كل مرة أجلس وأفكر ، وكلما فكرت عرفت أننا لم نفعل شيئا يستحق الإشادة منذ أن ثرنا على عسكر الفرنسيين بعدها لم نفعل شيئا ، أصبحنا مثل (تلامذة المدرسة الأميرى) .

نأكل ما يقدمونه لنا وندرس ما يتكرمون به علينا ، نحن لا شيء ، أنا لا شيء ، كنت أظن نفسى أخطط لكيان شبابى مصرى خالص ، ولكن اكتشفت أننى مجرد (حاجة وخلاص) ، وعندما ذهبت إلى الإسكان ، ظننت أننى جئت لكى أضع للعدالة ميزانها المفقود ، ولكن أيضا اكتشفت أننى مجرد (موظف) ، عندما كتبت ، ظننت أننى أعبر عن ذاتى وعن الآخرين ، ولكنهم جاءوا إلى المنزل لكى يسألونى أن أفسر لهم كسوف الشمس ، وهبوط ماء النيل ، ماذا أفعل ؟ عندما شكوت الألم قدموا لى حبوب قاتل الألم ، وحبوبًا منومة ، ولم أعد أعرف هل أنا نائم ، أم فى يقظة ، هل أنا حى أم ميت ؟! لا أحد يريد أن يقول الحقيقة ، الحقيقة غابت ، هل الپروفيسير يعقوب على حق أم الطبيب الآخر الذى فعل بى ما فعل قال لى (باندیا) : إن الأمور تسير إلى الأحسن ،

وسألنى أن أترجم له ما أقول فى التسجيل ، ولكنى سألته عن الهند ، قال وصلت من أجل العلم ولكننى فقدت أولادى هنا فى حادث ، لم أستطع مواصلة الحديث ، وقلت :

– لم أكن أقصد إيلامك .

قال :

– كل شيء مكتوب . . ولا مهرب مما هو مكتوب لك .

من يوليو وحتى الآن ، ولا ندرى لأمرنا نهاية ، ربما يرى النقاد فى تلك الرواية أنها مجرد تسلية مريض ، كتبها أيضا عقل مريض وربما يرى فيها البعض الآخر أن بها المساس بأسرار خاصة جدا لا يجب البوح بها ، ورأيى أنها فرصة للترفيه عن النفس للقضاء على الوقت الممل والطويل عندما أجد نفسى بمفردى وسط حجرة كئيبة وأمل محدود وابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يعطينا الصبر ، والأمل وأن يلهمنا الدعاء المستجاب ، لا نملك من أمر أنفسنا إلا هذا . أحيانا تكون حالتى المزاجية عالية ومسكنات الألم تعمل بجدية شديدة ، أضحك وأنا أستمع لزوارى وفى أحيان أخرى لا يكون عندى من المزاج ما يسمح لى بأن أتفوه بحرف ، تأملت الجهاز الذى يرقد عن يمينى ، إنه طلمبة ضخ عملها أن تضخ السوائل فى جسدى ، ليس لها صوت بها أكياس المحاليل ، نقطة نقطة وكل ساعة تدق جرسا فيأتى الممرض أو الممرضة لكى يدفع السائل

ويدير الطلمبة ساعة أخرى ، يدى اليمنى نصف مشلولة ، ويدى اليسرى مربوطة برباط ضاغط لكى تتمكن الطلمبة من ضخ السوائل . أخبرنى الممرض اليوم أن مادة الحقن تأتى من أمريكا وهى غالية الثمن ويجب حقنها كل ساعة ، لم أعد أذكر الأرقام ، تتلمذت على يد : زكى نجيب محمود ؛ وتوفيق الطويل ، وغيرهم من أساتذة وفلاسفة العصر العظماء ، ودرست : كونت ، وبيرجسون ، وأفلاطون ، وأرسطو ، ودور كايم ، وغيرهم من علماء الفلسفة على مر التاريخ الرومانى والبيزنطى ، والفلسفة الأفلاطونية والبرجماتية والواقعية الاشتراكية والوسطية وكل ما هو فلسفة حتى أن عقلى أصبح الآن يقول : أنا أفكر فأنا موجود . ثم أعين فى وظيفة كاتب أرشيف يجلس طول يومه لكى يدون الأرقام لكى يعود إليها وقتما شاءوا هذه هى وظيفتى بعد أن درست ، كم قدم للدجاجة وكم يوم تستغرقه الرياح الشمالية الشرقية لكى تأتى إلى مصر بالمحاصيل التى تنبت فى أرتيريا وعاصمة كوالا لمبور ، ثم علوم الطبيعة [يد كب فى ألف س] ، وعالم الجبر [أ س] . يصنع بئرا عميقة ويجمع فيها كل أرقام الدنيا ثم يخبئها فى ذلك البئر ، ويسده ويجلس هو على سدادته حتى لا يستطيع أحد من الناس الحصول على رقم ، كتبت هذا من قبل ولا أدرى لماذا تذكرته ؟ لأن تكاليف علاجى عندما حاولت حسابها وصلت إلى

أرقام فلكية ، وأخبركم الآن بأننى خفت من تلك الأرقام وخشيت أنهم لم يسمحوا لى بالخروج إلا بعد أن أدفع تكاليف الفاتورة ، وماذا أفعل ساعتها ؟ ثم ضحكت وقلت سبحان الله وهل أنا متأكد تماما من أننى سوف أخرج وسوف يحاسبوننى يا رجل ؟ إن أكثر الناس هنا تفاؤلا يقولون لك لا نستطيع أن نحدد الفترة الباقية لك تحت العلاج ، كل ما نملكه أن ندعو لك بالشفاء ، حتى ابنتى تقول هذا ، أى أنهم جميعا مع الاعتبار بأن منهم متفائلين كثيرين ، يضحكون فى وجهى ربما يبكون بعد ذلك ، كما بكت (السيسترسوو) بكت بشدة عندما وقفت لتحضر عملية التغيير على الجرح الرئيسى فى صدرى وأمسكت بيدى وشاهدت دموعها تتساقط وتتألم أكثر منى وليلتها تألمت بشدة ، تألمت لأنها تألمت ، وتمنيت أن أقول لها كلمة مضحكة حاولت جاهدا البحث فى عقلى عن نكتة مصرية أترجمها لها ، أحيانا أترجم لهم بعض الأشياء عن قاهرتى وأكلاتها أوعن أسرتى ، يحلو لى الحديث عن أولادى وعن تلك الذكريات المسائية التى تجمعنى . وقد قصصت على ابنتى كيف ذهبت أنا وابنى عمرو وزوجتى ماجدة إلى الحجاز ، وكيف حصلت على جواز السفر قبيل رحيل الطائرة وتأهبها للإقلاع إلى السعودية بسويعات ، واستطعنا بصعوبة اللحاق بالطائرة ، فإنك مهما فعلت فلست مستطيعا أن تبلغ مناك أو مرادك ، فى تلك الرحلة

بالتحديد كنت قد حددتها منذ ثلاثة أشهر ، أى أننى أخذت وقتا طويلا فى الإعداد ودفعت قيمة الاشتراكات وسلمتهم الجوازات قبيل الموعد بشهرين وجهزت ملابسى ، فقد نذرت أن أذهب أنا وزوجتى وولدى بعد أن يولد إذا كان ذكرا إلى الحجاز ، وأطهره هناك وأغسله بماء زمزم ثم نقضى معا عمرة فى أواخر شهر رمضان المبارك فى تلك السنة كنت متلفها على العمرة ، لذلك بدأت الإعداد للرحلة قبلها بوقت طويل فاشتريت ملابس لزوجتى التى ارتبكت واضطربت عندما أخبرتها بأنى نذرت لله وعاهدته بأن آخذها لتتطهر بماء زمزم ، وأن تؤدى العمرة كما يجب أن تكون ، وأن تقضى أيام رمضان بجوار الكعبة صائمة قائمة مصلية داعية قارئة القرآن تبتهل إلى الله أن يجعلها طاهرة شريفة إلى أبد الآبدين ، وأن يبارك لها ولدها . نذرت لله أن آخذ ولدى الذى رزقت به إلى الكعبة المشرفة لأطوف وابتهل إلى الله أن يجعله عبدا مؤمنا يؤمن بالله الواحد القهار وأن يكون من المتقين .

ويعود السؤال :

لماذا تزوجت من ثلاث ؟ وقبل أن أمضى فى رحلة العمرة هذه ، لأن حديثها يطول ، أرى الكعبة ، لا أمل الترحال إليها ويطيب لى المقام وأتصور أن أيامى الوحيدة التى أعيشها فى الدنيا هى تلك الأيام التى أقضيها بجوار الكعبة سواء فى حج أم

فى عمرة أم فى زيارة ، المهم أن أكون بجوار الكعبة ، لهذا سوف أقص عليكم قصة زواجى من الثالثة ، لأننى كما يقولون رجل مزواج يحب أن يطلق ويتزوج ، وبما أننى قد قصصت عليكم قصة طلاقى وبرهنت بكل براعة على أننى حمل وديع لا يمكن أن تصدر عنه تلك الفعلة الشنعاء وهى الطلاق، وأعتقد أن القارئ به من الذكاء ما يجعله يفهم ما إذا كنت مخطئا أم لا ، فإذا لم يكن مستعدا لتصديقى فليسألها والأمر مباح طالما أننى نشرت ذلك حتى لو قلت إنها أوهام أو ذكريات مؤلف على وشك الرحيل ، المهم أننى ذكرت ما ذكرت لأننى أردت ذلك وليقل القوالون ما يشاءون ، لا يهمنى تعليق يصدر من ناقد ، كتبت ما يقرب من اثنتى عشرة رواية حتى الآن وأكثر من ألف قصة قصيرة ، وأكثر من عشرين مسرحية ، ولم يهتم بى النقاد . أحدهم سألنى أن أعطيه رواية من رواياتى وأعطيته فإذا به بعد شهر ونحن نتقابل تقريبا كل أسبوعين فى اللجنة وأحيانا كل أسبوع فى لجان متفرقة من المجلس فأجده يقول لى أنا آسف لأننى قرأت الرواية ولم أفهم . أقول مبتسما ، ولا يهمك يا دكتور وقلت فى نفسى : (إشمعنى النهارده ها تهتم بى يا دكتور أنت لا تهتم إلا بنفسك وشلتك ولله الأمر من قبل ومن بعد) . وأعطيتها لزميل يجلس بجوارى فى الأهرام ويقف عندما أحضر ويقف عندما أنصرف ويقابلنى هاشا باشا ، أعطيته الرواية

وقلت له أتحداك أن تكتب عنها حرفا واحدا ولم يكتب كثيرون ، هؤلاء الذين يكتبون لأن علاقاتهم تقتضى ذلك ، لا داعى للخوض فى تلك البحيرة المرة أو البقعة السوداء فى حياتنا الثقافية لأنها تثير الغضب وترهق الصحيح والسليم فما بالك بالمريض . . ياه . . رحلة طويلة قطعتها منذ أوائل الستينيات وحتى الآن ما يقرب من ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاما أكتب ، ولا أجد صدى لما أكتبه عند السادة الأساتذة النقاد ، ولكن الله أرحم بى منهم فقد أسعدنى مثلا : أن تقرر كتبى على طلاب الكليات ، وأن تدرس فى مادة النقد التطبيقى ، وأن أحضر مهرجانات تكريم ، وأقامت لى إحدى الجامعات حفل تكريم جميل ، وقالوا عنى كلمات ما أتصور أنها تقال فى مثلى ، المهم أن الله أعطانى الكثير ، الله هو المعطى ويهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور أو يزاوج بينهما ويرزق من يشاء ويحرم من يشاء ، بيده الأمر لا بيد ناقد ولا دارس ولا غيره ، الآن بدأت أنسى الأسماء وأصارحكم القول لا صداقة فى الأدب فى مصر ولا العالم العربى كله ، أنت تكتب ولا أحد يقول لك ماذا كتبت ؟ أو فى اليوم التالى لا تجد أنك كتبت شيئا رغم أنهم قرؤوا وفهموا واطلعوا ولكن يضنون عليك بكلمة واحدة . هذا هو الحال ، كتبت عن صغار الكتاب وشبابهم ، كتبت عن مظاليم الأدب ، كنت أرى أدباء بلغت بهم الشيخوخة ولم يكتب

عنهم أحد ، فإذا بهم ينظرون نحوى وعلى وجوههم الدهشة ، وأيضا السعادة التى لا يمكن وصفها لأنهم فجأة وجدوا رجلا لا يعرفونه يهتم بهم ويكتب عنهم بصدق . ولاحظت بعد مرضى أنهم كانوا أول من وقفوا بجوارى عندما تعرضت للمحن الصحية التى أعانى منها الآن ، وهذا فضل من الله ، ماذا كنت أقول ؟ والطلاق فى حياتى حدث مرة واحدة ، أما الزواج فقد حدث ثلاث مرات . فى بلدنا يرى بعضهم أننى بعد طلاق زوجتى الثانية سوف أدور الحلقة الفارغة ، التى كنت أحياها خلال الزواج الأول ، وإننى أستشعر الوحدة وخاصة أن بناتى كبرن وبدأن يتلهين بحديث الزواج ، يؤديان الفرض والسنة على أحسن ما يكون و يقرآن القرآن بالليل ، وشعرت براحة كبيرة جعلتنى أتقبل ما أفسده الزواج الأول ، إن زوجتى الأولى اخترتها ، لهذا كنت أتحمل فوق طاقتى و عاهدت نفسى أن أكون لها طول حياتى ، ولكن بمرور الأعوام وجدت أننى لم أكن على استعداد للنوم وحدى طوال عمرى و انتهى الأمر بزواجى للمرة الثانية كى تكون لدى من تقف بجوارى وتعاوننى على الحياة ، وقد كانت زوجتى الثانية نعم الصديق والأخ ، والأم ، التى وقفت بجوارى بالفعل ، ولولا تلك المحنة الشنعاء وتلك الزوبعة العاصفة التى عصفت بزواجى الثانى لما كنت أتصور نفسى زوجا للثالثة التى قابلتها ذات يوم وهى قادمة راغبة فى

العمل ، كنت فى أشد الحاجة إلى مدير أعمال أو كما يقولون إلى ما يعاوننى فى أشياء روتينية تأخذ من وقتى الكثير ، مثل تصوير حلقة من الحلقات وتسليمها للمختص بأستوديو أو شركة أو السؤال عن مستحقاتى أو الذهاب إلى مصلحة الضرائب أو تحصيل مبلغ ، هذه الأشياء كانت تأخذ منى وقتا أبحث عن شاب يفعل لى هذا وأجرب كل شهر وكل عام واحد من هؤلاء فلا يستمر معى إلا يوم أو يومين يسرقنى فيهما ويمضى ، أو لا يستطيع أن يفعل شيئا فأجد نفسى مضطرا للاستغناء عنه . أتصور أنه يجب أن يكون هناك مدير لأعمال الكاتب يذهب للناشر يساومه ، يتولى مراجعة أعماله ، مراجعة عقوده ، والاحتفاظ بتلك العقود وتحصيل أقساطها فى موعدها لأنى قد خسرت فى هذا الأمر نقودا كثيرة ، كان العقد يقضى بأن أستلم عند القبول كذا وأتكاسل وأنشغل وأذهب بعد ذلك عدة مرات ، ربما حصلت على القسط الثانى وربما لم أحصل ، كما حدث مثلا فى مسرحية (عشرة على باب الوزير) لم أحصل على أى مبلغ رغم أن تلك المسرحية كان إيرادها ما يقرب من مائة ألف عندما أقاموا لها العرض الأول فى مسرح الهوسابير ثم بمسرح الجلاء ، وتزوجتها بعد أن عرفت عنها كل شىء ، فقد أحسست أن الله هدانى إلى ما كنت أبحث عنه ، سمعت منها ما جعلنى أعرف أن الدنيا بها الكثير من الخير ، وبعد عام وجدتها هى ذى

تبشرنى بأن هناك من فى الطريق إلينا لينضم لأسرتنا وشعرت بسعادة بالغة فلم أكن أتصور نفسى والدا لطفل جديد ، وهكذا عاهدت نفسى إذا ما وضعت طفلا أو طفلة أذهب معها إلى الكعبة ، الآن عندما أتذكرها سقطت دموعى على جهاز التسجيل ؛ لأننى أحببتها حبا لم أحبه لأحد من قبل ، وقد أحبتنى هى حبا أستشعره فى كل لحظة ، وفى كل لقمة ، وفى كل نظرة أراها بعينها ، وما كاد العام الثانى ينتظم إلا وجاء عمرو ابنى العزيز ولا داعى الآن لذكر كل الأشياء المتصلة به حتى لا تهيج عواطفى وتعصف بى الأشواق ، بعد أن حرمت من رؤيته لمدة طويلة ولا يعرف متى أعود إليه لأرى وجهه الملائكى ، ولد جميل لطيف ، ذكى وشقى وبه لمحات الأطفال الأذكياء التى بهم شقاوة هذا العصر الذى نعيشه .

وعشت معها أكثر من عشرة أعوام ووجدت بها مزيجا من زوجتى الأولى بهدوئها وسكينتها وطيبة قلبها وبين روعة الشباب وجماله ورونقه وحيويته ورغبته فى حياة مستقرة آمنة ، هذه قصة زواجى الثالثة ، ربما لا تعجب القراء ، ربما لا يجدون فيها الجديد ، ولكن أى جديد ؟ هل يجب أن أحكى قصة دامية لكى تكون جديرة بالذكر ؟ إنها حياتى أقصها وأنا جالس فى سريرى فى غرفة منبوذة فى مستشفى الأولدكورت ، لا أحد يسأل ولا أحد يأتى ، والصمت يرن رنينا غريبا ويطن فى أذنى كأنه

محرك طائرة نفاثة ، وأقص عليكم رحلتى إلى الكعبة متخلصا من تلك الآلام وكيف صعدنا إلى الطائرة والركاب يكبرون ، وعاصفة من الضحك من ولدى عمرو ، حاولت إسكاته ، وكنا ذاهبين مباشرة إلى المدنية ، حيث مقام حبيبى رسول الله (ﷺ) . بذهنى ذكريات فترة من فترات حياتى ، حاولت نسيانها ولكن لا فائدة . . . ، الدكتور بانديا المتحمس لنهرو وعبد الناصر يذكرنى بها ، تداخلت الأحداث تداخلات غير منطقية ، وأصبحت أنا ومجموعة أخرى لا نفهم ما يدور فى منظمة الشباب التى أنشأناها من أجل رعاية الشباب ، فى تنظيم يضم صفوة الشباب يحققون الأمل فى مستقبل أفضل ، هكذا كانت تعاليم عبد الناصر وكنا فى غاية الحماس لتنفيذ ذلك أو على الأقل كنت أنا وكأننى أبنى مستقبل مصر ، وكانت أسماء غاندى ونهرو وتيتو وعبد الناصر مثل نجوم ساطعة فى سماء الشباب ، كان غاندى هو المثل الأعلى للشباب فى النضال الوطنى التحررى بالمشارق والمغارب ، وثارت الجزائر كما ثار اليمن كما ثارت عمان ودول الخليج وعرفوا أنهم مستعمرون بهؤلاء البيض الحمر الذين يسمون بالإنجليز وكانت خطب عبد الناصر فى ذلك الوقت مثل مشاعل مضيئة فى ليل مظلم ، مهما طالت ومهما جلسنا حول المذياع بالساعات فإن لحديثه سحر يجعلنا نحن الشباب فى قوة ورجولة وعزم ، ننفض من حول المذياع بعد انتهاء الخطبة لنقود بثورية عفوية الشباب كله لكى ينتظم فى

تلك المنظمة التى كنا نأمل أن تقوم بدور فعال فى محاربة الفساد والرشوة وكل أنواع الذل الذى تعرض لها الفلاح والموظف والعامل المصرى خلال سنوات طويلة ، فلما جاءت فكرة منظمة الشباب حقيقة كنا فى أشد الحماس لها ، كنت أحب وطنى وأحب تلك المنظمة وأحب عملى وأحب عبد الناصر حتى أننى بكيت بكاء شديدا عندما أعلن تنحيه فى التاسع من يونيو ، وقد وقعت فى براثن زملائى فأخذوا يلفقون لى التهم وكانت المحنة التى حكيت عنها من قبل والتى انتهت بنقلى تماما إلى إدارة الإسكان ، ذهبت إلى إدارة الإسكان هذه فى منطقة تسمى بالحوض المرصود وللأسف اكتشفت أن ذلك الاسم يطلق على منطقة كانت بها مستشفى العاهرات يذهبون إلى هناك ليأخذن الرخصة ، ذهبت إلى هناك ولا أدرى ما هذا الحوض المرصود ولماذا سمى بهذا الاسم ، قابلت عم متولى ، صالة كبيرة فسيحة بها العديد من المكاتب والدواليب والأوراق ممزقة وملقاة على الأرض ذهبت إليه ظنا منى أنه المدير وقدمت له ورقة تعنى أننى قد قبلت العمل بهذا المكان فنظر نحوى مستفسرا : ماذا فعلت يا بنى ؟ قلت : لا شىء ، قال لا شىء ! إنهم لا يرسلون إلينا إلا موظفى الجرائم والرشاوى وما إلى ذلك ، وقلت أنا لست كذلك يا عم متولى فتبسم ضاحكا وقال يا ولدى أنا مجرد موظف ضابط الوقت هنا مكلف لحصر الأسماء للحضور و للغياب عملى ، فتلفت حولى وقلت له وأين بقية الإخوة ؟ قال : فى القهوة إنهم

يحضرون فى الثامنة وينصرفون فى التاسعة ثم يعودون فى الواحدة ثم ينصرفون فى الواحدة والنصف ، ويجب أن تعلم هذا وتعرفه حتى تكون متضامنا مع زملائك ، أما المدير العام واسمه أيضا متولى ، فرجل خشن الطبع سيئ التعامل وسوف ينالك منه كل ما هو رذيل ، ويبدو عليك يا ولدى أنك من أسرة طيبة فمن أين أتيت ؟ هل جئت من وزارة الخارجية ؟ ، وقلت له لا والله أنا كنت أعمل فى رعاية الشباب وأعمل أيضا فى الصحافة وحرمت من هاتين الوظيفتين وجئت إلى هنا ، قال حسنا كان يجب أن تأتى فى آخر النهار حتى يحسب اليوم لك ، وأخذ يحدثنى عن أفعال هذا المتولى أو المدير العام ولو قابلت هذا المتولى فى تلك الساعة لقتلته من كثرة ما قاله . أخيرا فى الواحدة بدأ الموظفون يأتون يتحدثون عن أدوار الكوتشينةووقعوا وهم يتضاحكون مع عم متولى فقلت بحماس شديد أنا الموظف الجديد ضحكوا وانصرفوا ، وتعجبت لماذا يضحكون ؟! فإذا بعم متولى يقول : لا تحزن يا بنى غدا تعرف كل شىء . وفى اليوم التالى جئت مبكرا وأردت أن أتقرب إليهم ، ولكنهم بدءوا يتوجسون منى فلم يحاول أحدهم أن يقترب منى ، إلا الموظفون الذين يدينون بالدين المسيحى على اختلاف ملاتهم فقد تقربوا منى وأسروا إلى بمجموعة من الأقوال والأفعال ما كنت أعرفها على الإطلاق ولكنى فسرتها أنها مجرد عادات خاصة بالمسيحيين أجهلها أنا بالطبع ، وفجأة اكتشف زميلى أننى

مسلم فإذا به يعلن الخبر وانفض من حولى الجميع مسلمون ومسيحيون . سألنى (بانديا) وأنا أحكى له حكاية تنقلى كثيرا بين عدة أعمال ، لماذا لم أحاول الدفاع عن نفسى ؟ قلت : لأننى كثيرا ما أفشل فى الدفاع عن نفسى ، فأنا دوما مستغرق فى تفكير لإجابات عن أسئلة سبق طرحها ولم أجب وقتها ، فلما عرفت إجابات الأسئلة كانوا قد مضوا ، اتهمونى بالغباء ، ولا أكتمك يا صديقى فأنا فعلا أتصف بالغباء الشديد ولا أحسن التفكير السريع، كل شىء عندى تحول إلى خيالات لا تخصنى ، حتى أنا نفسى لا يخصنى ، كل شىء زائل إلا وجه الله ، فلا داعى للحكمة ولا للبلاغة ، ولا حتى للكلام فكل شىء هباء ، أنظر أين أنا الآن ؟ وماذا أفعل ؟ أتكلم معك ، ثم أتكلم مع نفسى ، ثم أتكلم مع شخص آخر لا أدرى إذا كنت أنا هذا الشخص أم لا ، حتى اسمى المطبوع فى الجريدة التى أحضرها لى فاروق هذا الصباح ، أشعر بأنه لا يخصنى ، أتوق إلى شربة ماء ، أمد يدى اليسرى ، ولكن حلقى مغلق ، لا أكاد أطيق ابتلاع الماء ، أضع الكوب وأنظر إليه بحسرة ثم أغوص فى عمق بحر مرسى مطروح ، الزرقة والماء البارد ، أغوص ، أغوص ، وأغوص . . وأصرخ طالبا النجدة . . ولكن لا أحد يسمعنى !

* * *

الفصل الثانى عشر

منذ شهور طويلة وأنا قابع هنا ، تحولت الأشياء من حولى إلى خيالات . . مشرقى أخذ نصف رغيف وجعل يقلب فى حلة الفول ، لكى يمزج الطحينة بالزيت والتوابل بالملح والفلفل ، وهو فى كل مرة يقلب فيها الحلة ، تفوح رائحة الفول المدمس ونزدرد لعابنا بصعوبة ، وكل لحظة يخرج يده ويلعق ما علق بها من فول أو طحينة أو زيت ثم يضرب يد أحدنا التى تسللت لكى تأخذ قرصا من الطعمية ، آمرا أن نكف عن تلك الألعاب الصبيانية ، ومن جيب الجاكتة أنبوبة التحاليل الطبية بها عصير الليمون ، استطاع أحدنا أن يفتح كيس الطعمية أمامنا فإذا بى أجد هرما من الطعمية ، الكيس الآخر به هرما من الطماطم ثم ثالثا من المخلل بكل أشكاله وألوانه ، فلما بدأ مشرقى يبتلع فى لقمة واحدة نصف الرغيف الذى فى يده ، انتبه الجميع فى لحظة واحدة وفى لهفة اندفعوا يأكلون والأرغفة تتناقص ، نسيت أن أقول لكم أنه كان هناك جوال من الخبز ، جاء به الساعى من الفرن مباشرة ، وحاولت أنا أن آخذ رغيفا ونجحت فى ذلك و وصلت إلى الحلة وأخذت لقمة ووضعتها فى فمى فإذا هذا الطعام الجميل ينسال فى فمى كما ينسال السكر أو العسل أو ما

يشبه ذلك ، وأحسست براحة وسعادة غريبة وأنا آكل الفول المدمس وكأننى آكله لأول مرة فى حياتى ، فلما أردت أن أتلوها بثانية فإذا بالحلة بيضاء وكأنها قادمة من عند مبيض النحاس ، فقد كانت حلة نحاسية فى هذا الوقت ، فقلت آكل طعمية ولكن الطعمية قد انتهت وكذلك جبال المخلل وجبال الطماطم ، فنظرت إلى جوال الخبز فإذا هو راقد ساكن وقد انطبق على نفسه ، ونظرت نحو مشرقى ، فقال: اسمع لا تقل كلمة واحدة ، كان الطعام أمامك مثلنا جميعا نحن أكلنا وشبعنا ، كل منا أكل ما استطاع ، قلت : وأنا رغيفى لم آكل منه إلا لقمة ! قال : وما ذنبنا نحن ؟ إذ كنت تخشى على يدك أن تتلوث وتخشى على بدلتك الأنيقة أن تتسخ ، نحن لا نخشى على ملابسنا ، فنحن جرابيع .

جاء الساعى بصفيحة ، أقصد وعاء من الصفيح يشبه صفيحة الزيت وبه شاى مغلى ، وأخذ يدلق الشاى فى أكواب من صفيح أيضا هم يتجشأون ويتمطون وكأنهم قد أكلوا زادهم الأخير ، ووزع الأكواب ومنحنى واحدة وما كدت أذوقها حتى أحسست أننى أخسر اللقمة التى أكلتها . نظر أحدهم نحوى وقال : ماذا فعلت حتى يأتوا بك إلى هنا ؟ قلت لا شىء ، ضحكوا وانبروا يقصون على ما يفعله المدير ، وكلها أفعال شائنة ، أظهروا لى المدير العام رجلا ظالما جهولا لا يهمه إلا إفساد حياتهم ، ثم

انصرفوا وجلست أنا وحيدا ، لا أدرى ماذا أفعل ، بعد قليل قال متولى إن المدير العام يريد أن يراك فأسرعت إليه . . رجل أسمر الوجه ضاحك الفم قصير سمين ، كنت أكتم فى نفسى الغضب منه فإذا به يسألنى نفس السؤال ، لماذا جاءوا بك إلى هنا ؟ لا يبتلوننى إلا بكل موظف كسول أو مرتشى أو حرامى ماذا فعلت أنت حتى يأتوا بك إلى هذه الخرابة ؟ يا ساتر ، هذا استقبال سيىء ، فاندفعت إليه وبدأت أدفع بمكتبه تجاه الحائط حتى كاد أن يختنق ، وهو يردد يا ولدى لا أقصد ، أرجوك أنت تقتلنى قلت وأنا أراه ملتصقا بالحائط محاصرا بمكتبه ، أنت فعلت كذا وكذا بفلان ، وأنت فعلت كذا بآخر ، وأنت تظن نفسك هتلر أو موسيلينى ، أو چنكيز خان ، أنت مجرد موظف ، صاح قائلا دعنى أفسر لك حتى لا يؤثروا على عقلك ، وخاصة أنك عينت نائبا لى ، وقلت لا والله لن أقبل وسأقوم بإجازة من الآن . قال لم تكد تتسلم العمل حتى تطلب إجازة ، قلت لكى أهرب من هنا ، أنا لا أريد أن أنضم لمجموعتك . توسل الرجل حتى سحبت المكتب واستطاع أن يتنفس ، وأمر بكوب من الماء له وفنجانين من القهوة ، ثم بدأ يرينى الملفات التى لديه والتى تدين هؤلاء الذين شكوا منه وقدموا الكثير من الأقاصيص ، حول ظلمه وأفعاله فإذا بى أكتشف أنهم بالفعل مجموعة من اللصوص والأفاقين ، وأزعجنى هذا الأمر ، وظل يؤلمنى طوال عام كامل

قضيته فى هذا العمل ، لقد أطلعنى على التحقيقات التى تمت وحفظها هو حتى لا يخرب بيوتهم وحتى لا يقف عثرة فى طريق مستقبلهم أملا أنهم فى يوم من الأيام سوف ينصلحون لأنهم مازالوا حديثى التخرج أو فى سن غير مدركة لما يحدث حولهم ، مكتفيا بأنه يعاملهم فى عنف ويقول إن هذا أفضل من إفساد مستقبلهم ، ثم قال أنت الآن فى إجازة حتى تكتمل راحتك ، و حتى يكون لديك فرصة أن تنضم إلينا وبالتأكيد ليس جميعهم كذلك فبينهم طلاب فى الجامعات شرفاء يؤدون عملهم ولكنهم لا يأتون إلى هذا المكان لأنه كما قال يرسلهم فى مهام خارج الإدارة ذاتها ، هم يعملون فى التحصيل أو فى المناطق الأخرى بعيدا عن حلة الفول ، وذهبت إلى بيتى لا أدرى ماذا أفعل ؟ أنا خارج العمل ولا عمل هناك ، ولا زوجة فى الانتظار ، ولا رائحة طبيخ تنبهنى إلى أن الطعام قد أعد ، وجلست وحدى ، المائدة ، مائدة الطعام فى الصالة أو ما يسمى بالسفرة جلست إليها أتحدث معها ، فأنا مؤمن بأن الأشياء تتكلم ألا تسبح بحمد ربها ؟ ما من شىء إلا يسبح بحمده ، كانت مائدة كلاسيكية فهى فخمة ضخمة ، تذكرك بأيام السرايات والباشاوات والمقاعد مكسوة بجلد أخضر تقف فى شموخ العرش الملكى فى قصر عابدين ، جلست على واحد منها وأنا أنظر إلى زجاج المائدة وأحملق فى خيالات وجهى وانعكاسات

الضوء على الزجاج البلورى وأفكر ماذا أفعل ، أنظر إلى ساعتى ، زوجتى لن تحضر قبل التاسعة مساء ، هل أذهب إلى بيت أمها وأكون متطفلا وأتغدى مع الأولاد ؟ هل أبقى فى البيت؟ هل أقرأ كتابا ؟ هل أذهب لأتسول عملا فى إحدى المجلات ؟ ماذا أفعل ؟ ، كان خوائى العاطفى وجوعى الجسدى قد تم نضجه فى تلك اللحظة ، وبدأت أفكار الطلاق مثلا تساورنى حتى أتزوج بسيدة أو زوجة أراها فى البيت كل لحظة تشاكلنى وأناكفها وتشاجرنى و أشاجرها وتضاحكنى وأضاحكها زوجة تملأ حياتى ، الباب يدق ، أفتح فإذا بخادمة جارتنا فى قميص شفاف أسود تغرى أى شاب وكنت فى ذلك الوقت فوق العشرين بقليل ، تسألنى أن أعطيها وابور الجاز فاستعذت بالله وقلت لها ادخلى وخذى ما تشائين وكان جيرانى هم أيضا موظفين لا يأتون إلا فى ساعة متأخرة فهم يعملون معا فى مكان واحد ، فعادت ودقت الباب ولم تكن أكثر حشمة بل تعرت أكثر ، وقالت إنها تريد (الإبرة) . . تعلم أننى وحيد ، وأن مخدومتها لن تحضر الآن وأيضا زوجتى ، فقلت فى غيظ أنا فى حالة نفسية تدفعنى لقتل أى إنسان يقترب منى فإذا دققت الباب مرة أخرى ستكون نهايتك ، فخافت البنت وكانت دون العشرين ولم تدق الباب ثانية ، وجلست وحدى وأطرافى ترتعد ، فأنا بالفعل أشتاق إلى محاضنة فتاة مثلها وفى عمرها ، ولكن كيف

أفعل هذا وأنا أتقى الله ! ودخلت غرفة مكتبى وانشغلت بكتابة روايتى (ثمار الشوك) ، وكنت قد التحقت بعدة معاهد لكى أحصل على دبلومات تؤهلنى لمواصلة دراستى العليا ، وفى المساء أذهب إلى الأوبرا أو أزور معرضا فنيا أو أقابل أصدقائى من الفنانين والأدباء فى جمعية الأدباء أو نادى القصة ، وكنت وقتها شرها للغاية ، شرها لكل ما يزيدنى ثقافة حتى ولو كان حفل زار ، عدت بعد أن انتهت إجازتى الإجبارية فإذا بالمدير العام يأخذنى بصحبته لكى يدربنى على العمل باعتبارى نائبا له ، ذهبت معه فإذا به يعامل سكان بلوكات عين الصيرة بنفس العنف الذى يعامل به موظفى الإدارة ، فهو يطرد السكان ، يدخل المسكن ويطالب بالإيجار فإذا لم يدفع أو تدفع السيدة المسكينة يأمر أفراد عساكره بقذف العفش القليل الباهت اللون القديم من النافذة ، وعادة تكون من نوافذ الدور الرابع أو الخامس فى بلوكات عفنة خشنة لا لون لها ، رائحتها عطنة ، تشمها من بُعد وضاقت نفسى وتحملت ما فوقها وازداد غضبى عندما قال : هكذا يكون العمل ، قلت : وكيف يكون ؟ لقد دخلت على سيدة ، فى حالة ولادة ثم نهرتها وقذفت بعفشها من نافذة الدور الخامس ، قال : وماذا فعلت السيدة ؟ قلت : دفعت الإيجار ولكن هذه يا أخى مذلة ، فقال : انظر كم جمعت اليوم ، شعرت بأن هناك تداخلات مثلما حدث فى منظمة الشباب ، أن

تفهم مالا تفهم وأن تفهم مالا يجب فهمه ، وأن تكون أنت العروس يحرك خيوطها شخص آخر لا تراه ، وتتشابك الخيوط حتى تكاد تخنقك وتدور فيها ، لا تدرى هل تخلص نفسك من الخيوط أم تبقى بداخلها حتى تموت ، عدت إلى بيتى حزينا ، دقت الفتاة الخادمة بابى فى ذلك اليوم وخرجت ووجدتها فإذا بى أصيح بها صيحة جعلتها تخرج من بيت مخدومتها ولا تعد ، وعدت إلى سريرى وأنا غاضب من نفسى ، وغاضب من هؤلاء الذين نزعونى من ميدانى وقذفوا بى إلى هذا العمل الذى لا يمكن أن يوصف إلا بأنه جباية الأموال ولا فرق بين الجابى فى العصر المملوكى والعثمانى وبين جابى هذا الزمن الذى نعيش فيه ، فكيف يحدث هذا فى زمن جمال عبد الناصر ، فى زمن الاشتراكية ، أية اشتراكية يتحدثون عنها ، وهم يقذفون بمتاع بيت فقير لعامل لا يملك قوت يومه ، ولا يستطيع تسديد إيجاره الذى يصل إلى جنيهين فقط فى الشهر الواحد فيتراكم عليه الإيجار سنة أو بضع سنين ليأتوا إليه يفترسونه ولا حول ولا قوة إلا بالله ! وعندما عدت فى الصباح لم أشترك معهم فى طبلية الإفطار هذه أو حلة الإفطار الفولية ، كنت أخرج وحدى لأتناول إفطارا محدودا فى أحد مطاعم السيدة ، وأعود وقد بدأت أفكر ماذا أفعل ، فى اليوم الثالث كلفنى المدير العام أن أذهب إلى منطقة عين الصيرة وذهبت ، بعد عدة زيارات ، اكتشفت أن تلك

المنطقة بها ألف خفير يحرسون المساكن والمفترض أنهم حراس لهذه المساكن ، واكتشفت أنهم يؤجرون الشقق الخالية من الباطن ويحصلون على مبالغ عالية ويحصلون على سكوك الإيجارات للمسكن ، ويسلمونها إلى من يدفع لهم ، والأمر الأخطر أننى اكتشفت أنهم يعملون جميعا ضمن عصابة ترأسها سيدة ، تدعى (سكر) هذه السيدة تعمل فى جميع المجالات . . المخدرات وبيع الشقق والدعارة وبيع الذمم تفعل كل شىء فى سبيل المال أنثى جميلة لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين بهية الطلعة فى ميوعة تزيدها جمالا على جمال ، بدأت أجمع كل المعلومات التى أريدها فاكتشفت أننى فى مستنقع لبيع المخدرات والدعارة وبيع الشقق وتأجيرها لراغبى اللذة بالساعات أو بالليلة الواحدة وأن هذا يحدث علنا ، أمام كافة السكان الذين لا يستطيعون أن يفعلوا لتلك العصابة ورئيستها أى شىء ثم أنهم لا يملكون شجاعة المواجهة وفى أحد الأيام كنت جالسا نائبا عن المدير ، دخلت (سكر) وحملقت فى وجهى وقالت : وإن كنت تريد مالا أعطيتك وإذا كنت تهوى النساء جلبت لك كل ليلة امرأة وإذا كنت تريد ذهبًا أو غير ذلك فأنا تحت أمرك سوف أعطيك ما تريده ، كان محمدين لا يزال يرتشف القهوة وعيناه الخضرا وان تبرقان نحوى ونحوها ، وكأنه يترقب رد فعلى ، كان طالبا بالأزهر الشريف ، فناديت على

(الصول) الذى يقوم بحراستى ، أما هى فقد جلست فى اطمئنان ، حضر الصول وخلفه معاونوه ، فوقفوا بجوار الحائط وأمرت الشيخ محمدين ، وآسف لكلمة الشيخ لأننى تعودت أن أطلق عليه هذا وهو الآن يعمل أستاذا بجامعة الأزهر ، زاده الله تمكينا ، ورحم الله (عزيزا) الذى كان ثالثنا فى تلك المجموعة التى كانت تعمل فى الإسكان فى ذلك الوقت ، وكان من الأطهار رحمه الله ، أمرت محمدين أن يغلق الباب وقلت لها : ماذا تريدين أنتى يا ست سكر ؟ قالت : أنت تعرف بالتأكيد ماذا أعمل ؟ قلت : نعم . قالت : وهل تريد أن تمنعنى ؟ قلت : نعم ، قالت : إذن تريد أن تموت وأخرجت من جيبها مطواة قرن الغزال ، وأمسكت بها مهيأة مهددة ، قلت : وهل من المعقول أن تقومى بقتلى أمام الشهود ، فقالت : هؤلاء يأخذون منى مالا فكيف يشهدون ضدى ؟ لو بقيت هنا سوف أخسر كل شىء أقسم بالله أننى سأقتلك فى الحال إلا أن تتراجع وتتركنى أفعل ما أشاء ، رفعت سماعة التليفون ، فقالت : ماذا تفعل ؟ فلت : أطلب النيابة فإذا كان من حقك قتلى فمن حقى أيضا أن أخبر النيابة فقالت : سأقتلك أمام وكيل النيابة ، قالتها بتحد فاجر وبقوة جعلتنى أهتز قليلا من الداخل ، من أين لهذه السيدة هذه الجرأة الرهيبة فى زمن نحارب فيه الظلم والطغيان بعد أن حاربنا الإقطاع ورأس المال إلى آخر تلك المصطلحات التى سمعناها ،

رفعت السماعة وقلت لوكيل النيابة إن لم تحضر خلال عشر دقائق أكون قد قُتلت فى مكتبى وأمام عساكر الشرطة ، صرخت فى غضب و هى ترفع السكين أمام وجهى : أنت تتحدانى ولن أتراجع ، أقسم بالله لأقتلك أمام هذا الوكيل ، فإذا بجرس التليفون يدق مرة أخرى ووكيل النيابة يطالبنى بإبلاغ الشرطة و السكينة تقترب من رقبتى ، قلت : إن لم تحضر فسأكون من الهالكين .

ومرت لحظات رهيبة وأنا أدعو الله أن ينجينى من شر تلك السيدة التى راحت تدور حولى رافعة السكين وقد ازداد احمرار وجهها ، الأربعة الذين يقفون بجوار الحائط قد تسمروا تماما ولو قتلتنى فى تلك اللحظة وخرجت فإن هؤلاء الأربعة لن يتحركوا ، أنقذنى دخول مأمور القسم وبعض الضباط ووجدوا السيدة فى حالة هياج شديد ومعها المطواة ، قام مأمور القسم بالإمساك بها فراغت وأزبدت وأقسمت على قتلى بالفعل ، وتوعدتهم جميعا بالويل ، وسخرت من الجميع حتى اعتقدت أنها الأقوى فعلا ، وكيل النيابة حضر لتوه فأمر بالقبض عليها ، حاولت التخلص منهم ، سقط من جيبها قطعة مخدرات وصاح المأمور أخيرا وقعت يا سكر ، وكأنها قد سقطت من عالق ارتمت باكية مولولة مقسمة على أنها كانت تفعل هذا من باب التهويش وأن هذه المخدرات لا تخصها فقام المأمور بتفتيشها

فإذا به يجد قطعا أخرى كانت قد أخفتها فى جسدها وكأنها عربة محملة بالمخدرات ، وسقطت عصابة سكر ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فى اليوم التالى أصدر المحافظ قرارا بإلغاء الحراسة على المساكن ، كان هذا العمل كافيا لكى أكون بطلا من وجهة نظر سكان عين الصيرة وبطلا من وجهة نظر إدارة الإسكان كلها بل والمحافظة بكامل عددها وعُدتها لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ما فعلته ، كان هذا حافزا لكى أعمل فى إدارة الإسكان وأن أزور كل المناطق وأحاول أن أطهرها من ذلك السلوك الذى تفشى فى الفترة التى سبقت حرب يونية ، وقد ساد فساد اجتماعى عنيف بدأ مثل الطاعون الذى يسرى فى المجتمع ويجعله هشا من الداخل وإن كان فى ظاهره قويا ، فلما انقضت الطائرات فى الخامس من يونيو كان البناء الهش مستعدا للسقوط ، وكان البناء العسكرى والنقابى وكل الأنظمة التى كنا نتشدق بها وأصبحت مثل الحبال المدلاة من غير عقول تحملها . انهارت الحبال وعرف الشعب أنه قد تعرى حتى من ملابسه الداخلية ، كنت أحس بهذا منذ عام ١٩٦٣م ، أشعر به وأراه فى كل لحظة أنتقل بين إدارات المساكن التى شملت كافة أنحاء القاهرة الكبرى من آخر شبرا وحتى آخر حلوان ، كنت أرى ظلما واضحا ورشوة مسيطرة مستترة وظاهرة أيضا ولا أحد يتحرك ، أشياء متداخلة تبدو كأنها نمل أبيض اندس ينخر فى الداخل ، يدور عقلى ، تفر

أوراق عمرى أمامى ، لا أدرى أية صفحة يمكن للإنسان أن يتذكرها ويدرسها ويصرخ ملتاعا وهو مساق إلى الحرب ، ماذا يعمل الفتى عندما يجد نفسه فى بؤرة الأحداث وهو لا يزال فى العشرين من عمره ؟ كنت غارقا إلى أذنى فى العمل برعاية الشباب و ساقنى العمل لكى أكون قريبا من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، بالطبع كان هناك خلاف ينعكس علينا نحن قادة العمل التنفيذى لمشروعات الشباب ، قام الأطباء بالفحص ووضعوا مقياسا لقياس عمق الجرح الغائر فى صدرى . قال الدكتور يعقوب : إن الوقت لا يزال طويلا حتى يمكن التخلص من التسمم الذى حدث ، وأشار إلى ابنتى أن تخرج ولكنها رفضت فقال ما معناه : لا أمل ، وتركنا وانصرف .

كنت أدرس وأتعلم وأذهب إلى الجامعة وأحاضر وأعلم الطلاب ، كنت أشغل وقتى كله و حتى بعد زواجى ، كان عندى حرية كاملة فى أن أعمل وأدرس وأذهب إلى أماكن شتى ساعات الليل وساعات النهار ، وكانت أول بعثة لى إلى روما حيث سافرت إلى هناك وكانت تجربة فى بدايتها قاسية ، لأننى صغير السن ، وكانت رهبتى من أوروبا تكاد تكون عاصفة ، وما كدت أضع قدمى فى نابولى حتى هاجمنى اللصوص ، وكادوا يفتكون بى لولا بعض شجاعة تصورت أنها لى وصرخت فيهم فإذا بهم ينفضون من حولى ، وكان هذا الأمر مثيرا وجعلنى أكثر

شجاعة ، ولم أنزلق إلى تلك المزالق التى يقع فيها الشباب عندما يحضر إلى بلدة مثل نابولى . عندما ذهبنا إلى إدارة الجوازات وكان هناك ما يسمى بتأشيرة الخروج يجب أن تحصل على تأشيرتين ، تأشيرة تسمى الخروج أى يسمح لك بمغادرة البلد ، ولكى تحصل عليها لابد من مراجعة كشوفات كثيرة وسجلات ضخمة حتى لا يكون اسمك من ضمن الممنوعين من السفر وهم كثير ، فإذا حصلت عليها تذهب إلى القنصلية لتحصل على تأشيرة دخول البلد الآخر ، وذهبت إلى مكتب الجوازات أشاروا إلى طوابير طويلة ملتوية ولا نهاية لها ، وكان وقتى ضيق للغاية ، فسفرى قد تحدد وأوراقى لم تستكمل بعد ، كما أن عملى يشغل كثيرا من وقتى ، ودراستى بالجامعة كانت تشغل الباقى ، وأفكارى الخاصة وخيالاتى تسرق بقية اليوم ، فذهبت إلى أول الطابور لأرى أين ينتهى ؟ فإذا به ينتهى بمكتب أحد الضباط ، وقد كتب على لافتة المكتب اسم الضابط وأمامه آلاف الجوازات وبدون تفكير أو روية أخذت أصيح فى الناس أن يقفوا فى الطابور ويعتدلوا بنظام وأنا أردد لماذا يسافرون ويتركون البلد خرابا ويأخذون عمله صعبة ؟! ومثل هذه الكلمات كنا نتعلمها من الزعيم ، فارتبك الناس حولى فأخذت مجموعة من الجوازات ووضعتها مفتوحة على الصفحة التى يجب أن يختمها الضابط ، كل هذا حدث فى دقائق معدودة ، ولا أدرى لماذا

فعلت هذا ؟ ثم وضعت جواز سفرى أسفل الجواز الأول ليختم بعده ، ثم رفعت السماعة وتظاهرت بأننى أتكلم بالتليفون وناديت الشرطى الذى يحرس المكتب وقلت أين المقدم فلان ؟ استدعِهِ فورا فهناك مكالمة مهمة من رؤسائه .

وأسرع الجاويش إلى حيث كان السيد المقدم أو سعادة الباشا المقدم ، ذلك لأنهم بعد أن جلسوا على كرسى السلطة أصبحوا هم الباشوات ، وكان من الصعب أن تقول لفلان هذا يا سيد ، حضر سعادة المقدم مهرولا وهو لا يدرى شيئا وأنا أوجه الناس وأقول كلاما من تلك العبارات الرنانة التى كنا نستخدمها فى ذلك الوقت صرخت فيه ، أنت تضيع وقت الشعب ، فإذا به يجلس على المكتب ويسرع بوضع خاتمه على الجوازات التى أمامه ، بسرعة هائلة دون النظر إلى الأشخاص وصورهم ولا إلى أسمائهم ، ودون مراجعة السجلات ، كان مرتبكا وأنا أردد للناس أن هذا ضد الثورة ، تبذير ، وأن هذا يجعل مصرنا الحبيبة تئن تحت وطأة ندرة العملة الصعبة ، التى يتحكم فيها الأعداء الرأسماليون ، فلما ختم جوازى سحبته بسرعة وأنا أردد تلك العبارات حتى وجدت نفسى خارج الغرفة حدث هذا فى خمس دقائق ، ولكن لو أننى فكرت فيما فعلته أو أعدته مرة أخرى لأنكرت نفسى ولم تكن بى شجاعة لأفعلها ثانية ، كنت واقفا أفكر فيما أفعل بعد ذلك وقد أربكنى الحدث أخذ منى كل قوتى

وكل طاقة عقلى وجدت اثنين من الذين كانوا فى الطابور يسألاننى بأدب : (سعادتك رايح فين عشان نوصلك) ؟ فقلت بلا روية نادى الجزيرة ، وركبت معهما وأنا أفكر فى عاقبة هذا الأمر ، وها هو جواز سفرى فى جيبى وقد حصلت على التأشيرة ، يكفى فقط أن أرسله مع أحد الأشخاص إلى القنصلية الإيطالية وكنت أعرف الشاعر مصطفى ، له علاقة طيبة بالإيطاليين .. ووصلت إلى باب النادى ووقفت السيارة فحييتهما تحية مقتضبة ودخلت ، لكن لم ينته الأمر عند هذا الحد ، سافرنا جميعا على الباخرة (سورية) وهى باخرة صغيرة ، إلى حد كبير ، وركبنا الباخرة من الإسكندرية علينا أن نقضى حوالى خمسة أيام حتى نصل إلى ميناء نابولى ، ذلك لأن السفينة تمشى وكأنها لا تمشى ، وفى الباخرة وجدت أن الركاب يتحاشون الجلوس معى ، وإذا دخلت إلى منطقة ما مثل غرف الصالونات أو المطاعم ينصرف عنى الناس جميعا ، ولا يتحدث إلىّ أحد وأصعد إلى ظهر الباخرة لأستمع إلى أغانى أم كلثوم وقد تعودت التدخين ، أمل الوحدة ولا أطيقها ، فإذا ما جلست إلى أحدهم محاولا التعرف عليه ينصرف بسرعة ، ولا يحدثنى ولم أفهم معنى هذا النفور طوال الرحلة ، عندما أذهب إلى البوفيه وأطلب شيئا يستجاب لى فورا ، وكانوا يصرفون لنا على الباخرة حلويات وسجائر وأشياء جميلة جدا بأسعار تكاد تكون

رمزية فكانت علبة السجائر بأربعة قروش وعلبة الحلوى بأربعة قروش وكيلو البنبونى بعشرة قروش فكنت أشترى أشياء كثيرة وأحتفظ بها وأنا قادم فى بعثة لا أدرى هل أوفق فيه أو أعود خائبا ، وفى كل مرة أذهب إلى البوفيه يناولنى الرجل (باكو) كامل من علب السجائر ، كل هذا بأربعين قرشا ! اتضح بعد ذلك أن (الأروصة) تباع فى إيطاليا بما يوازى ثلاثة جنيهات إسترلينية ، كنت أحصل على ما أريد دون مناقشة من البائع، بينما جارى إذا سأله علبة يقول له هل معك كابون ؟ هل صرفت اليوم ؟ فكل يوم لك علبة واحدة فأقول له كيف تمنعه أن يشترى إلا بكابون وأنا لم أعطك كابونا ؟ ، وطلبت منك علبة وأعطيتنى عشرة فلماذا تفعل معى هذا وتمنع عن زميلى ؟ و يرتبك البائع ويعطيه ما يطلب ، حتى أن بعض الركاب يقفون على مبعدة وإذا اقتربت من شباك البوفيه ينقضون على البوفيه لكى يسألوه طلباتهم أمامى فيعطيهم ما يشاءون ويغلقون البوفيه حتى أنصرف ، وكان من العادة أن يدعو القبطان إلى برج المراقبة أو غرفة القيادة ، مجموعات من الركاب لاحظت أنه دعى كل المجموعات إلا أنا ، فى أحد الأيام جاءنى طلاب الكلية الذين يتدربون على قيادة البواخر ، حيث كنت أجلس وحيدا أستمع لأم كلثوم وهى تغنى للحب وأظل أبكى لأننى كنت متزوجا حديثا أتذكرها وأبكى مع أغانى أم كلثوم يشكون من القبطان ويحكون عن سرقات حدثت

وفواتير تزور وأشياء من الممكن أن تضع القبطان تحت طائلة القانون كما أنه يعاملهم معاملة قاسية ، بعد أن سمعت هذا غضبت ولكن ماذا أفعل أنا مجرد راكب ، ليس لى أى سلطان ، ولم أجد مفرا أن أهدئ من روعهم ليكونوا صابرين حتى يأذن الله بالحل . وانصرفوا شاكرين وفى اليوم التالى جاء ضابط كان قد أحيل إلى الاستدعاء وجلس بجوارى وقال أنا أتحدى من يلاعبنى الشطرنج ، فإذا فاز على فسأقدم له مكأفاة وبالفعل تقدم إليه مجموعة من الشباب ولعبوا معه وهزمهم واحدا إثر واحد ، فانفعلت أنا ودعيته أن ينازلنى وأن يكون النزال أمام بقية الركاب ، فقال فى ثورة حتى الشطرنج ، لا تريدنى أن نلعبه؟ ، فقلت يا رجل أنا أريد أن تلاعبنى فإذا غلبتك لا أريد شيئا ، وإذا غلبتنى أدفع لك المكأفاة التى تحددها ، وبالفعل تحدانى الرجل فى غلظة انظروا سأفتك بهذا الذى تظنونه مركز قوة ، ولم أفهم ما يعنيه الرجل وقتها ، ساعات ، وانتهى المتحدى بهزيمته وانتصارى قال الرجل : آه لهذا اختاروك أنت بالذات فأنت شاب ذكى، وقدم لى تذكارا بهذه المناسبة ؛ اعترافا منه بالهزيمة وسعدت بالتذكار، واحتفظت به إلى الآن ، وعندما دخلنا نابولى أنذرنا القبطان بأن بهذه المدينة لصوص ، وإننا يجب أن نكون فى حرص بالغ ونحن نهبط إلى الميناء ، وبالفعل عندما دخلت غرفتى لكى أحمل حقيبتى إلى الخارج إذ بى أجد مجموعة من

البلطجية يحيطون بى ويطالبوننى بما أحمله من نقود ، وسجائر ، وأحاطونى وفى أيديهم أشياء تشبه المطاوى ، ولقد أربكنى الخوف ففزعت فزعا شديدا وصحت صيحة خوف ، ذكرتنى بما فعلته عندما كنت صغير السن أذهب إلى مسجد بلدتنا قبيل الفجر ، وذات ليلة فى إحدى الحوارى المظلمة حولى مجموعة من الكلاب التى تبرق عيونها فى شراسة ، يصدرون فحيحا مخيفا صحت فى فزع ، فإذا بتلك الكلاب تنفض من حولى ، ذكرنى هذا الحادث بمجرمى نابولى الذين انفضوا من حولى كالكلاب ، وحملت حقيبتى بسرعة وذهبت إلى سلم السفينة وهبطت إلى الميناء وأنا أكاد أرتعش خوفا وقلت سأركب القطار وأتوجه فورا إلى روما ، مباشرة ولا داعى للبقاء فى نابولى مع أن البرنامج أن أظل ثلاثة أيام بها ، لكى أشاهد معالمها ثم ألحق بالمعهد التابع للأمم المتحدة فى موعد معين وكان معى زميل مصرى لم أقابله على الباخرة ، فاقترب وعرفنى بنفسه . فقلت : يا أخى أنت تركب الباخرة نفسها وتتجه الاتجاه نفسه فلماذا لا نتقابل ؟ قال : هو أنا مجنون عشان أقابلك على الباخرة ؟ الآن نحن فى بلد حر وديمقراطى وبعيد عن مصر فهل تشى بى لدى المخابرات ؟ فقلت فى دهشة ماذا تقول ؟ قال ألا تعمل لدى المخابرات ؟ قلت أنا مجرد موظف برعاية الشباب ولا أملك أية سلطة ، فحكى لى قصة الواقعة التى حدثت

بالجوازات ، والتى نقلها الراكبان ، وحذروا الجميع من التعامل معى لأننى مرسل لمراقبة المصريين فى الخارج ، وكنا فى ذلك الزمن الذى يمكن أن يشى الأخ بأخيه ، والأم بابنها وبزوجها ، ولا أحد يتورع أن يفعل ذلك فى سبيل مصلحته الشخصية ، وللأسف الشديد كان هذا واقعا نعيشه ! وأقسمت أننى لست كذلك وأن هذه الواقعة مجرد حيلة لكى أحصل على التأشيرة فعلتها من باب العفوية التى تصدر من شاب أحمق وضحك وضحكنا ، وبدأنا نتعرف على مدينة نابولى بعد أن سكنا فى أحد الفنادق الصغيرة عند سيدة كانت تحذرنا من استخدام المياه وندفع فى مقابل دخولنا دورة المياه ما يقرب من مائتى ليرة ، أى : عشرين قرشا فإذا استعملنا الدش دفعنا خمسمائة ليرة ، أى : خمسين قرشا ، وانطلقنا إلى الشوارع نتسكع طوال الأيام الثلاثة الباقيات على دخول المعهد .

وطوال ترحالى فى أوربا التى تعددت بعد ذلك وكثرت ، وتنقلت من إيطاليا إلى رومانيا إلى أسبانيا إلى كل ربوع أوربا فى فترات متقاربة أو متعاقبة أو متباعدة ، وذهبت إلى روما وتفرغنا للدرس ولكن ما أسعدنى عندما كنا نخرج فى رحلات نحددها مع بقية الأصدقاء من باكستان والهند وجنوب أفريقيا ولأن المعهد كان يضم من كل بلد فرد أو اثنين وكنت أتباهى بأننى مصرى ، دارت الأيام ، مع برنامج المعهد الذى أعد لنا دراسة

عن القادة ، كنت أخرج مع زملائى فى رحلات نزور بلدان أوروبا بقروش قليلة ، وقد كانت مصروفات البعثة قليلة ، نحاول أنا وزميلى الادخار ؛ لكى ندفع الاشتراك فى الرحلات المتوالية كل أسبوع إلى بلاد أوروبا ، وفى نفس الوقت يجب أن نظهر بمظهر جيد حتى لا يسخر منا الوفد الإسرائيلى المكون من ثلاثة يبذرون وينفقون كما يشاءون وكان المعهد ، مقام باستاد روما حيث الملاعب وحيث المدرجات وحيث قاعات فسيحة فكنا نستغل كل شىء لكى نقيم يوما لمصر كل شهر ، وكان يوما مشهودا نصنع فيه الفول والبصارة ونرقص ونغنى ونقيم الحفلات ونكسب ، وقد حصلنا على ست جوائز تقريبا من ذلك المعهد ، قدمها لنا سكرتير عام الأمم المتحدة فى ذلك الوقت ، أفادتنى الرحلة الأولى إلى أوروبا ؛ لأننى رأيت الأندلس وبكيت كثيرا على مجد زال وإن ظلت آثاره باقية ، وقابلنا فى إحدى الرحلات أستاذا كان يعيش فى بولاق وحدثنا عن مصر وبكى عندما تذكر مصر وكان متأثرا جدا لأنهم استغنوا عنه فى العمل بمصر . . وكل أمنيته أن يعود مرة أخرى . . واصطحبنا إلى بيته وأقام لنا حفل شاى . سعدنا . . . . أيامها لم يكن الشباب فى أوروبا يعرف كلمة (مصر) ولكنهم كانوا يسعدون عندما نقول إننا من بلد (ناصر) فيهتفون بالإيطالية يعيش ناصر . . . !

أدارت ابنتى مفتاح التليفزيون وكانت البنات يرقصن

وشعورهن مرسلة تتماوج وترقص والمغنى الخليجى صوته جميل ، وإن لم أفهم كلماته . راقبت شعور البنات ، الشعر أسود فاحم ثقيل طويل ، وبشرة الوجه سمراء تذكرك ببطلات الأفلام الهندية ، بل أن (الرتم) يقترب إلى الموسيقى الهندية ، ثم ظهرت فتاة صغيرة وهى تمسك فرسا وتسحبه نحو الشاطئ جرى خلفها المطرب الضخم وهو لا يزال يغنى عن لوعة الفراق . ضحكت لأن هذه الفتاة التى لا يقترب عمرها من الرابعة عشرة . تصيب هذا الفحل الحيرة والألم ، وهو يغنى و هى تداعب فرسها الذى تغوص قدماه فى ماء الخليج . و قلت هذا هو الحال ، فتاة فى عمر الأحلام تصيب رجلا فحلا فى مقتل ، دخلت (چولييت) وهى عراقية الأصل تعمل فى حسابات المستشفى لا تزال تحمل سمات الأنثى وإن تعدت الخمسين ، قالت فى دلال أنثوى : ما رأيك فى ثوبى ؟ حاولت أن أرفع رأسى متأملا ، وقلت فى نفاق ، يا الله . . ياله من ثوب جميل ، لا بد من أنه مرتفع الثمن وأعتقد أنه كلفك الكثير ، ضحكت فى ميوعة وقالت بل عدة جنيهات فقط ، اشتريته منذ أعوام من أحد الباعة بالأسواق الأسبوعية ، الأسواق الأسبوعية تقام فى شوارع ضواحى لندن ، لكل حى أو منطقة يوم فى الأسبوع ، حيث يباع كل شىء بداية من الملابس الفاخرة إلى الأطعمة وبأسعار زهيدة للغاية ، سوق الكانتو فى بولاق ، فى

دبى يسمى (سوق المعيز) ، وفى بودابست (سوق الخيش) حيث إن السوق مغطى بالخيش ويباع فيه أشياء تافهة للغاية وجميعها واردة من الصين ماكينات حلاقة عمرها عشرات السنين ، أمشاط تشبه تلك التى كانت تباع فى سوق بلدنا منذ خمسين عاما ، أسماك السردين بالبصل ، كل سمكة بما يساوى جنيها مصريا ، تأكلها مرة واحدة ثم تتلوها بحفنة بصل مبشور ، هكذا الشوارع ، وفى موسكو ، وقبل الغزو الأمريكى كانت الصور العارية ، والدولارات ، والساعات ، تباع فى الشوارع المظلمة ، وبعد الغزو الأمريكى أصبح كل شىء فى موسكو للبيع بداية من الأولاد والبنات إلى نياشين القيصر والقادة والعلماء ، ورأيت فى (لاهاى) التى تسمى (هيج) الحشيش يباع على أرصفة الشارع ، فى المقاهى وعند باعة السجائر واللبان ، وفى قبرص يباع كل شىء فى السوق التركى القديم ، فى كل عواصم العالم هناك ودائما سوق (للكانتو) أو سوق (للحراج) مثل الذى يوجد فى الرياض ، وفى ميدان (البطحاء بالرياض) يباع الرجال كأيد عاملة رخيصة لا حقوق لها إنما عليها أن تعمل وتحصل على القليل ، وهنا فى لندن تقام الأسواق فى الشوارع ، وما يباع فى المحلات الكبيرة يباع فيها ولكن بثمن زهيد لا يقارن ، رأيت الرجل الفحل يغنى وهو يكاد يبكى فقد فرت منه الفتاة الصغيرة بفرسها ، لابد من أنها ذهبت إلى المدرسة وتركته

وحيدا يغنى قلت لجولييت ، ساعدينى فى تناول طعام الإفطار ، لم أكن أقدر على فتح علبة (الكورن فليكس) أو كسر البيضة ، ولا يزال الوقت مبكرا على حضور ابنتى ، قالت إنهم فى العراق لا يجدون الطعام ، ولم أذق الأكل على الرغم من أنها قامت بإعداده بطريقة يسهل تناولها بيدى اليسرى ، جاءت ابنتى وقلت لها اغلقى التليفزيون فقد تعبت من أغانيه الهابطة .. أخذتنى بمعاونة الممرضات إلى الحمام، وضعونى فى حوض الحمام وبدأ الماء الساخن الممزوج بالمطهرات أو المطهرات التى مزجوها بالماء يتدفق حول جسدى كل شىء بحساب ، الصدر مفتوح وعليه غطاء من البلاستيك ، وكذلك اليد اليمنى ، والأجهزة المغروزة فى جسدى .. أنا أحب عجول البقر الصغيرة التى تذكرك بالأطفال دفعنى العجل الصغير إلى النهر وسقطت فى دوامة ، صارت الدنيا من حولى سوداء ، هبطت وهبطت إلى الأعماق والظلمة تزداد ، تزداد ، بل لم يدفعتنى العجل الصغير ، دفعنى (وسبى) جراح القلب ، بجامعة أكسفورد إلى الظلام ثم صارت الدنيا من حولى ظلاما فى ظلام ، دفعنى استيڤين وسبى ذلك الجراح بجامعة أكسفورد ، إلى الظلام ورأيت لا شىء ، دوائر من السواد دوائر من العدم ، بل لم يدفعنى وسبى بل دفعنى القطار إلى أسفل ، الدنيا ظلام ، أحاطت بى الكلاب فجأة ، كنت ذاهبا لصلاة الفجر رأيتهم من

حولى متوحشين ، عيونهم حمراء تبرق فى الظلمة وعواؤهم يطن فى أذنى ، أستدير أرى المزيد من الكلاب تحوطنى ، أدخل دوامة الظلام أدخل دوامة العدم ، صحت صيحة أنكرتها نفسى ، لست أدرى كيف ذهبوا ! ، تمالكت نفسى ، شعرت بالخوف ، لم أكن أشعر به من قبل ، واصلت السير إلى المسجد صلى الأمام بنا جماعة فأخذت أبكى والناس يظنون أننى متأثر بالصلاة لا أدرى إذا كنت أنا كذلك أم أن بكائى كان من الخوف ، لم يبق على امتحان التوجيهية أو ما يسمى الآن بالثانوية العامة إلا أسبوع واحد ، يا للقسوة ، يجب أن أنجح ، إذا لم أفز فى هذا الامتحان فإن مصيرى هنا ، سأظل معلق بإرادة أبى الذى يريدنى بجواره فى تجارته لن أصل إلى مبتغاى ، لن أصل إلى تحقيق آمالى وهوايتى فى الأدب ، كنت نائما فى انتظار موعد السحور قبيل الفجر ، فإذا بثعبان هائل يقترب منى فاتحا فاه و أشعر بفحيحه بجوار أذنى ، انتفضت صائحا فإذا بأمى تأخذنى بين أحضانها . . يا ولدى ، يا مسكين ماذا بك ؟ إنه الإجهاد يا ولدى ، أنت تعمل طوال الليل والنهار بجوار أبيك ، ذهبت إلى المسجد ، أسرعت لكى أملأ الخزان ، رأيت حياتى بين الثعبان والعجل الصغير ، كلاب الظلمة ، ومستر استيفين ويسبى والقطار أزمنة مختلفة ولكنها تكاد تكون لحظة واحدة ، اندفعت نحو الخزان بكل قوتى ، ملأت الخزان فى دقائق، توضأت

وصليت ، صليت وبكيت ، وبكيت وصليت ، ثم ذهبت إلى النهر نفس النهر الذى دفعنى إليه العجل الصغير ، نفس النهر الذى عبرته وأنا متعلق بآخر قطعة من القطار ، يعبر الكوبرى الذى يفصل بلدتنا عن مدنية بنها ، انزلقت ، فشلت يداى فى الإمساك بتلك القطعة الخشبية ، سقطت فى النهر سقطت فى الفشل وسقطت فى براثن أبى لن أذهب إلى مكان آخر ، سأظل حبيس تلك الأدراج والأجولة أبيع الفلفل الأسود ، وأشترى القطن ، وأبيع الزيت ، وأشترى الفول والعدس والعسل الأسود ، أبيع الصابون ، أتعامل بكم هذا وما الباقى ، وسعر المحصول . تقدمت منى (لولا) لكى تزيد من سرعة الحقن الآلى ، يبدو أنها غير مستريحة لما تراه ودفعت التسجيل بعيدا ، ولكنى عدت وجلست أذاكر سبعة أيام لكى أحصل فى نهايتها على صداع فى رأسى وضعف بعينى اليسرى ، وذهبت إلى طبيب ومن الطبيب إلى آخر وزادت الظلمة ، ازدادت الظلمة من حولى ، لم أعد أرى شيئا ، أسمع الأصوات ، يتهامسون يتحدثون ، وأسمع كلمات الشفقة ، وكل من حولى يتحدث عن الرحمة ، صحت فيهم لست أعمى ، أقسم أننى أرى ، أقسم أننى أفهم ، لا تحاولوا خداعى ، تتهامسون من حولى وأنا أسمع فحيحكم ، همسكم الدائم ، مؤامراتكم ، ولكننى أتغابى ، أظل فى الظلمة بإرادتى ، رأيتها عندما كنت فى الرابعة ، ورأيتها

عندما قذفوا بى من مكتبى ، ووصمونى بكل الجرائم والفواحش والسلب الإنسانى ، وأنا الذى بنيت وشيدت وأقمت هذا الصرح ، يتقولون عنى ، يثيرون الزوابع من حولى حتى صارت الدنيا ظلاما ، ولكن ماهى بظلام ، ثرت وهددت وقررت ، يجب أن أخرج من المستشفى ، يجب أن أخرج من هذه المستشفى ، ملعونة يا أكسفورد ، أشعر بأن موتى محقق ، إذ يقيدوننا فى ذلك السرير ، وفى تلك الحجرة ذات الرائحة الكريهة ، وهذا (الكوتش) الذى يطن بجوارى و تصورت أننى أسمع أذان الفجر ، كل لحظة أستمع إلى أذان الفجر ، أتلفت حولى من أين يصدر هذا الأذان ؟! هنا ملحدون ، الدين هنا ليس له مكان ، النفعية هى التى يتعاملون بها ، بيض الوجوه سود القلوب ، السواد فى قلوبهم والبياض فى وجوهم ، ولا يأبهون بشىء ، أنت مجرد حالة مرضيه ، رجل كسول لا تفعل لنفسك شيئا ، يطن الميكروب فى جسدى يأكله أكلا ، أسير مهددا بالموت ، لكن لا شىء يحدث ، أنت كسول ، أنت تدعى المرض بين معامل تبدو شاهقة وأطباء يحملون أوسمة عالمية وأسماء رنانة ، آلاف من الممرضات بيض الوجوه سود القلوب ، صحت صيحة الكلاب ، وصيحة القطار ، وصيحة النهر ، و تجمعت كل الصيحات فى صيحة واحدة ، وقررت الرحيل ، و مهما كان الثمن ، فى الفجر ارتديت ملابسى و كانت

ابنتى بعيدة فى غرفتها ، وما إن جاءت أول سيدة إلى غرفتى وهى التى تحمل فى العادة إفطار الصباح حتى طلبت منها أن تتصل بأخى ، فى هذا الرقم ، أخى (جلال) ، ونعم الأخ ونعم الصديق ، قلبه أبيض ، ووجهه أسمر يحب كل الناس ويقدم يد العون إلى كل من يعرفه ، جاءنى صوته ضاحكا مبتسما كان قد اعترض على دخولى تلك المستشفى ، طلب بإلحاح شديد عندما جئت إلى هنا أن أغادرها ، إلى صديقه البروفيسور مجدى يعقوب ولكن كيف أغادرها والأوراق والتوصيات التى معى تصمم وتصر على (استيڤين ويسبى) هذا ، العبقرى كما يقولون ، والآن يا جلال أنقذنى ، أدركنى يا أخى ، وبكيت ، قلت له ، فى الساعة العاشرة يجب أن أكون خارج المبنى ، المسمى بجامعة أكسفورد . قال : حسنا سأفعل ، بعد قليل جاءنى عاطف زميلى فى العمل ، نظر نحوى فى هلع وصاح ، جئت إليك زائرا لا أدرى بأن حالتك ساءت إلى هذه الدرجة ، قلت يجب أن أخرج من هنا ، جاء الأطباء يقدمون آمالا ووعودا سوف نعطيك ، أنتم أغبياء أيها الإنجليز كتب زملائى الأدباء فى أوروبا يتندرون ويسخرون من أبناء الخليج يصفونهم بأنهم يسيرون وراء اللذات ، وأنهم متخلفون هؤلاء لم يروا الجانب الآخر ، لم يكشفوا عن قلوب الناس ، دخلت بيوتا بالرياض ، بيوتا كثيرة ورأيت الطيبة بعينها ، بل رأيت الخير كله والفعل

الحسن وصفاء الروح ، رأيت كيف يكون الوجه أبيض والقلب أبيض واليد بيضاء والفعل أبيض ، لكن هنا سواء فى ألمانيا أم فى إيطاليا أم فى إنجلترا حيث كانت إقامتى طويلة فى تلك البلاد ، رأيت الغباء ، والغباء الميرى كما نقول عنه فى بلدتنا ، غباء لا يمكن وصفه بالغباء التام أو كما نقول الجهل المركب ، أى إنهم لا يعرفون أنهم جهلة ، قلة منهم تعمل فى التكنولوچيا فإذا أردت أن تدخل أحد المعامل فسوف تجد أن وراء كل مختبر أو كل جهاز هندى أو باكستانى أو مصرى عبقريًا قادمًا من الشرق جاء من الفلبيين طالبا العلم ، فإذا به العبقرى المخترع ، وأما الرجل الأبيض فإنه فى الصورة يظهر وعلى شاشات التليفزيون ثم يقولون ها هى ذى الحضارة الغربية قد طورت نفسها وبدأت فى نزع سترتها وهم غافلون عن تلك الأيدى السمراء القادمة من الفلبين وإندونيسيا وماليزيا وكوريا وهونج كونج والصين وأفغانستان والهند وباكستان ومصر وبنجلاديش وتونس وليبيا والمغرب ، كل هؤلاء زحفوا إلى هنا ، وفى عيد الزنج يقفون بالميادين ليلة كاملة يرقصون ، فى اليوم التالى ترى احتفالا رائعا يقولون نحن الأغلبية ، يكونون تحت حراسة الجنس الأبيض ، وجوهم بيضاء ترتدى حللاً حمراء تمشى وكأنها كائنات جرثومية (استيڤين ويسبى) طويل أبيض الوجه ذو ابتسامة يخدعك بها كالأفعى ، مثل تلك الأفعى التى هاجمتنى عندما اقترب موعد

امتحان التوجيهية ، اقترب منى فى تسلل شعر بأنه أمام رجل من الممكن أن يستفيد منه إعلاميا ، شرح لى كل شىء ، شرح لى أنه عبقرى وأنه الأفضل وأنه ذو علم غزير أخذ يتباهى بعلمه ، انسقت له ، شعرت بأنى بالفعل أمام عبقرى فذ ، غلبنى الوهم فى هذه المرة وكنت غبيا بالفعل ولست متغابيا أنكر جلال كل هذا ، صاح أن أحول أوراقى إلى المستشفى الذى أجريت فيه أول عملية لى منذ أربعة أعوام هناك يعرفون أدق أسرار قلبى ، فلماذا أذهب إلى غيرها ؟! توسل ، ضحكت ، أرسل إلى الدكتور مجدى أوراقى ، إجابة الأخير بأنه يسعده أن يقابلنى وأن يقرر بعد ذلك ماذا يفعل ، أخبرنى فى اليوم التالى ، قلت سأجرب مهما يكن ، سأجرب فى قلبى يا للأسف بعد خمسين عاما صرت فيه بالفعل غبيا من كثرة ما رددته عن غبائى ، سقطت فى هوة الغباء ، الغباء الأسود ، أسلمت نفسى ، أفقت من العملية الأولى ، ما كدت أفيق ، وما كدت أتحرك حتى شعرت بأننى لست أنا ، أنا رجل ضعيف ، لا أستطيع القيام أو القعود ، لا أستطيع الكلام ، صوتى اختفى ، أعصابى تهتز ، يدى مشلولة بعد أيام ستكون فى أحسن حال ، بعد أيام نقلونى إلى (السيستر) مسرح العمليات ، وقاموا مرة أخرى بإجراء عملية أخرى ، ورأيت السواد والظلام مرة أخرى ، أفقت منها على وجه ابنتى تتحسس صدرى المربوط ، تبكى ، نظرت إليها

وابتسمت ، قالت أنت بخير يا أبى ؟ لقد انتهت العملية الثانية بسلام . الثانية ؟ خلال عشرة أيام عمليتان فى قلبى ، حاولت أن أتماسك ، حاولت أن أبذل قصارى جهدى لكى أشرح لتلك الطبيبة المتآمرة إنها غبية وإننى قررت الخروج من المستشفى : بعد شهر كامل وأنا أعانى من الهزال والضعف والشلل وسوء المعاملة وانعدام الصوت أفقت على صوت عاطف وهو يقول ، لقد قررنا نقلك إلى مستشفى أخرى أعترف أن جلال وعاطف والسفير والقنصل ومدير المكتب الطبى جميعا تكتلوا فإذا بهم ينجحون فى نقلى وفقا لإرادتى إلى هنا (الأولد كورت) وقفزت من الدوامة السوداء ، الآن أنا محاط بوجوه صفراء وقلوب بيضاء ، باندبا قلبه أبيض وجهه أسمر جاء من الهند ليتعلم فإذا به يصبح طبيبا مساعدا لأشهر أطباء القلب ، يشرف على علاجى بصبر ، ودود ، يجالسنى ، يتحدث معى ، يضحك يبتسم ، يقول لى : يجب أن تتماسك بإيمانك بالله ، حاول أن تقاتل وقتالك يجب أن يكون بالدعاء لله والصبر والصلاة ، هذا الهندى ، لا دين له ولكنه يحب الاستماع إلى القرآن ، دائما يأتى ويجلس ويرانى أستمع إلى القرآن الكريم ويصمت ويسألنى لمن هذا الصوت ؟ يعرف أننى كاتب ويتعامل معى برقة شديدة ، وبأدب جم ، يخبرنى بالأشياء التى تؤرقه أحيانا أضحك ، يقول إنك تهون كل الأمور ، إرادتك يجب أن تكون هى البداية ،

لا أستطيع أن أعطيك علاجا دون إرادتك ، تريد أنت الشفاء والشفاء من عند الله ويجب أن تطلبه من الله سبحانه وتعالى ، واسجد لله وألح فى دعائك ، بالله يا خالق كل شىء يا من يسبح لك الجماد والنبات والبشر والملائكة ، ما من شىء إلا يسبح بحمدك ، اشفنى ، عافنى ، أعطنى الصبر وقوة الاحتمال ، يا رب أسجد لك تضرعا ، أستغيث وأحمدك وأشكرك على ما أنعمت به على من نعم ، لا أستطيع أن أحصيها وأستغيث بك ، من هذا الوباء ومن هذا الداء وأن تعيدنى إلى بيتى وإلى أسرتى ، ولا أجد نفسى راقدا فى ثرى مدينة لا تؤمن بك ، يا الله ، يا الله ، يا الله أنت أنت ربى وخالقى وأنا عبدك وابن عبدك ، نسجد لك ، نلتمس منك الشفاء ونلتمس منك الرضا ونتقدم لك بالشكر الذى ترضاه والحمد الذى ألهمتنا إياه ، بك نهتدى وعلى دربك نسير فأنت الخالق وأنت المنان وأنت المغيث تبت إليك ، أعلم أن خطاياى كثيرة ، وأن إثمى كبير ولكنى بشر ، آدم ، لقد ارتكب آدم معصيته الكبرى ولكنك ألهمته الدعاء فتبت عليه وأعطيته زوجه وأعطيته الكعبة وأعطيته جنة الأرض ثم أعطيته حرية الإرادة فى أن يكون عبدا مطيعا أو يكون عبدا عاصيا والملائكة يقولون لك كيف تخلق فيها من يفسدها ؟ لكنك تعلم أن من يفسدها هذا من خلقك وأنه أفسدها أيضا بإرادتك ، ولولا أنت ما اهتدى ولولا هدايتك له

ما اهتدى ، يا الله ، علم القرآن ، الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، يا الله ، كلماتك إعجاز ، شذى عطرى ينفد ، فى كل مرة أستمع إلى القرآن أكتشف المزيد من المعرفة وأكتشف أن هناك علما لم أعلمه رغم سنواتى كلها ، يا الله لا أمل من سماع القرآن ، الرحمن تملأنى ، تأخذنى ، أبكى ، أترنح ، أزداد قوة ، يا منان أنت قلت عن نفسك الرحمن ، ورحيم وغفور وتواب ، وأنا عبدك الآثم ، خطاياى كثيرة أخجل منها أبكى أتوسل إليك أن تغفرها لى ، وأن تمسحها عنى ، أن تزيل آثارها وأن يكون مرضى هذا وآلامى تلك أضحية من أجل غفرانك ، إذا كان هذا كذلك فيا ربى أطل مرضى حتى أنال المغفرة الكاملة ، أنت أنت الله أنت الخالق ولا شىء بعد ذلك ، كل شىء يزول ، يذهب ، الحياة تذهب والمال والبنون والجاه والسلطان والشهرة ، لا شىء يبقى ، قبض الريح ولكن الفعل ، الفعل هو الذى يبقى ، لا المال ولا السلطة ولا الشهرة إنما يبقى فعلك ، إذا كان حسنا سيبقى معك وتؤجر أو تدخل به النار ، يا للهول ، كم من أفعال ارتكبتها ، وكم من أفعال لا أدرى إذا ما كانت حسنة أو سيئة ، لكن أعلم أننى أخطأت وأننى ألتمس التوبة وألتمس المغفرة أنا مريض وقد قلت إنك بجوار عبدك المريض ، هأنذا أدعوك لكى تغفر واشفنى وتقبل منى الدعاء وأجزى كل من ساعدنى وكل من أنقذنى وكل من تسبب لى فى

تلك المحنة ، الله أكبر ، الله أكبر كبيرا و سبحانك يا رب ، سبحانك اللهم ، سبحانك اللهم ، يا الله يا من أرشدنى للكلمات يا الله ، أنا مخطئ ألتمس العفو من الإيمان بالله ، إنه شىء ثابت ، الحمد الله على قدرى ، آمنت بالله ، الحمد لله تبينت أن الحياة للإنسان تدور بها الدوائر ، من مجموعة هذه الدوائر تتكون الحياة ، فى الصباح قصصت على ابنتى مجموعة من القصص حول علاقتى بأبى ، لا أدرى لماذا أقص عليها كل هذه القصص ، ولكن ماذا أفعل ؟ أكتب لكم رواية هى حفريات داخل الزمن ما كنت أتصور أن أكتبها فى يوم من الأيام ، لا شك فى أن هناك العديد من القصص فى حياتى ولكنى لست مهيئا نفسيا ولا جسديا لكى أقص عليكم كل شىء كما يفعل الروائيون العظماء قد تأثرت بتوفيق الحكيم ، صادقته طوال خمسة وعشرين عاما كنت أجلس إليه طوال وجوده فى الأهرام ، نتحدث معا ونجلس معا ونأكل معا ونشرب معا الشاى والقهوة و له معى نوادر كثيرة ، حتى أننى ألفت كتابا حو له وصار الجدل بيننا : هل أكتب توفيق الحكيم صديقى ؟ وَأَصرَّ هُوَ أن أكتب توفيق الحكيم حبيبى ، وصار جدل بيننا بين كلمتى صديقى لأنها أفضل ، صديقك من صَدَقَك ، أما الحبيب فهذا لفظ منفرد يجعلك تشعر بأنك تملك الآخر تملكه ملكا خاصا لنفسك ، تعطيه من نفسك الكثير وتريد أن تأخذ مثله ، ويصمم أن أكتب

حبيبى ويحاول إقناعى ويترجم اللفظ إلى عدة لغات ، ولم يظهر كتابى حتى الآن وظل حبيس الأدراج وكنت قد انتويت أن أنشر جانب من حواراته معى التى لم ينشرها هو فى كتاب ، حوارات خاصة جدا تخص الحياة والموت وفلسفة الطعام وكيف يأكل ، ومن نوادر ذلك أنه فى أحد الأيام جاء فرحا ومنشرح الصدر وكنت أحاول الهروب منه بالدخول مباشرة إلى مكتبى دون أن يرانى لكى أنجز أعمالى ؛ لأن المكوث معناه إننى سوف أظل حتى انصرافه فى الثانية إلا الحديث والحوار والمناكفة من جانبى ومن جانبه ، وكنا دائما فى خصام ظاهرى لكن فى وئام باطن ، وفى عراك متصل ولكن فى القلب ما يجعلك تشعر دائما بأن أمامك أبا حقيقيا تريد أن تكسبه إلى صفك ، وخلال هذا العراك يخرج (نوتته السوادء) التى يسجل فيها ما يراه أو ما يسمعه أو ما يطلع عليه فى الصحف أو المجلات أو الكتب الفرنسية التى تصل إليه بشكل دائم ومستمر ، فإذا أعجبه نص أو جملة أو مصطلح راح يسجلها فى النوتة السوداء حتى استطاع أن يمتلك عشرين نوته لا أدرى حتى الآن ما مصيرها ، فى ذلك اليوم نادانى وقال أنا أريد أن أعرف من اخترع تلك الشوربة العجيبة ؟ وكانت الشوربة التى يتحدث عنها هى ذى قوالب الشوربة التى تباع فى المحلات عندما توضع فى ماء ساخن تتحول إلى شوربة ساخنة بدلا من سلق فرخه ، أو كمية من اللحم ، فقال قالب تشتريه من

البقال بقرش واحد فتضعه فى حلة كبيرة فإذا بك أمام إناء كامل من شوربة الدجاج الساخن ، أنا أريد أن أهنئ مخترع هذه الشوربة وأن أعطيه جنيها كاملا ، وراح يعد محاسن هذه الشوربة فهى توفر عليه ثمن قطعة اللحم أو الدجاج التى كان يشتريها لكى يشرب شوربتها طوال الأسبوع ، لهذا فهو سعيد جدا لأن طبق الشوربة لا يكلفه إلا قرش واحد ! كان فى ذلك الوقت يجمع ملخصا لتفسير الطبرى وقد استحوذ عليه هذا الاهتمام الدينى وكان مشغولا به وكنت أراجع معه بعض النصوص ، بعد ذلك بأشهر كنت قد نسيت الشوربة قال لقد غادر الطباخ منزلنا ؟ قال وهل تحتاج الشوربة ذات القالب إلى طباخ ، ماء ساخن تضع فيه قالب الشوربة لهذا زهق الطباخ وانصرف من عندى ، وهذا يوم سعد لى لأننى سأوفر أجرة الطباخ ، قلت له وهل ستظل تأكل الشوربة ، قال آأكل الجبن من عند البقال ، والشوربة من عند البقال ، وكان من عادة توفيق الحكيم أن ينام بعد صلاة المغرب ، وكانت تلك حجته دوما فى عدم حضور أى احتفال رسمى حتى أنه حصل على قلادة النيل من جمال عبد الناصر ، ثم من أنور السادات ولكنه ظل يعتذر عن الحضور لاستلامها لأنه ينام من المغرب ، ولم يتسلم هذه الجائزة الكبرى التى لا تمنح إلا للملوك والرؤساء ، وظل مقاطعا الاحتفالات والندوات وأية تجمعات شعبية طوال ما يقرب من ثلاثين عاما من

عمره فى الفترة الأخيرة ، وشاهدت معارك كلامية فى مكتبه حول هذا النمط الحياتى ذاته ، كان عنيدا ولا يقبل المساومة فى رأى قاله أو قرار اتخذه ، فلم أبد ذلك الشخص الطيب الذى يفرط فى حقوقه أو يرفض واجباته ، مسألة البخل هذه ظلت عالقة فى رقبته وذقت أنا منها الويل وليس مجرد حجة أو مجرد هواية اختارها هو لتكتب عنه الصحف إنما هى حقيقة واقعة ، قد كنت أدرس مادة اللهجة العامية المصرية لطلاب الجامعة الأمريكية الذين يدرسون درجة الماجستير فى الدراما جاءوا إلى مصر لدراسة هذه اللهجة ، وقدمت إليهم كتاب الورطة لكى يكون مجال الدراسة سألنى الطلاب : لماذا لا نجلس مع توفيق الحكيم ، نحاوره فقد أعجبتنا المسرحية ؟ وجئت إليه لأخبره بأن الطلاب يريدون الحديث والتحاور معه ، فقال :لكن المهم سيشربون الشاى أو القهوة أو المياه الغازية ، قلت : لا بأس إنهم حوالى الثلاثين ، قال : آه ومن يدفع ثمن القهوة والشاى وبقية المشاريب ؟ قلت له لا تخف أدفع أنا قال : ولماذا تدفع أنت وأنت تؤدى واجبك وعملك ؟ قلت : وهل نتركهم يدفعون مثلا ؟ قال هذا أمر شائك ، أنا أريد المقابلة ولكن أعتذر عن دفع المشاريب قلت : سوف أدفع أنا قال : لا أنا ولا أنت إنهم مستفيدون منك ومنى ، قلت يتحملها الأهرام ، قال : وما ذنب الأهرام ؟ ألا يكفى أنهم يجلسون على المقاعد يستهلكون إضاءة

ويستهلكون وقتا يملكه الأهرام ، فقلت : ما رأيك قال : يدفع (ثروت أباظة) ، قلت: وما ذنب ثروت أباظة ؟ قال رجل كريم ، بالفعل أخذ موافقة ثروت أباظة على أن يقوم ثروت بدفع المبلغ الذى سوف ينتج عن شرب الضيوف القهوة فى ذلك اليوم ، فلما حضروا وأخذ كل منهم بالفعل مرة فنجانا من القهوة وثانية شايا وثالثا مشروبا باردا ، بل بعضهم أخذ عدة مشاريب وبالفعل بلغت التكلفة مبلغا كبيرا بالنسبة لتوفيق الحكيم وبالنسبة لى أيضا ودفع ثروت أباظة ، .. عندما قابلنا الرئيس أنور السادات اشتكى له وقال : تصور يا سيادة الرئيس إن ثروت أباظة يريدنى أن أدفع الاشتراك السنوى لاتحاد الكتاب ؟ فقال له السيد الرئيس رحمه الله ألست رئيسا للاتحاد ؟ قال : يا سيادة الرئيس ألا يكفى أننى رئيس الاتحاد ؟ فتبسم الرئيس أنور السادات – رحمه الله – وقال مداعبا لتوفيق الحكيم يا أستاذنا خلِّ عنك وأدفع أنا الاشتراك ، فتبسم توفيق الحكيم وقال : يكفى أن تصدر قرارا جمهوريا بوقف اشتراكى فلا يدفعه ثروت ولا غيره ، توفيق الحكيم كان لا يأكل إلا ثمرة واحدة من أية فاكهة تقدم له ويقول أية ثمرة ثانية سيكون طعمها مكررا فلا داعى إذن للتكرار ، وبالمثال فى كل أطعمته ، وعندما نشرت الصحف خبر فوزه فى عهد السادات بعد النصر بقلادة النيل قلنا له أنا و(يوسف جوهر) مداعبين ، أنت الآن صاحب وسام من أنبل

أوسمة مصر وأجلها ، ولا يحصل عليه إلا رؤساء الجمهوريات والملوك ، فقال ماذا تريدان ؟ فقلنا يجب أن تدعونا إلى الغداء ، وكان هذا منتهى الكرم بالنسبة له ، فقال حسنا هيا بنا ، وصعدنا إلى حيث يوجد المطعم الفخم بجريدة الأهرام وتغدينا اخترنا بعض أصنافه واختار هو بعض أصناف منها وأكلنا بشهية ونحن نتجاذب أطراف حديث نصفه أدبى ونصفه ضاحك مرح ، وجاء الجرسون مقدما له فاتورة الحساب وكان الأمر هينا لأن تكاليف الغداء فى ذلك الوقت لم تكن باهظة ، فقلنا له والآن يا صاحب الوسام الملكى يجب أن تدفع الحساب فأشار إلى يوسف جوهر باسما ادفع يا يوسف ، الذى قال : أنت الداعى وأنا المدعو فلماذا ادفع ؟ قال هل سمعت أو رأيت أو قرأت فى حياتك عن ملك فى جيبه نقود ؟ قال يوسف فى تردد لا لم أسمع ، قال أسمعت عن رئيس جمهورية أو ملك فى التاريخ كله يدفع بنفسه عندما يريد شراء شىء ما ؟ فتردد يوسف جوهر وقال أتتخيل أنه لم يحدث فهناك من يدفع حسابه مثلا ، فقال إذن ادفع عنى فأنا ملك ، مثل بقية الملوك ولا أحمل نقودا وأنت بالتأكيد تحمل نقودا ، دفع يوسف جوهر ثمن الغداء ونحن لا نكف عن الضحك كان هذا مقلبا كبيرا شربناه وكنا نظن أنه صادق فى دفع الحساب - رحمه الله - له معى نوادر كثيرة ، لا أريد أن أسترسل فى ذلك ومكانه كتابى عن توفيق الحكيم لأننى أريد الآن التحدث حول دوائرى

الخاصة ، فقلت إن توفيق الحكيم يشكل دائرة داخل وجدانى و قلت إن الحياة دوائر وإذا كانت الكلاب قد حوطت حولى منذرة بالغضب وسقطت من القطار وأنا أكاد أصطدم بعجلاته الحديدية ، وتوالت الأحداث ، تقترب من درجة الموت وإلى درجة الظلام بل ويشدنى ذلك الظلام الأسود وألجأ إلى الله ، الله المنجى واهب الحياة لا حول ولا قوة إلا بالله جاءت عندى فى الثانية صباحا ، كنا نستعد أنا وزميلى محمد لامتحان الليسانس ، جاءت ترتدى قميص نوم وروبا خفيفا كانت قريبتى ولكن لم أتصور أن تأتى هكذا إلى شقتى ومعى شاب آخر ، وارتبكت ولم أسألها ، ومن أين جاءت على هذا النحو ، ولماذا ؟ أدخلتها غرفتى بسرعة حتى لا يراها زميلى محمد وخاصة أننا كنا نجلس فى غرفته هو والشقة ذات غرفتين ، إحداهما لى والأخرى لزميلى وعدنا نذاكر ، وهو يتلمظ ويسأل ما هذا يا شيخ ؟ أخيرا انكشفت على حقيقتك ، الظاهر إنك زير نساء ، لا أريد أن أشرح له من هى ، ولا أريد أن أتكلم ولكن الأمر واضح وظاهر تماما ، فتاة على جانب كبير من الجمال تأتى بعد منتصف الليل وترتدى الروب فوق قميص نوم خفيف ، كيف جاءت ؟ كانت قريبتى وتقطن مع بعض أهلى فى منطقة بعيدة عن منزلى ، كيف جاءت ؟ حاولت أن أنساها ، أغلقت عليها باب غرفتى ، وظللت ساهرا حتى موعد ذهابنا إلى الجامعة وقد كان لدينا

موعد فى الثامنة مع الأستاذ المشرف على رسائلنا ، فخرجت من البيت دون أن أقول لها شيئا وأجلت الأمر إلى أن أعود من الجامعة ، فقد كانت هذه المقابلة مع الأستاذ لا تتم إلا مرة كل أسبوع وكان يكلفنا بأشياء خاصة بالبحث وعليها درجات واحتفظت بهدوئى وذهبت إلى الجامعة ، وعندما عدت وجدت قريبا لى أيضا يجلس فى الصالة ، ولما دخلت وجدتها تقف فى المطبخ وقد ارتدت إحدى بيچاماتى ، وقد طبخت لنا أرزا وملوخية ولحما وقالت بابتسامة رائقة : لقد طبخت لكما ، فقلت وكيف دخل هذا الرجل الشقة ؟قالت دق جرس الباب وفتحت له ودخل ، ذهبت إليه (رحمه الله) ، ماذا أتى بك ؟ قال : كنت مارا من هنا ورأيت أن آتى إليك ، قلت : أصدقنى القول جئت لتأخذ الفتاة ؟ قلت : يجب أن أعرف لماذا حضرت على هذا النحو؟ قالت بعض المعاذير المبهمة فهمت أنها تحبنى ، كان قريبى قد انصرف غاضبا وبحثت لها عن ملابس لكى ترتديها وأخذتها إلى حيث كانت تقيم ومضت الأيام ، ونسيت هذا الأمر ، ولكن ما حدث بعد ذلك كان مؤلما لقد فهم أبى أن زواجا قد تم ، بين هذه الفتاة وبينى بعد أن وشى بى قريبى ، وأصبح أبى يتصور أننى لن أنفع للجامعة وأننى قد تركت الليسانس دون الحصول عليه بشهادة قريبى وقد رآها وهى مرتدية بيچامة وتطبخ لى الطعام ، معناها أننى قد تزوجتها جاءنى الخبر

بأن أبى حزين لأننى تزوجت ، وانصرفت عن المذاكرة وتحصيل الدرس إلى الزواج ، ورأى هو من قبيل أن يضغط على بألا يرسل لى نقودا ، كان من عادته أن يرسل لى كل سبت مع سيدة تبيع الزبد فى القاهرة مبلغا من المال يضعه فى كيس صغير وتأتى إلى بعد أن تبيع الزبد وتعطينى سلة مملوءة بخيرات أعدتها لى أمى . فقطع عنى النقود على أساس أننى سوف أعود إلى بلدتنا وهناك يعرف منى ما حدث ، ولكنى عاندت فلم أذهب ، وبالتالى تغيرت حياتى قليلا وصممت على نجاحى فى الليسانس ، فتركت عملى فى جريدة الجمهورية ، وأيضا عملى فى مؤسسة الأحداث ، وتفرغت تماما للمذاكرة وإعداد الرسالة التى هى بمثابة اختبار قوى لى إذما كنت سأواصل الدراسة فى مراحلها العليا أم سوف أكتفى بالليسانس ، والآن أبى عاندنى ولم يرسل لى نقودا وأنا عاندته بالتالى انقطعت الصلة بيننا وخاصة أنهم لم يتصوروا أن يعرفوا مكانى الجديد ، وعندما جاءت سيدة بأمر أمى لم تجدنى فى المكان الذى تعودت أن تجدنى فيه ، وقالوا لها إنه ترك المنزل بذلك انقطعت الصلة بينى وأسرتى تماما ، وتفرغت أنا للمذاكرة والامتحان حتى جاء موعد المناقشة ، وحمدا لله استطعت أن أفوز بالليسانس ، خلال هذا كنت آكل فقط ربع رطل حلاوة طحينية وثلاثة أرغفة وأقسم الحلاوة على ثلاثة أرغفة وأقسم الحلاوة على ثلاثة دفعات أضعها فى كل

رغيف ثم أكل رغيفا فى الصباح وثان عند الظهر وثالثا قبل النوم ، حتى لا أشعر بالجوع وظل الحال على هذا الحد حتى نفدت نقودى تماما وظللت بعد هذا دون طعام ثلاثة أيام ، فلما انتهيت من الامتحان عدت سريعا لعملى فى الأحداث وظللت شهرا كاملا أكاد أموت جوعا حتى جاءت مكافأة المؤسسة ثمانية جنيهات آخر الشهر ، وكنت قد مللت الغرفة التى استأجرتها بحشراتها وأيضا جيرانها هم أولاء أناس لا يجب الاختلاط بهم وإن كانوا على الرغم من أعمالهم غير الشريفة - رحماء بى ، ولم يحاولوا مرة واحدة سرقتى أو إغوائى ، إنما كانوا جيرانا شرفاء ، ولكن تصرفاتهم فى غاية السوء وسكنت مع زميلى حسين فى شقة ذات أثاث أنيق دفعنا سويا إيجارها الشهرى خمسة جنيهات ونصف وبالتالى دفعت ثلاثة جنيهات ، وأبقيت معى خمسة للطعام وفى نهاية الشهر التالى جاءنى صديق من الصعيد ليعرف نتيجة الليسانس ، وحان موعد الغداء ولم يكن لدنيا نقودا لكى نطعم الرجل ؟ وصار الموقف محرجا وازدرينا أنفسنا لأننا لا نستطيع إطعام رجل قصدنا . وقفت بجوار النافذة التى تطل مباشرة على الشارع أسأل الله العون فى هذا الموقف ، هل أذهب إلى المؤسسة وأستدين من زملائى هناك ؟ ولكنى لم أفعل ذلك من قبل وهم يتصورون أننى ابن أحد الأثرياء لا يمكن أن يتصور أحدهم أننى فى حاجة إلى نقود ، فلا يمكننى

الاستدانة منهم ، وقفت سائلا النصر من الله فإذا بى أجد أبى سائرا فى الشارع متلفتا فصحت به هرول نحوى فرحا وسعيدا ، وسألته كيف جاء إلى هذا الشارع ؟ فقال يا ولدى لقد سئمت مخاصمتك واستوحشتنى وبعد أن سألتنى والدتك كثيرا فاضطررت للبحث عنك ، وأنا أعلم أنك تحب السكن فى منطقة الدقى ، فركبت الترام السائر إلى الجيزة ، وعندما قال المحصل : الدقى ، هكذا سمعتها وقد علمت أنه يقصد الدرى ، وشاء الله سبحانه وتعالى أن أهبط فى تلك المحطة ، وأن أسير فى هذا الشارع وأن أراك ، وتلفت حوله وقد كان يعرف زميلى فى السكن لأنه من قرية مجاورة يعرف أهله وعرفته على صديقى الصعيدى ثم نظر نحونا وقال لابد من أنكم جوعى أعدوا المائدة حتى أحضر لكم طعاما ، فقلت لا يا أبى سنحضر نحن الغداء ، ولكنه أقسم وتركنا وبعد قليل جاء بطعام يكفى لعشرين رجلا ووضعناه على المائدة وأكلنا حتى شبعنا وكأننا لم نأكل من قبل ثم نظر نحوى وقال أيرضيك أن تكون رجلا مؤمنا ومسلما وتخاصم والدك ووالدتك ؟ فبكيت وقلت متوسلا ، اغفر لى يا أبى كان ذنبا عظيما قال أريدك أن تذهب معى حتى تراك أمك ، وعادت المياه إلى مجاريها ، ونسيت أنا هذا الأمر ونسى هو ولكن عدم حصولى على الليسانس ظل ثابتا فى عقله ، وأعتقد أنه لا يزال حتى الآن . إنه رجل متعلم تخرج فى مدرسة

المعلمين ولكنه لم ينس قط أننى تركته لكى أعمل بعيدا عنه قال باندیا وهو يبتسم :

– أمرت أن تتوقف عمليات نقل الدم وأيضا رفع بعض الأسلاك

قلت فى سعادة : هل آن أوان العودة إلى بلدى ؟

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	٩
الفصل الثانى	٤٥
الفصل الثالث	٧٥
الفصل الرابع	١٠٩
الفصل الخامس	١٢٥
الفصل السادس	١٥٣
الفصل السابع	١٩٣
الفصل الثامن	٢٣٣
الفصل التاسع	٢٥٧
الفصل العاشر	٢٩١
الفصل الحادى عشر	٣٢٩
الفصل الثانى عشر	٣٦٧
الفهرس	٤١١

رقم الإيداع ٣٣٨٩ /٢٠٠٣

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail : pic@6oct.ie-eg.com